رواية WACINY LAREDJ

واسيني

الغجر يحبّون أيضا

مكتبة نوميديا

طبعة خاصّة بفلسطين

LA ULTIMA CORRIDA DE JOSÉ ORANO

الغَجَرُ يُحِبُّون...أيْضًا

رواية

A las cinco de la tarde.
Eran las cinco en punto de la tarde.
Un niño trajo la blanca sábana
a las cinco de la tarde.
Una espuerta de cal ya prevenida
a las cinco de la tarde.
Lo demás era muerte y sólo muerte[1]

Garcia Lorca, La cogida y la muerte

---

1. على الخامسة مساء
بالضبط الساعة الخامسة مساء
أحضر طفل الكفن الأبيض.
على الخامسة مساء
كانت سلة الجير جاهزة،
على الخامسة مساء
الباقي لم يكن إلا موتا. لا شيء سوى الموت.
غارسيا لوركا/ الكوريدا والموت.

ألَم أُولَدْ غَجَرية؟

كم أشبهك يا أبي.

هكذا كانت تقول أمي، أنجلينا أموندين، أو أنجي كما كنتَ تناديها في أوقات عنفوانك الجميل؟ اجتمعتما بالصدفة الساحرة، عند بوابات كوريدا وهران، وفرقتكما صدفة الموت القاسي، والقدر الأعمى. أنت انتهيتَ تحت قرني ثور هائج اسمه وحده يكفي لزرع الرعب في قلب المتفرج: مويرتي[1]، أو لاروكا نيغرا[2] ظننتَ أنّك انتصرتَ عليه قبل الانتصار. في اللحظة الصغيرة التي استهنت فيها به، حدثت الفجيعة. وهي، حبيبتي أنجلينا، سرقوا منها الموت الطبيعي، وكأن النهاية المأساوية التي كانت تخافها، لم تتركها، وظلت وراءها حتى اختطفتها. حينما كان الناس يحتفلون بعيد الاستقلال، في أيديهم وعيونهم كل الأفراح والألوان، كانت أنجلينا تموت برصاص OAS[3]، عند عتبات فندق مارتيناز[4]، برفقة مديره فرديناند مارتيناز. هل كان القدر شرسا ومتحاملا ضدها بكل ذلك القدر من الحقد؟ عندما اقترب منها القاتل ليمنحها رصاصة الرحمة، عرفت من وجهه المجروح، كم كانت ضغينته عميقة. هزت رأسها قليلا قبل أن تغمض عينيها، بالكاد تمتمت: إلى هذا الحد أنتَ أعمى يا غار... لكنها لم تنه جملتها، فقد كانت عقارب الساعة قد تحركت بسرعة نحو وقت آخر.

---

1. Muerte الموت
2. La roca negra الحجر الأسود
3. المنظمة العسكرية السرية.
4. Hotel Martinez Oran.

مضت سنوات عديدة، وتغيرت الأحوال كثيرا بعدكما. مدينتكما رحلت معكما. وهران لم تعد وهران. حلبات الكوريدا أصبحت قبرا مفتوحا على السماء، مثلها مثل ساحة بلاثا دي طوروس Plaza de toros في برشلونة، التي نازلتَ فيها كثيرا يا أبي، تحولتْ إلى مركز تجاري بلا روح. وساحة لامايسترانثا La Maestranza في إشبيليا، أعرف كم يعني لك هذا المكان الذي كاد يسرقك من وهران، تقاوم رياح المحو التي أصابت البلاد كلها. الناس، كما كنتَ تقول، مستمرون في أكل لحم الثيران بلذة، بل ويفضلونه على غيره، لأنه قليل الدسم. والْتَهم البحر والنسيان جزءا من ضفاف حي لاكاليرا الذي امتلأ بأفراحكم، ومعارككم، وجنونكم. مات جدي إيميليانو زباطا في حبسه منتحرا، بعد أن شنق نفسه بقميصه. عندما نطق القاضي العسكري بالحكم: 30 سنة سجنا نافذة. صرخ جدي من شدة الظلم والألم، ثم عوى مثل ذئب البراري: Mentiras, maldito hijo de perro[1] ... ومن يومها فقد صوته نهائيا. لم يتحمل السجن والصمت، وهو الحر دوما. الموت حُرّا أفضل من الحياة ذُلاًّ. شعاره الذي جرَّه وراءه حتى القبر.

أتساءل اليوم: كم من ثور قتلْتَ يا خوسي؟ كم من انتصار حققت؟ كم من امرأة أحببت، أو اشتهيت؟ وفي النهاية، أقلهم خطرا قتلك؟ خطأ غير محسوب اسمه القدر، حسم كل شيء. وكم من رجل جنّنتِ يا أنجلينا، يا سيدة الأقدار، وكم من عاشق تحول إلى مجرم بسبب حبه لك، لتموتي على يد أقلهم رجولة وشهامة. ألم تقولي: إن الحياة لا تقاس إلا بمنطقها، وإلا خسرناها وخسرنا كل جنونها؟ ها أنا ذي أفسر الأشياء كما علمتِني يا أنجلينا، يا أمي.

وأنا أفتش في أوراقك الخفية، في الخزانة القديمة، عثرتُ على صورة للوحة، أشبه بالليتوغرافيا غيرت كل شيء في حياتي. كانت أقوى من الصور الحقيقية التي في حوزتي. أحتفظ بها اليوم ككنز ثمين، وأحلم أن أعثر يوما ما، على اللوحة الحقيقية. لابد أن يكون من رسمها لك يا

1. إنكم تكذبون يا أبناء الكلب.

خوسي، عاشقا لك؟ يصعب عليّ أن أصدق غير هذا. التقاطه لحركتك اللذيذة وأنت تتفادى قرني الثور، من الأناقة والحب والسحر، ما جعلني أقول ذلك، قبل أن أتأكد لاحقا من أن اللوحة كانت لنور، التي لم يُكتب لها أن تمنحك الرسم كما وعدتك، وكما حلمت بذلك، لأنها قتلت في شارع جوفري وهي متجهة نحو ساحة الثيران لحضور منازلتك الأخيرة، ليس بعيدا عن الكنيس اليهودي، في ظروف غامضة. كنتُ أرى هذه اللوحة في الكثير من المقاهي، ومحلات وهران العامة، لكنها لم تسترع انتباهي ولا مرة، على الرغم من معرفتي أنها لك، ربما بسبب التعود على رؤيتها باستمرار. حركتك مدهشة وساحرة، وأنت ترفع المولیتا بعيدا، لتدفع بالثور نحو الفراغ، لحظة الإستوكادا التي كنت تتقنها. كان ذلك في 7 نوفمبر 1954، على الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، في حلبات وهران لمصارعة الثيران. لا أدري كيف كنتَ تفعل، وأي قوة كنتَ تملك؟ حيث يخاف الناس، كنتَ أنت تقوم من الظل فجأة، لتصبح كائنا أسطوريا. كنتَ إلها صغيرا يا خوسي حبيبي، كما نعتك كبير نقاد رياضة لاطوروماشي التي كانت جزءا من ثقافة وهران.

كانت الصورة ملصقة أيضا بداخل كراستك السرية يا أمي، ومعها هذه الكلمات الرقيقة، التي أبكتني طويلا، ومنحتني الرغبة في الركض وراء حياتكما، وكتابتها وفق ما أملاها عليّ قلبي الحزين. من كثرة ما عدت إليها يا أمي، أصبت بدائها المزمن. داء الحزن، الذي كلما ظننت نفسك قد شفيتَ، يستيقظ في أكثر زواياك سرية وبياضا:

«خوسي حبيبي، قبل لحظة غيابك الفجائي في ذلك الخريف القاسي، لم تكن إزميرالدا، قد جاءت بعد إلى هذه الدنيا، ابنتنا الوحيدة التي سرقناها خلسة من قدر تافه، كتبتَ لها هذه الجملة التالية: لن أهديك شيئا، ربما جملة واحدة ستشرح لك أمك سرها: لنا كل الموت لننام. وأنا اليوم حبيبي خوسي أورانو، في هذه المدينة العاشقة، كلما عبرت عتبات بيتك، بيتنا، على حافة البحر، في لاكاليرا، شعرت كأن حياة أخرى مخبأة في السرير، وتحت المخدات، في زاوية المطبخ الظليلة، ليس بعيدا عن النافذة حيث كنا ننزل تلقائيا الستائر، ليس للحماقات اللذيذة مكان محدد سلفا، ولا وقت معين. الحرية كل لا يتجزأ. نمضي الوقت الذي نشاء في خلوة العشاق، وعندما نخرج، تكون الشمس قد استحمت للمرة الأخيرة في البحر. هل توجد سعادة أكثر من هذه؟ الم تقل لي آخر مرة، الحب ليس مشروعا، لكنه حياة تعاش. أردّد اليوم وراءك، بأعلى صوتي: الحبّ حياة تعاش. كلما تخطيت عتبة البيت البحري في لاكاليرا، شممت رائحة ما، لم أعرف سرها ومصدرها، إلا يوم ارتميت في حضنك ومنحتني أول قبلة. ويوم نمت على صدرك العاري ليلة كاملة، ثم ليالي، ثم توقف العد، لأن ليالي لاكاليرا كانت أجمل ما عشت في حياتي كلها. وحدهم الغجر يعرفون أن للجسد طعما وللذاكرة رائحة، أو روائح. يرتحلون بلا هوادة حتى تتوقف ساعة القلب، محملين بشيء واحد، ذاكرتهم، وألسنتهم التي تحفظ أبدا طعم الأشياء، بما في ذلك طعم الحب الساحر، والقبلة الأولى، التي تخجل من ذكرها الكثيرات ليس خوفا أو ضعفا، ولكن خجلا من أن يعتبرها الآخرون نقطة ضعفهن أمام الرجال؟ الرجال كما النساء يا خوسي، لا يتشابهون أبدا. لا

تلمني حبيبي على عصياني كلما تعلق الأمر بحريتي. ذلك رهاني الأوحد حتى أودع الحياة، وأجد من يدفنني، أو حتى من يرميني للضباع الجائعة. ليس مهما. ألم أولد غجرية؟

كلما قرأت هذه الكلمات، تمنيت لو كنت مثلك يا أمي، بكل خطاياك التي ليست إلا التعبير المجنون عن حريتك، لكنني كبرت بسرعة في عصر آخر، وأصبحت شبيهة بالآلاف الذين يعبرون بالقرب من بابنا، وبحرنا، وعزلتنا. حتى عندما فاجأوني بخبر اغتيالك القاسي عند بوابة الفندق، ومقتل الجاني غارسيا بيكينيو، الذي كان يمكنه أن يكون أبي، على يد عمو خمنيث، النقابي الأحمر، الذي كان وراءك بالضبط لحظة إطلاق النار عليك، لم أصدق، بقيت صامتة لأسبوع. لم أتكلم إلا عندما أخذني خمنيث وصديقته هيلينا الطيبة، لأقف على قبرك وأتأكد بعينيّ وقلبي، وكل حواسي المرتعشة، من أنك متِّ بالفعل. ناديتك طويلا في ذلك اليوم الموحش كالخراب، في المقبرة البحرية بجانب أجدادك الأوائل، ولكني لم أسمع إلا قلبي الصغير ينط في مكانه بيأس. يومها وقفت بصعوبة بعد أن وضعت على قبرك ديسك فنيل 33، الذي صدر يوما واحدا بعد اغتيالك. كنت أريد أن أفرحك به، لأنك انتظرته طويلا. الأسطوانة تحتوي على عشرين أغنية غجرية بصوتك الشجي، واحدة حملت عنوان الألبوم كله، تبكيني كلما سمعتها، تماما كما كانت تبكيك يا أنجي، Bloc 11-Auchwitz[1] ربما كانت عن جدي الذي أخذوه ولم يعد أبدا.

أيها الغجري التائه.
ابتسم، أنت في أوشويتز
في الجناح رقم 11.

1. Bloc 11-Auchwitz هو المكان الذي أجرى فيه النازيون التجارب الأولى للغازات السامة، زيكلون، وكان الغجر أول من جربت عليهم هذه الغازات، بشكل مخبري سري. وقد قتل منهم ما لا يقل عن 600 ألف غجري. مكتشف هذا الغاز باحث ألماني من أصول دينية يهودية، فريز هابر Fritz Haber الحاصل على جائزة نوبل.

تستحم بالغازات من أجل نقاء البشرية،
وتتعلم كيف تصبح جرذا نبيلا.

اليوم، كلما زرت حلبات مصارعة الثيران، التي أغلقت أبوابها منذ تلك المنازلة القاتلة، أتمسَّح بجدرانها مثل مجنونة وقعت في حب حجارة ولي صالح، أغمض عيني فقط لأراك وأنت تحقق قفزة الإستوكادا الهوائية، المجنونة، تماما كما في لوحة نور، وأمحو الغشاوة من عيني كي لا أرى دما، سوى لحظة طيرانك مثلما تظهرك صور ذلك الزمن الذي ابتعد اليوم كثيرا.

كم تمنيت أن أكون هناك، خارج بطن أمي، لا لشيء، إلا لأنبهك لقرني القدر المتربص بك من وراء ظهرك، وأنت في سقف نشوتك. صرختْ أنجلينا يومها بقوة، لكن صرختها، ضاعت في الفراغ وصراخ الجمهور، أعتقد أني كنت الوحيدة التي سمعتْها، ولم أفعل شيئا لأني كنت سجينة رحمها الذي تقلص فجأة حتى كاد يخنقني.

تنتابني أحيانا حالات من جنون أردها في النهاية لثقافة أمي الغجرية، فلا أطيق البشر، بل لا أطيقني، فيبدو لي كل شيء عبثا. لا يصلح لشيء. أنزل نحو بقايا لاكاليرا أتفقدكما. أتلمس عطركما وبحركما، وحتى باريخا خمنيث التي تفككت ألواحها ولم يبق منها إلا بعض هيكلها، ليس بعيدا عن بيته، الباريخا التي نمتما فيها، في تلك الليلة المليئة بالضباب الساحر، بعد فراق طويل، فاستعيدني من جديد. حكيت مع جاري عمي الهواري، الذي وعدني بإعادة بنائها كما كانت، ما دام الهيكل موجودا. يوم ينتهي من ذلك، سأدخلها وأنام فيها، فقط لأرى الألوان التي رأياها تلك الليلة، والأصوات التي سمعاها، والعطر الذي سحبهما بعيدا نحو جنتهما.

لقد هدأ كل شيء، واتسعت فسحة الكتابة.

ها أنا ذي أستحضركما معا، وأكتبكما، بالطريقة التي فضّلتماها،

حبيبي خوسي، أمي العظيمة، أنجي، متخطية عتبات الذاكرة المرة، والحاضر العبثي. ألم أولد غجرية، من حرية الجنون، وماء البحر، ومن دم هو خليط من نار جهنم، ورعشة الموج؟

إزميرالدا أورانو.

1

كان مساء سعيدا.

التاسعة. هو الوقت بالضبط الذي ينتهي فيه اليوم في وهران، ليبدأ يوم آخر. تغلق الأبواب وتوقد أنوار المدينة.

كل شيء بدأ عندما دخل القطار القادم من العاصمة إلى محطة وهران، بضجيجه العالي وأدخنته الكثيفة، وأحلام ركابه الغامضة والمرتبكة. تمهل قليلا، قبل أن يحدث صرير مكابحه الحديدية صوتا حادا وجافا، وتتوقف محركاته نهائيا.

أخيرا وهران...

صرخ الركاب جميعهم.

تفتح أبواب القطار الثقيلة، فتطل مجموعة من الغجر برؤوسهم المتحركة، وألبستهم الملونة، وهم في حالة انتشاء، على الرغم من تعب الرحلة الطويلة. ينزلون وسط الموسيقى الاحتفالية، تسبقهم أغانيهم ونقرات القيثارة الجافة، والبانجو، والضحكات التي لا تتوقف.

بين سفر وسفر نكبر بسرعة
ينشد القلب أحلاما تركناها
وأخرى على الحافة تنتظر.
نحن الغجر لا نملك أحذية، ننتعل الريح والغيوم،
نطير حيث نشاء، ونبيت حيث القلب يريد.

بيتنا فضاء، وسقفنا سماء.
أرضنا سراب، تنتفي فيه الحدود.

وترد المجموعة الثانية التي تجمعت، بعد أن نزلت من القطار.

نحن الغجر لا نملك أحذية، ننتعل الريح.
ونطير حيث نشاء، ونبيت حيث القلب يريد.
أرضنا سراب، تنتفي فيه الحدود.

من القاطرات الأمامية، ينزل رجل لم يكن طويلا ولا قصيرا. على رأسه بيريه أنيق، وعلى عينيه نظارتان سوداوان، وفي يده اليمنى عصا بيضاء. يمشي بصمت واستقامة، برفقة سيدة جميلة بوجه مشرق، على رأسها قبعة سوداء، بوردة بيضاء. تضع ذراعها اليمنى في ذراعه اليسرى. ينظران صوب المخرج. شرطي واحد يراقب ويفتش الأشخاص كلما عنّ له ذلك. بحسب الوجوه التي يمسحها بعينيه، من الأقدام حتى الرأس.

يعدل الرجل من نظارتيه قليلا، والبيري. ينظر إلى المرأة التي معه. تهز رأسها، أن نعم. تعدل قليلا من قبعته بلطف كبير، ثم يتجهان نحو بوابة الخروج.

يعبر الناس بهدوء. فجأة يوقفهما الشرطي المسلح الذي كان يراقب المسافرين بعينين حادتين مثل عيني صقر.

تأملهما قليلا، بنظرة استكشافية.

ابتسمت المرأة له. قلل من صلابة وجهه. رد هو على ابتسامتها بنفس النعومة، فتغيرت ملامحه كليا.

– هكذا أحلى. لا تستحق الدنيا أن نكشر لها، فهي جميلة.

قالت المرأة وهي تداعبه بابتسامتها المشرقة.

– لا. التعب فقط. والإرهابيون، عليهم اللعنة، غيروا أنماط العيش في هذه المدينة الجميلة، والقادرة على احتواء الكل. كأنهم يجدون لذة في ذبح الأبرياء.

- معك حق يا سيدي. الزمن الذي نعيشه صعب جدا. الحذر واجب. لا ندري من أين تأتينا الطعنة القاتلة. يكاد يكون الكل مجرما، والكل بريئا.

- غرباء عن المدينة. من العاصمة؟

- نعم. هنا لشهر العسل في وهران، أجمل ما يمكن أن يحدث لعاشق أن يرمي بنفسه فيها. لنا أهل هنا.

ردت المرأة ذات القبعة السوداء والوردة البيضاء.

فتح وثيقة الهوية التي طلبها من الرجل صاحب النظارتين السوداوين، ثم نظر إلى وجهه يتفرسه بعمق:

- سيفاكس إيدير.

هز الرجل رأسه أن نعم. ثم التفت الشرطي نحو المرأة وهو يفتح هويتها. نظر إلى وجهها لحظة بدت لها طويلة وغير عادية، مع ابتسامة انكسرت عند نهاية الشفتين اليابستين:

- مدام ميشلين ميلر. مممم من أصول جرمانية؟

- يعني قليلا. من الألزاس.

- صدفة غريبة. أهلي من هناك أيضا.

تغيرت فجأة نظرته لهما. استعت ابتسامته. لكن ميشلين لم تترك له فرصة أن يسترسل معها في الحديث.

- من ستراسبورغ تحديدا.

- وأنا أيضا منها. مدينة القوة والأصالة.

دغدغته قليلا بالكلمات التي أحست أنه يشتهي سماعها.

- الألزاس واللورين هما منبت النشيد الوطني الفرنسي.

- المنطقة التي رحبت بالثورة الفرنسية التي رفضها الكثيرون. ثوارها الكبار مثل كليبير، ويسترمان، كيلرمان، راب[1] 8، وغيرهم. دافعوا عن دريفوس باستماتة. بعد هزيمة الفرنسيين في حرب 1870، ضمها الألمان لأراضيهم، قبل استعادتها من الفرنسيين في الحرب العالمية الثانية. هذا ما يجعل منطقتنا لها خصوصية غير موجودة في بقية المدن الفرنسية الأخرى. فينا شيء من الدم الجرماني الفخور بأصوله. ستراسبورغ أهم المقاطعات الخمس: ميلهزر، كولمار،هاغونو، سان لويس[2] .

- لهذا يفتخر الألزاسيون بأصولهم المميزة.

- من اسمك، أصولك جرمانية.

- فيَ شيء من ذلك ما دمت من المنطقة. هل يعني لك اسمه شيئا؟ سيفاكس.

ضحك الشرطي:

- طبعا أعرف أصولي، لكني لست مؤرخا. من هذا السيفاكس؟ لم أسمع به أبدا في حياتي.

- قصة طويلة لكنه أمير بربري، يشبه الكثيرين اليوم. حمل السلاح ضد الرومانيين مستندا على مساعدة القرطاجيين، في وقت تحالف ابن جلده وغريمه ماسينيسا، مع الرومان.

- ماسينيسا سمعت به. طيب، فكيف قبلتم أن تسافروا مع غجر لا نظام يضبطهم، فوضى وروائح كريهة وأوساخ.

- هههه لا يا سيدي الشرطي، هؤلاء لا يشبهون بقية الغجر. ناس طيبون جدا. كلهم عطور ساحرة. لو تقترب منهم ستعطيني حق. مجموعة طيبة متحضرة.

---

1. Kleber, Westermann, Killerman, Rap8.
2. Strasbourg, Mulhouse, Colmar, Haguenau, Saint-Louis.

طيبة ومتحضرة؟ هههه. منذ متى؟

تساءل الشرطي ساخرا وهو يحك على رأسه من تحت قبعته، يقاوم انسدال عينيه من شدة التعب والرغبة في النوم.

- أفرحوا الركاب في القطار بغنائهم ورقصهم طوال الرحلة. ورقص معهم كل من رغب في ذلك. كانوا في عربة واحدة حتى لا يزعجوا بقية المسافرين. المسافات الطويلة كئيبة، وتحتاج إلى من يخفف ويزرع فيها بعض الفرح. هم فعلوا ذلك بطيب خاطر. لا أعتقد أنهم يشبهون الصورة التي في رؤوسنا عنهم.

- ربما معك حق. لكني أتحدث عن تجربة. كان يسكن معنا في البناية جاران من الغجر، في صراع ليل نهار، لم نرتح منهم إلا عندما حولناهم، إلى حي آخر. لا أدري من أسكنهم في الحي الأوروبي.

-... ... ...

فكرت ميشلين ميلّر أن ترد عليه بعنف، لكنها لزمت الصمت في النهاية مخافة أن يعقد عليهما الخروج.

- يتكاثرون مثل الأرانب هههه

واصل الشرطي ساخرا مرة أخرى.

لم تضحك ميشلين، ولا إيدير سيفاكس. استدرك الشرطي.

- لكنهم يزرعون الفرح أينما حلوا. هذه عندك حق فيها. في هذا يختلفون جذريا عن بقية الناس. ماذا في هذه الحقيبة الكبيرة.

- لا شيء يا سيدي. ألبسة عرسنا لا أكثر، هل تريدني أن أفتح الحقيبة. شوية متعبة، لكن لا بأس.

- لا داعي. الإرهاب جنننا وسرق عفويتنا وراحتنا. تعرفين أن الأمور في هذه الأيام ليست على ما يرام منذ التفجيرات الأخيرة. حياة المواطن

الفرنسي أصبحت في خطر شديد. من يدري؟ ربما يكون أحد الإرهابيين قد سافر معكم في نفس القطار. لهذا أصبح التشديد الأمني في كل مكان.

ثم تفحص بعينيه الحادتين الرجل. انحنت ميشلين ميلّر عليه، ووشوشت في أذنه اليمنى القريبة منها.

– إنه ضرير يا سيدي.

هز الشرطي رأسه متفهما كلامها.

– لا مشكلة يا سيدة ميلّر، أرى فقط محتويات حقيبته، وأترككما تمضيان. أعرف أن تعب الرحلة كان كبيرا.

– عندما انحنت بظهرها لفتح الحقيبة، كان الغجر قد تدافعوا نحو المخرج جماعيا كأنهم يريدون الخروج من بوابة محطة القطار دفعة واحدة، وفي نفس الثانية، حاملين لافتات كبيرة عليها صورة خوسي أورانو.

أشر لهم الشرطي بالتوقف والانتظار قليلا.

قالت أنجلينا أموندين التي كانت تجر المجموعة وراءها.

– نحن يا سيدي مجموعة من الغجر، وعشاق مصارعة الثيران المسالمون. ألا تحب مصارعة الثيران؟ ألا تحب خوسي أورانو، المصارع الوحيد في وهران وابنها؟

هز الشرطي رأسه بالموافقة.

– أحب هذه المصارعة، بالرغم من أن هناك الكثيرين ممن يرفضونها، لأنها دموية قليلا.

– متعبون يا سيدي. لم ننم، لكننا أفرحنا الركاب جميعا ليتحملوا كآبة الرحلة. نريد الآن أن نخرج من هنا بأقصى سرعة ممكنة، كل العائلات تنتظرنا.

أضافت أنجلينا.

نظر الشرطي إلى ملامحها طويلا. كانت رقيقة، وشعرها يكاد يكون أزرق من شدة سواد لونه، تحت انعكاسات الأضواء العلوية.

نظرت أنجلينا إلى السيدة صاحبةً القبعة السوداء والوردة البيضاء. بينما التفت الشرطي من جديد نحو الرجل ذي البيري، والنظارتين السوداوين.

غمزتهما أنجلينا. فتقدمت بخطوتين نحو الشرطي.

- نحن نحب وهران ورموزها العظيمة. احتفلنا في العاصمة بوضع تمثال للغجري الأول سرفانتيس، في مغارته التي تخفى فيها، في مرتفعات العاصمة. ونتمنى أن يكون لنا في وهران تمثال لسرفانتيس، ألم يكن واحدا من أبنائها؟ كان يحبها، وكاد يعدم من أجلها. آخر هروب له كان باتجاهها، وألقي عليه القبض على مشارفها. لوهران بعض الحق في سرفانتس.

- معروف. سمعت به. نعم سمعت الكثيرين يتحدثون عنه، لكنني لم أعرفه للأسف.

- لا يمكنك أن تعرفه، فقد سبقك إلى هذه الأرض بأربعة قرون هههه، لكنه كان لطيفا وانيقا مثلك.

ضحكت النسوة وراءها بصوت مسموع، وضحك هو معهن بالكثير من الغباء الذي تدفق على وجهه بقوة.

لم يكن يعرف شيئا مما كان يسمعه.

قالت صاحبة القبعة السوداء، ميشلين ميلر:

- سيدي، تعبنا من الانتظار، هل يمكننا أن نخرج؟ سيارة الأهل تنتظرنا في الخارج.

– عذرا نسيتكما. الغجر مشكلة تكبر كلما لامسناها أو اقتربنا منها، قال الشرطي. طبعا يمكنكما الخروج.

ثم التفت نحو أنجلينا.

– وأنتم؟ إلى أين أنتم ذاهبون؟

– إلى بيتنا يا سيدي، في حي الكميل[1]. هؤلاء ضيوفنا جاؤوا من العاصمة لحضور احتفالية الكوريدا غدا. كان الكثير منا في احتفالية سرفانتيس، في العاصمة. كانت المناسبة مزدوجة إذ تم الانتهاء من بناء وترميم مغارته. وعدنا لنفرح بضيوف كوريدا وهران.

– أين أنتم ذاهبون الآن؟

– قلت لك يا سيدي. إلى الكوريدا في الكميل. غدا تفتتح الكوريدا من جديد بمقابلة أشهر ماتادور في العالم، أنطونيو دي غاليسيا، جاءنا من إشبيليا العظيمة. وجوده مهم جدا لوهران، سيعيد بعث هذه الرياضة النبيلة التي ماتت أو تكاد.

– عندك أوراقك؟

– نعم. أنا أنجلينا أموندين، يعرفني كل الغجر.

– لكنني شرطي ولست غجريا.

– وهذا والدي إيميليانو زپاطا. جاء لاستقبالنا في المحطة. وهؤلاء أصدقائي، لا يمكن أن نضيع مقابلة كوريدا وهران.

زپاطا... تمتم الشرطي. كان من الصعب عليه كتم ضحكته.

– انظر الصورة التي فوق رأسك؟ ألا تحب الكوريدا؟ الشاب الذي على الصورة هو أيقونتنا في وهران: خوسي أورانو.

---

1. أحد أحياء وهران، ECKMUHL حيث توجد حلبة مصارعة الثيران Les Nouvelles Arènes

تردد الشرطي قليلا، ثم رفع رأسه، فرأى صورة المتادور خوسي أورانو، وهو يتفادى قرني الثور الحادين في حركة هوائية جميلة.

- لا لست متحمسا لهذه الرياضة. دموية كثيرا. لكني لا أكرهها.

ضحكت أنجلينا وهي تنظر إلى الخارج. رأت إيدير سيفاكس، تتبعه ميشلين ميلّر، وهما يركبان في إحدى السيارات المنتظرة في المحطة. ابتسمت وهي تلتفت نحو الشرطي المسلح.

- وماذا لو عزمتك أنا، هل تقبل مني ذلك؟ ستستمتع حقيقة بوقتك، في المشاهدة، والفرح مع الغجر.

رأى ملامحها الأنيقة والذكية.

- متزوجة؟

- نعم. زوجة أحد أكبر مجرمي المدينة، هههه غارسيا بيكينيو. عمله الوحيد الذي يتقنه هو القتل، وخصي الحمير، والبغال والأحصنة و... هههه

- أنت تمزحين. في هذه الحالة سأفكر. أنا بيير لغرونج.

- وأنا أميرة الغجر، أنجلينا أموندين. التحق بنا غدا في سوق الكميل، بجانب الكوريدا، إذا أحببت. سنكون هناك، وسترافقنا في الدخول. عموما ببطاقة واحدة ندخل عشرة هههه.

سمح للجميع بالخروج، بعد أن تأكد من هويات بعضهم.

اتجه نحو عمق المحطة التي أغلق أبوابها أحد الحراس، فبدت البناية الجميلة فجأة يتيمة وبلا روح.

ركبت أنجلينا أموندين مع أصدقائها الكاليشا الثقيلة التي كان يجرها حصان خشن، يساعده على الطرفين، حصانان شابان، كانت تنتظرهم عند المدخل.

أمروا السائق بعبور المدينة، باتجاه الكميل.

- نقطة التوقف؟

- لنوفيل زارين [1](حلبات الثيران الجديدة)

- سوق الكميل؟

- بالضبط يا أمير.

كانت الأضواء الليلية قد اشتعلت. عواء ذئاب جائعة يأتي من ناحية جبل الأسُود، تخترقه من حين لآخر أصوات كلاب كان يبدو نباحها قريبا من المكان الذي كانوا فيه.

- يييييي هوووووووب

بدا صوت سائق الكاليشا خشنا، مخترقا صمت محطة القطار التي كانت قد نامت في ظلمتها، فتحركت الأحصنة بثقل قبل أن تستقيم في مشيتها، على إيقاع حوافرها، ونشيد غجري جماعي:

نحن الغجر لا نملك أحذية، ننتعل الريح والغيوم،

نطير حيث نشاء، ونبيت حيث القلب يريد.

بيتنا فضاء، وسقفنا سماء.

أرضنا سراب، تنتفي فيه الحدود...

1. Les Nouvelles Arènes.

2

الرايات ترفرف عاليا. تثير بألوانها الكثيرة والمتنوعة انتباه الناس الذين بدأوا يتوافدون على كوريدا وهران.

أخيرا أنطونيو دي غاليسيا في حلبات وهران لمصارعة الثيران؟ لا أحد تصور ذلك قبل أسابيع قليلة. كانت الفرحة تقرأ على الوجوه الوهرانية، وهي تعبر باتجاه ساحة المارشي الكبيرة، في انتظار فتح بوابات الكوريدا الكثيرة، على اتساعها، لدخول الجمهور ومشاهدة عرض أنطونيو دي غاليسيا.

وقف المتادور خوسي أورانو قليلا بمحاذاة صورة الإعلان الكبيرة. تأملها طولا وعرضا. رأى جيدا حركتي أنطونيو دي غاليسيا، بطل كوريدا إشبيليا، أولا وهو يتفادى برشاقة الضربة الخادعة لثور في قمة هياجه. ثانيا وهو يستعد للإستوكادا، الضربة القاتلة، بكل أناقتها وحدّتها لحظة تتوغل شفرة المتادور في رقبة الثور الذي يستسلم أخيرا للنهاية القاسية. الضربة الدقيقة والمحسوبة، هي التي لا تخطئ مكانها، ولا تعذب الثور، إذ يأتي الموت سريعا بالضربة القاتلة. يعرف خوسي أورانو ذلك جيدا. فقد تعلمها من أستاذه أنطونيو دي غاليسيا عندما كان يتدرب في حلبات إشبيليا مع ثيران صغيرة تحت تصفيقات جمهور المدرجات. كان أنطونيو يذكره دائما بتلك اللحظة الفاصلة التي يغيب أمامها كل شيء ولا تبقى إلا هي، عندما يكون الثور في سقف هياجه. فيندفع بشكل أعمى باتجاه المولیتا، الخرقة الحمراء التي يتخفى وراءها عرْضيا، سيف المتادور، قبل تفادي ضربة قرنه الأيسر، في آخر ثانية. الكثير من الثيران تسقط على

قوائمها الاولى في حالة الانهاك والتعب إذا كان تفادي الضربة رشيقا، وفي حالة الخطأ الصغير من طرف المتادور تكون الضربة قاتلة، إذ يدخل القرن في الجهة اليسرى من جسم المتادور، وهي الضربة التي يخافها الجميع بالخصوص إذا كان الثور الهائج سريع الدوران.

الجمهور كبير، يتحرك في الدائرة المحيطة بالكوريدا. ناس الساحات القريبة، وشارع لياج[1] ، منتشون باليوم، ضحكا ورقصا، وغناء.

شباب يوزعون بشكل شبه سري، منشورات عامة تدافع عن فكرة استمرار رياضة مصارعة الثيران، وتحتها يوزعون وثيقة أخرى، بحسب الأشخاص، عن توقيف التقتيل المجاني ضد المواطنين العرب، والعنصرية ضد القوميات الأخرى تحد عنوان: لسنا حلزونات ضائعة.

اقترب الشرطي من موزعي الأوراق. طلب منشورا، سلمت له ورقة الدفاع عن رياضة مصارعة الثيران وعليها صورة المتادور خوسي أورانو. خرج الشرطي من الصف وهو يردد: نحن أيضا نحب خوسي أورانو، ليس فقط أنتم.

فيردون عليه جماعيا.

- كلنا نحبه، هو ابن مدينتنا الأوحد الذي يشرفنا في هذه

الرياضة. لهذا الكثير منا، من رجال الأمن، مع استمرار رياضة مصارعة الثيران.

يعرف خوسي أورانو أنهم غجر ريو دي صالادو[2]، ومسرغين والأماكن المحيطة بوهران، التي اشتغل بها جده بوصفه مربيا ومروضا للثيران.

ضحك وهو يدور حول الكوريدا.

---

1. Rue de Liège.

2. الوادي المالح بالإسبانية.

تذكر النطح الذي كان يتلقاه، وهو يركض وراء الثيران الصغيرة في مزرعة جده. لا يدري خوسي أورانو كيف وجد نفسه داخل مجموعة من الغجر، وكل الأيادي تؤشر له، وتصرخ باسمه.

خوسي أورانو... خوسي أورانو... خوسي أورانو...

فجأة سحبه أحد الشباب، ممن كانوا يرقصون ويعزفون، من يده. تمتم في أذنه:

- أنا ميغيل سانتوس دي كاميرا، عازف البانجو، ونحن نحبك. لأنك تملأنا حياة وحبا. نريدك معنا.

جره نحو المجموعة. أدخله إلى ساحة دائرية تشبه حلبة، كانت موسيقى جورج بيزي تملأ المكان. فجأة ساد الصمت قبل أن تكثر الهمهمات التي تحولت إلى تصفيقات وهتافات **خوسي أورانو... خوسي أورانو... خوسي أورانو....**

- شكرا ميغيل. لقد أقنعته بأن يمنحنا حقنا نحن الذين نحبه.

لم يستطع خوسي أورانو أن يتفادى عينيها الحادتين المائلتين. كانت مع مجموعتها يملؤون المكان، في انتظار فتح بوابات

حلبات وهران لمصارعة الثيران. Les arènes d'Oran، أو الحلبات الجديدة Les Nouvelles Arènes، كما يسميها المختصون.

أنطونيو دي غاليسيا لا يتكرر دائما. فرصة. فقد جاء من إشبيليا خصيصا للقيام بأحد أهم استعراضاته ومنازلاته في وهران، بدعوة من المجلس البلدي، والسيد باريير الذي أعاد فتح حلبات مصارعة الثيران، على الرغم من الكثير من الاعتراضات.

كانت المرأة ترقص برشاقة والرجل الذي بجانبها يغني.

نحن الغجر نحب الحياة
ولا نجبر أحدا على أن يكون مثلنا
لكن من يحبنا يتبعنا إلى آخر العمر،
أو نحوله إلى ثور، في كوريدا وهران.

يصرخ المحيطون بالدائرة، وفي أياديهم مناديل حمراء:

هولّي... هولّي... هولّي...

هو لا يعرفها، ولو أنها لم تبد له غريبة أبدا، كأنه رآها في مكان ما. في زمن ما لا يتذكره الآن بدقة. أو ربما نظرتها الحادة هي التي منحته هذا الإحساس الغريب.

الدائرة من حولهم تكبر وتتسع. عدد الناس يزداد. كانت المرأة ترقص على إيقاع عازف القيثارة والبانجو. نغمات الكاستانيات على رؤوس أصابعها كانت تحدث إيقاعا شهيا. مقابلهما، شخص من المجموعة يضع على رأسه قبعة بقرنين، يهجم على المرأة كأنه ثور. يصرخ الحاضرون: أنجلينا. احذري. الثور يهجم عليك؟ تفتح فلقتي لباسها الأسود فيظهر الداخل الأحمر للباس، وكأنه موليتا في يد متادور امرأة. يركض نحوها الرجل ذو القرنين، فتتفاداه بحركة صغيرة، لينتهي بين أرجل الجمهور الذي كان يضحك عاليا، بينما تواصل أنجلينا غناءها ورقصها.

اتركني، أنت تكذب مثلما تتنفس،
أنت مخادع، وتستحق جهنم.
سأخونك وأبدو أمامك ملاكا
لأنك لا تستحق غجرية وفية...

يتضاحك الناس عاليا ويرددون، وكأنها مستهم في الأعماق:

سأخونك وأبدو أمامك ملاكا
لأنك لا تستحق غجرية وفية...

يخرج الثور ويعاود الكرة وينتهي وسط جمهور الجهة اليسرى. ينزع قبعة القرنين، يحيي الجمهور بانحناءة كبيرة منه، ثم يدور وسط الساحة، يجمع النقود من أيدي الحضور الذين لا يبخلون أبدا لأنهم يعرفون أن الغجر عشاق حقيقيون.

انسحب الثور، أو من كان يلبس قبعة القرنين، من المشهد.

ازدادت فجأة حدة القيثارة الإسبانية الجافة. سحبت أنجلينا، خوسي باتجاه وسط الساحة الواسعة. مد يده نحوها بكل طولها. بينما تراجع صديقها غارسيا بيكينيو إلى الوراء أكثر وهو لا يصدق عينيه: كيف للرجل المعجب بفنه، أن يرقص مع زوجته؟ رشق بصره في خوسي أورانو وهو يصدق بالكاد أنه هو. تابع كل منازلاته، ومسحور بتقنياته الخاصة، بالخصوص بطيرانه لحظة الإستوكادا.

عندما سحبته بقوة نحوها، لم يبد خوسي أورانو أي مقاومة. بل شعر باستفزاز عميق. ترنح قليلا في مكانه مادا يديه إلى الأمام، ثم بدأ يرقص في تواتر بقدمين محاذيتين لبعضهما، تسمع الطقطقات من بعيد، سحبت جمهورا كثيفا نحو الساحة. الجسد مستقيم كشجرة سرو عالية، لا تهزها الرياح. اليد اليسرى على الخصر، بينما اليمنى تلوح في الهواء متبعة الإيقاعات المتتالية.

فجأة نسي خوسي كل ما كان يحيط به. وتخلت أنجلينا عن كل شيء، ودفعت بنفسها كليا، في دوار الرقصة. لم تصدق عينيها القويتين المائلتين كعيني نمر، خوسي أورانو يراقصها؟ وهي التي أحبته عن بعد، ودافعت عن رياضة مصارعة الثيران فقط لأن خوسي أورانو بها.

استمرت الرقصة طويلا، في انسجام كلي بينهما. الجمهور مستمتع ونسي حتى أنطونيو دي غاليسيا. ثم دارت في مكانها كورقة في مهب الريح، قبل أن تنزل على ركبتيها وتوقف الرقصة نهائيا بشكل جاف.

تمتمت. وهي تمد يدها نحوه كمن يستنجد:

– حبيبي خوسي أورانو. أقتلني أو أنقذني من سيفك.

ضحك الجمهور عاليا.

كان ينظر إليها بعينين صامتتين.

– ماذا تنتظر يا خوسي؟ ألا تدخل شفرتك في رقبتي كما تعودت أن تفعل ببرودة مع الثيران؟ أدخلها، لن يحاسبك أحد، مجرد حيوان قتيل. افعل، لا تتردد، أنا الثور المهزوم، وأنت المتادور، والجمهور ينتظر الإستوكادا. إما أن تقتلني أو يقتلك الثور المهزوم.

ابتسم خوسي.

– لا. لن اقتلك. لن أقتل ثورا مهزوما.

– الثور المهزوم حقود يا حبيبي ولن يرحمك.

– سيموت من تلقاء نفسه.

برافوووووو... صرخ الجمهور المحيط بهما.

لم تنزل أنجلينا بصرها من على وجهه.

– هل تتذكر اسم آخر ثور قتلته يا خوسي، ثم مضيتَ منتشيا، كأن شيئا لم يكن، أيها المتادور الرشيق؟ اغرس شفرتك وارحمني. ماذا تنتظر؟ أنا بين يديك. أنا ثورك الذي عليك أن تنهيه. هي أول مرة أستسلم فيها لرجل بهذه السرعة وهذه القوة.

مد لها يده الناعمة ثم سحبها نحوه حتى كاد أن يلصق وجهه بوجهها.

– قلتُ لك لن أقتلك.

– أنت جبان إذن.

لم تضحك. بل رشقت نظرتها في عينيه وظلت للحظات شاخصة فيه بعينين لوزيتين مائلتين، تغير لونهما فجأة، فتغيرت زرقتهما البحرية، ومالت قليلا نحو الرمادي.

الناس يصفقون ويصرخون.

أحنت رأسها وظهرها إلى الأمام. الشيء نفسه فعله خوسي. ثم استقام بهدوء، وعانقها طويلا.

- شكرا أنجلينا. سعيد بأدائك الرائع. كدت أصدق أن كل ما قلته كان حقيقيا، ولم يكن مجرد أداء جميل.

- كنت أعرف المتادور الوهراني الأصيل، وها أنا ذي أتعرف على خوسي أورانو الراقص، الجميل، الدافئ. كنت أحسن أداء في الحب من الثور البائس الذي يعيش معي، زوجي غارسيا بيكينيو. لا يعرف إلا التهديد والقتل. عصبي، يشعر دوما أنه سيخسرني، وأني سأطير من بين يديه يوما ما.

تضاحك الجمهور عاليا.

وقبل أن ينطق خوسي أورانو بأية كلمة، في اللحظة نفسها بالضبط، كان غارسيا بيكينيو يقف بينهما. سحبها نحوه كأنه داخل ساحة الكوريدا. تركها وراءه، وتقدم قليلا بصدر منتفخ، نحو خوسي أورانو.

تراجعت أنجلينا خطوة، مبتعدة عنه قليلا، وقالت من وراء ظهره:

- تخيل يا خوسي أورانو. هذا الثور، زوجي هههه.

ضحك غارسيا كأن قهقهته قطعتا معدن تتآكلان بسرعة.

غارسيا، كتلة من العضلات، تبدو واضحة من تحت لباسه الخفيف، كأنه حارس الفوضى في الحانات.

ضحك الجمهور وصفق على جملتها الأخيرة. صفق شخص من بين عشرات الوجوه التي تعودت عليها، عرفته فنادته لتسلم عليه، وهي تضحك:

- عزيزي بيير لاغرونج. أجمل شرطي ألزاسي، في محطة قطار وهران. هو من ساعدنا على إدخال المنشورات الممنوعة، بعد عودتنا من العاصمة ليلة البارحة، وكان لطيفا معنا. لهذا نعتبره من مناصري الحلزون والغجر.

ضحك الجميع. اعتبروها نكتة من نكات أنجلينا. بينما أحس هو بافتخار كبير عندما حمله الناس فوق ظهورهم. في أعماقه، لم يكن يعرف هل كان عليه أن يفرح أم يخاف؟

بينما نظر غارسيا إلى وجه خوسي بحدة، لم يعرف هذا الأخير، إذا ما كان ذلك جزءا من العرض أم غليانا حقيقيا، سببه الغيرة التي أودت بحياة الكثير من الغجر. لاحظ فجأة الوشم الذي ختم ذراعه الأيسر.

قال غارسيا وهو يرد تلقائيا على آخر كلام أنجلينا.

- تخيل يا سيد خوسي أورانو. هذه القحبة المجنونة، زوجتي الحبيبة؟ تستحق القتل الآن، ويساح دمها أمام الجمهور.

صرخ الجمهور الذي كان قد دخل في تواشج مع الراقصين والمغنين، بصوت واحد وعام:

ووووووووووووووووووووووو

التفت غارسيا نحوهم

- لكن الغجر مثل الجميع، يحبون ويغارون أيضا...

ارتفع التصفيق عاليا.

ثم بدأت المجموعة في التفكك. سحبها غارسيا من يدها، بينما ظل بصرها شاخصا في خوسي أورانو. تبعهما عازف القيثارة الجافة والبانجو، والمجموعة الصوتية النسائية. غابوا فجأة من وراء الجمهور الذي كان قد انسحب، باتجاه بوابات حلبات الكوريدا التي كانت قد فتحت بكل اتساعها.

مشى ناحية البوابات الخاصة التي لا يمر عبرها إلا الضيوف، أو الشخصيات التي لها علاقة برياضة مصارعة الثيران.

عندما التفت خوسي أورانو وراءه، في حركة عفوية، رأى مجموعة الغجر وهم يتجهون نحو بوابات المدرجات الرخيصة، لكنه لم ير أنجلينا وكأنها أدت دورها، وانسحبت.

رفع رأسه وهو ينتظر دور دخوله. رأى الصورة العملاقة لأنطونيو دي غاليسيا، هذه المرة وهو يغرس شفرة السيف الحادة في مقدمة ظهر الثور، بينما في بقية الصورة، بعيدا قليلا، كان يقف المساعدون على أحصنتهم وكل واحد في يده موليتا بنفسجية باردة، ورمح برأس حاد، ينتظر الأوامر للتدخل السريع، في حالة الخطر على المتادور.

عندما تخطى عتبة البوابة باتجاه الداخل، عاودته عيناها القويتان الساحرتان المائلتان بشكل غريب، وجملتها الأخيرة التي لا يعرف إن كانت جادة، أم إنها كانت تمزح، أو بكل بساطة تمثل:

" - ماذا تنتظر يا خوسي؟ ألا تدخل شفرتك في رقبتي كما تعودت أن تفعل ببرودة مع الثيران؟ أدخلها، لن يحاسبك أحد، مجرد حيوان قتيل أو ضائع. افعل، لا تتردد، أنا الثور وأنت المتادور، والجمهور ينتظر الإستوكادا."

- لن أفعل.

" - هل تتذكر أسم آخر ثور قتلته ثم مضيت كأن شيئا لم يكن، أيها المتادور الرشيق؟ اغرس شفرتك فيّ، ماذا تنتظر؟ أنا بين يديك. هي أول مرة أستسلم فيها لرجل بهذه السرعة، وهذه السهولة."

أغمض عينيه فقط لينسى لحظتها كل شيء، ولا يسمع إلا لداخله. غبي من يظن أن الإستوكادا هي متعة المتادور.

3

يكاد خوسي أورانو لا يصدق ما حدث أمام عينيه المتعبتين.

ركض في البهو الطويل حتى جف حلقه.

لا يدري لماذا كان يحس بأنه مسؤول كليا عن أستاذه أنطونيو دي غاليسيا، مع أن العكس هو الصحيح. فقد كان أستاذه الأساسي في إشبيليا. وعلى يده خاض أولى المباريات الاحترافية. منه تعلم كل الأشياء الصغيرة الضامنة للحياة في الحالات الأكثر خطرا. الثور في النهاية حيوان هائج مقبل على الموت، وهو مهيأ لذلك، ليس لديه ما يخسره.

عندما دخل قاعة التحضيرات الأخيرة. وجد أنطونيو قد ارتدى لباس المتادور الأزرق والمزركش بأسلاك ذهبية لماعة، ناعمة، وفضية، تشبه موجات هاربة على سطح بحر متحرك. وكان مساعدوه، امرأة ورجلان، يضعون اللمسات الأخيرة على هندامه، ويضغطون على خصره حتى لا يبقى أي شيء زائد يستطيع الثور أن ينفذ منه بقرنيه. رياضة لا تقبل لا لعبة القدر ولا الصدف، وإلا فالكارثة حاصلة.

تقدم منه. صافحه.

كان أنطونيو في حالة استقامة كلية، واستسلام لمحضريه.

- مايسترو أنطونيو. أنت الآن جاهز للمعركة الكبيرة التي ستبعث حبا جديدا لهذه الرياضة، بين عشاقها، وتحفظ للإسبان، حقهم في هذه الأرض التي سبقوهم إليها منذ القرن الخامس عشر.

قالت الفتاة التي مسحت على لباسه للمرة الأخيرة، وهي تتحسس النتوءات على لباسه وجسده.

- شكرا سانتا ماريا. كله بفضل ملمسك الساحر.

- تشرفت بتلبيسك سيد أنطونيو. حظ نادر مع سيد حلبات إسبانيا وإشبيليا. أحب هذه الرياضة على الرغم من كل ما يقال عنها. البراعة والقوة ومواجهة الموت بشجاعة. حرب مصغرة. وثقافة ممتدة في القدم.

قبّل أنطونيو ظاهر يدها اليمنى. ثم وقف باستقامة.

- مايسترو. قال أورانو. حظ الجمهور الوهراني بك اليوم، استثنائي. أتمنى لك مقابلة كبيرة ومتعة جميلة. المدرجات امتلأت عن آخرها. العد التنازلي بدأ يا مايسترو.

- الجمهور في حاجة لمن يرفع الأدرينالين فيه. ونحن نوفر ذلك، أحيانا على حساب حياتنا. الثور من منطقة نفار العريقة في تربية الثيران، لهذا سمي نافارو. أحب هذه النوعية الضخمة، التي لا ترحم منازلها ولا ضحيتها. صعب المراس، لكن وهران تستحق ذلك.

- سيدي العظيم. أنت سيد الانتصارات، أدين لك بكل شيء.
- هل تاريخ منازلتك في ميكسيكو ما يزال مثبتا؟
- مثبت. ولا يمكن أن أغيره.
- أحاول أن أحضرها. منازلة كبيرة.

ضم خوسي أورانو كفيه وأشبكهما بكفي أنطونيو.

- حظا سعيدا يا عزيزي.

وقبل أن يغادر باتجاه المدرجات، تمتم بصوت خافت في أذن أنطونيو.

- ستنتصر ونحملك على الأكتاف. سأكون في المكان الذي حددناه معا. حظا سعيدا مايسترو.

- أراك بعد انتهاء المنازلة طبعا. في الحلبة، لا أرى شيئا إلا أنا والثور والساحة، وخيالة الحراسة.

- أكيد.

خرج خوسي أورانو، وتوجه بسرعة إلى مكانه الأثير، في المنصة الشرفية القريبة جدا من الحلبة.

كانت المدرجات في حالة غليان بالمتفرجين. من زمان لم تشهد حلبات وهران الجديدة هذا العدد الكبير من المتفرجين.

الساحة نقية، بلونها الأجوري الجميل. كانت فارغة من كل شيء. لا حركة فيها. مساحتها بكر، لا خطوة على رمالها.

فجأة علت موسيقى باسو دوبلي pasodoble المرتبطة بمصارعة الثيران. تصاعدت عاليا وكأنها تعلن عن الحرب بموسيقاها الحادة. كانت تصل أقاصي مدرجات الكوريدا وتتخطاها، نحو الشوارع المحيطة. منها يعرف المارة أن المنازلة قد بدأت.

هي موسيقى الانتصار للحياة، والموت، والنهايات التي لا أحد يعرفها كيف ستكون، كما في الحروب التراجيدية الكبرى التي تصنع الأبطال واليتامى كما تصنع الخونة وتجار الحروب.

كانت ساحة الكوريدا مثل مرآة دائرية ساحرة، في حالة صمت كلي. كل الأبصار شاخصة فيها.

فجأة فتحت البوابات الخشبية الجانبية على مصراعيها. خرج الثور نافارو في حالة هياج كلي. كان ينطح كل شيء يصادفه في طريقه. البوابات الخشبية، بعض ناس الكوريدا الذين يحاولون الخروج، ثم يعاودون الدخول من وراء الواقيات الخشبية. خرج أحد المروضين للثور بموليتا لونها بنفسجي وحاول أن يزيد من هياجه، بينما الموسيقى لم تتوقف، بل زادت حدة. التصقت الموليتا بقرني الثور نافارو الهائج،

تركها المروّض وركض باتجاه أقرب مدخل لتفادي قرني الثور الذي ركض وراءه وكاد يلمس مؤخرته.

يبدو أن الترويض الأولي لم ينفع أمام نافارو. لقد كان صعب المراس ودخل مباشرة في عنف المنازلة. لم تكن المناورة الأولى موفقة. ثم دخلت مجموعة ثانية، زادت في انفعاله وإتعابه. عوضهم بعدها البيكادور، فوق حصان مغطى من كل الجهات، في يده رمح طويل، حاد في الرأس. يركض نافارو نحو الحصان المثقل بالحاميات. يحاول أن يخترق الواقيات بقرنه الحاد. أن يهزه بإدخال قرنيه في بطنه وصدره. يحاول عبثا مرة ثانية وثالثة ورابعة وخامسة. الواقيات قوية. يرفع البيكادور الحربة، ويخرز رأسها في ظهر الثور، فيسيل الدم غزيرا. يكاد يرفع الثور الحصان عاليا، يميل ولكنه سرعان ما يتوازن، ويعود إلى وضعه تحت التصفيقات الكبيرة لجمهور مستمتع بالمشهد.

تعب البيكادور، بينما ظل الثور في كامل قواه.

غادر البيكادور ساحة الكوريدا تحت موسيقى باسو دوبلي كلاسيكو تورينو، شبه العسكرية.

فجأة وجد نافارو نفسه وحيدا في الساحة. بدأ يركض في كل الاتجاهات عبثا، قبل أن يتوقف قليلا ويتأمل الأرضية والجمهور وغياب الخصم.

دخل شاب أنيق ووسيم الحلبة. بلا مولاتو ولا أية واقيات. في يديه سهمان صغيران ملونان كأنهما لعبتان ناريتان. تأمل الثور للحظات. ثم ناور، كأنه يهرب منه. تبعه نافارو بسرعة فائقة. تفادى الشاب برشاقة وسرعة، ضربة قرنيه، لكنه عندما أصبح ظهر نافارو قريبا منه، غرس فيه السهمين الملونين الصغيرين.

مرة أخرى اهتز الجمهور لرشاقة الرجل وصفق بقوة.

عاود الشاب الحركة نفسها، وبطريقة مماثلة، غرس سهمين صغيرين ملونين في جانبيه. تأوه الثور، لكنه واصل الركض وراءه بلا توقف، وبدت خيوط الدم واضحة على ظهر نافارو.

ثم غادر الشاب الحلبة بدوره. وانتهى بطل الفصل الأول من طوروماشي.

مرة أخرى يجد نافارو نفسه وحده سيد الميدان. دار قليلا، باحثا عن أية حركة، بلا جدوى. حفر الأرضية بقوائمه الأولى بعنف شديد. كانت أنفاسه تضيق، ويتنفس بسرعة، بسبب ما بذله من جهود.

لقد أصبح الآن مستعدا لخوض منازلة الموت. هو يعرف أنه لن يخرج حيا مهما كانت نتائج المعركة، على عكس المتادور الذي يدرك جيدا أن حياته بين يديه، ورشاقته، وحذره أيضا. كل منازلة يصحبها مبهم لا أحد يعرف سره حتى النهاية. ضياع الاستوكادا هو جزء من الخسارة الكبيرة.

عندما دخل أنطونيو دي غاليسيا، اهتزت مدرجات الحلبة كلها.

وقف الجمهور وصفق طويلا قبل أن يجلس ويصمت كليا، يتابع بعينيه وقلبه المنازلة التي انتظرها طويلا.

حتى نافارو كأنه كان معنيا بالتصفيق. رفع رأسه عاليا، ووقف يتأمل استقامة أنطونيو الذي لمع لباسه المذهب تحت أشعة الشمس المسائية الحادة. في لحظة من اللحظات انعكست أشعتها بقوة على عينيه، فبدا كأن النار تشتعل فيهما.

تدرجت موسيقى باسو دوبلي، ثم خفتت قبل أن تعقبها الهولّي[1] التي كانت تأتي من أعالي مدرجات حلبة المصارعة.

تحرك أنطونيو بحركات مقاسة بالمليمتر. مزحلقا باطن حذائه الخفيف كراقص بالي، على أرضية ساحة الكوريدا، خطوة وراء خطوة.

1. Olé صرخة إعجاب جمهور طوروماشي، المتابع لمقابلات مصارعة الثيران.

ثم فرد خرقة المولاتو بكل اتساعها وحركها بخفة وسرعه. وجه نافارو بصره نحوها، ثم اندفع بكل قواه نحوها.

ثم عاودها العديد من المرات حتى بدا التعب على الثور. فوقف أنطونيو في مواجهة الجمهور. والتصفيق يزداد حدة. وقف الثور وراءها كأنه لم يكن معنيا بما كان يحدث أمامه من شدة التعب والنزف. أصبح أنطونيو براحة أكثر دون أن يعطي قيمة كبيرة لخصمه. في أحيان كثيرة كان يصارعه وهو مرتكز على ركبتيه، ويدور المولیتا ومعها يدور نافارو متثاقلا.

على الرغم من ذلك كله، بدت حركات أنطونيو ثقيلة بعض الشيء. ربما كان يحتاج هو أيضا إلى بعض التسخين، لدرجة أن خوسي أورانو كاد يصرخ بكل قواه، من المدرجات الأمامية: احذر أكثر يا أنطوني. أوقف المصارعة واخل سبيل الثور إذا كنت تشعر بأي تعب. أليست تلك نصيحتك لنا دوما أثناء التدريبات؟ الحياة أثمن هدية، يجب ألا نعرضها للتلف مهما كانت المغريات؟ ألم تقل هذا؟ لكن ذلك بدا كله له مستحيلا، وكانت الصرخات كلها حالات داخلية لم تخرج أبدا. فاكتفى بمواصلة المشاهدة كغيره من الآلاف التي حضرت المنازلة.

خوسي يعرف جيدا في أعماقه، أن المصارع عندما يدخل إلى الحلبة لا يمكنه أن يتقهقر إلى الوراء[1]. صعب جدا. فقد كان أنطونيو في عمق معركته الكبيرة والشاقة، مع كتلة من العضلات تتجاوز ال 500 كيلو. يمكن للرئيس أن يوقف المنازلة إذا رأى خللا في صحة المتادور يمنعه من المواصلة، أو عدم رغبة الثور في الدخول في عمق المعركة.

«على الرغم من أن المتفرج يتمنى أن ينسحب المتادور في الحالات الخطيرة، من الميدان، لكن المؤكد هو أنه في مثل تلك الحالات، لا يستمع المصارع إلا لقلبه. قلبه وحده دليله. لكن الأكيد أن أنطونيو ليس بكامل لياقته، يظهر ذلك بوضوح كلما حاول تفادي ضربة نافارو»

تمتم أورانو ذلك في أعماقه.

يبدو كل شيء صافيا في الكوريدا. ساحة رائعة، برمل آجوري شديد النظافة. ترتيبات شديدة التنظيم. جمهور كبير، متعاطف كليا مع أنطونيو، جاء من وهران ولكن أيضا من محيطها القريب والبعيد قليلا، مسرغين، ريو دو صلادو، حتى من باريغو حيث تربى خوسي أورانو يقارع الأكباش والثيران الصغيرة التي كان جده يحضرها للكوريدا، وأحيانا حتى للحفلات التي كانت تنظمها الجهة، في البلدية أو في غيرها. الكثير من القطارات جاءت من مدن بعيدة كالعاصمة وقسنطينة وعنابة وتلمسان وسيدي بلعباس. زيارة أنطونيو قد لا تتكرر أبدا.

4

شيء ما في وهران، يكبر في صمت مثل السرّ المخيف.

لم يستطع خوسي أورانو أن يخفي حيرته. شعر بخيط من الألم يصعد من ظهره، من الأسفل إلى فوق، في خط مستقيم.

تراجع قليلا إلى الوراء، واستند على الكرسي الخشبي قليلا، محاولا أن يخفف من خوفه وغليانه الداخلي. ثم أغمض عينيه مبتعدا عن كل ما يمكن أن يرهقه، أو يغرقه في دوامة أفكار لا يريدها.

فجأة شم عطرا قويا يعرفه جيدا. ثم سمع دندنة.

نحن الغجر أبناء كلب

نحب دوما من يؤذينا، ولا نتعلم.

يسرق منا الربيع والشمس، ولا نتعلم.

يحول قلوبنا إلى رماد، ولا نتعلم؟

أليس من الأفضل الانسحاب من حلبة الموت،

أو الاكتفاء بشفرة استوكادا، لا ترحم؟

لم يغب عنه صوتها. التفت نحوها. أنجلينا أموندين. كانت ترتدي لباسا أحمر مطرزا عند الصدر، ومورّدا في الجانب الأيسر.

- واووو. هذه أنت؟ أنجلينا؟ كيف دخلت إلى هذا المكان؟ مخصص للمتادورات وأهاليهم، أو الرسميين؟ وأنت لا تحبين أصلا هذه الرياضة؟

– أنت تعرف يا متادوري الحبيب، أنه بهذه الأناقة، لن يوقفني أحد. قلت لهم إني أخت المتادور خوسي أورانو، فابتسموا في وجهي. جئت من العاصمة وأريد أن أفاجئه. بعضهم ثبت عينيه في نهدي النافرين كقرني ثور، ويمكنني أن أتخيل بسهولة ماذا كان يدور في رؤوسهم. الغجرية ليست قحبة يا أبناء الكلب. كدت أصرخ لكني لم أفعل. مجنونة نعم، لكنها لا تسلم نفسها لأي كان. ابتسمت وفق ما يشتهي غباؤهم، ففتحوا لي الطريق بلا أسئلة، وها أنا ذي بالقرب من حبيبي خوسي أورانو.

– هكذا بسهولة؟

– أنت تعرف أحسن مني أن أغلب الرجال دواب. لا يسيرون إلا بهذه الطريقة. لو قلت لهم إني أريد أن أكون بجانب الرجل الذي راقصني، وجعلني أسحر به في ساحة الكوريدا الخارجية، كانوا ضحكوا مني، وما سمحوا لي بالجلوس قريبة منك. الشاب المضيف، كامليو، الذي يقف خلفك هو من سهل مهمتي لأنه يحبك كثيرا، ويريد منك توقيعا. وعدته بذلك. من الأول حطّيت عيني عليه، وعرفت أنه الأقرب إلى الإقناع من بعض المغلقين الذين يظلون مثبتين عيونهم كالثيران في نهدي ومؤخرتي.

التفت خوسي أورانو. انحنى الشاب حتى كاد رأسه يلمس الأرض، احتراما. كانت علامات السعادة مرتسمة على وجهه.

– سيدي هل كل شيء على ما يرام؟

قال كامليو.

هز أورانو رأسه بالإيجاب وهو يحاول أن يفهم ما يتخفى وراء ما قامت به أنجلينا.

– كله شيء جميل، شكرا أنك اهتممت بها.

– عذرا. هي أختك ولم أستطع تركها تنتظر حتى نتأكد منك؟

هي أختي، نعم. من أبي. كبرنا مع بعض ثم رمتنا حياة وهران كل واحد في مكان. هي قادمة من بعيد فقط لتحضر هذه المنازلة. الأخوة شيء مهم.

شكرا سيدي. تمنينا أن نحضر لك منازلة مكسيكو القادمة. لكن ظروفنا المالية لا تسمح. المسافة بعيدة لكن منازلة وهران سنحضرها مهما كلفنا الأمر.

أنت تعرف كل البرنامج. سأكون في كوريدا وهران في نهاية السنة القادمة، تعال. بعد مقابلة أنطونيو، سيقومون بترميم حلبة المصارعة الكوريدا وتأهيلها بشكل أفضل. كان فتحها السريع والانتهاء من تحويلها إلى مكان لتخزين الحلفاء، مطلبا في المدينة. الجهلة فعلوا بها ما لم يفعله بها حتى أعداء هذه الرياضة. ستعود الأمور إلى طبيعتها.

- سأحضر يا سيدي. أنا فخور بهذه اللحظة.
- شكرا أنك أتيتني بأختي ولم تتركها تنتظر.
- أخت المتادور الوهراني العظيم، تنتظر؟ أبدا يا سيدي.

أخذت أنجلينا الورقة من يده. لم يتشجع كامليو على تقديمها لخوسي مخافة أن يحرجه وهو يتابع المنازلة. ثم سلمتها له.

- وقعها، هو ينتظر.
- طبعا. شكرا عزيزي كامليو سيرينا.

وقّعها.

ثم انسحب كامليو، وعلى محياه ابتسامة رائقة. بينما انفجرت أنجلينا بضحكة مجنونة لم تستطع مقاومتها.

نظر أورانو إلى وجه أنجلينا طويلا. نظرت إلى وجهه بكل صفاء عينيها اللتين زالت عنهما كل ملامح التوحش والغشاوة. صمتا لثانية ثم انفجرا ضحكا حتى أثارا انتباه من كان قريبا منهما.

أخذت ذراعه وأحاطت بها خصرها. ثم أشبكت أصابعها بأصابعه.

- أريدك هكذا. أحس بك بقوة. تعرف أنه يمكنني أن أحس بأقاصي اللذة حتى وأنا في هذه الوضعية.

- مجنونة. لم نتعارف إلا قبل ساعات.

- لا تكن غبيا يا خوسي. يبدو أن مصارعة الثيران أخذت كل أناقتك الداخلية ولطفك مع النساء. أيها المجنون، الحب الكبير لا يقاس بالزمن، ولا بالدقائق أو الثواني، والساعات، ولا حتى بالأيام والسنوات والشهور، ولكن بالكثافة. ثانية واحدة يمكنها أن تتحول إلى لحظة العمر الأبدية، وسنوات متراكمة تستحق أن توضع في المزابل العاطفية بلا تردد. أنا هنا من أجلك. أنت من خرب عقلي. سؤالي الذي أحمله لك، أين تعلمت الرقص بذلك الشكل الأنيق؟ لولا غارسيا ما كنت تنجو مني.

- تعلمته في وهران طبعا، في سهرات العائلة، في الحي الإسباني لاكاليرا. وفي إشبيليا، ناس هذه المدينة مجانين على الرقص. لكنك أنت أيضا كنت مذهلة.

فجأة أثارت انتباهه صرخة خوف جماعية، هي اللحظة نفسها التي تفادى فيها أنطونيو قرني نافارو الهائج، بأعجوبة.

- واااااووو كاد يخترق جانبه.

- الجنب هو أكثر الأماكن هشاشة عند المتادور. أنطونيو مدرب على هذا. لا يُخاف عليه. يريد فقط أن يرفع الأدرينالين في الحاضرين.

شعر في أعماقه أنه كان يكذب. ليس بالضبط هذا ما أحس به. قرأ في عيني أنجلينا ما يدور في مخه، بالضبط. حركات أنطونيو ليست بالرشاقة المعهودة. نافارو ليس من الثيران العادية، حركاته الجانبية شديدة الخطورة.

عاود أنطونيو نفس الحركة، لكنه كان في هذه المرة أكثر تحكما. مر القرنان بعيدا عن خضره. اهتز الجمهور مرة أخرى بفرح كبير هووووووولي.

الذي يرى الصورة بشكل جانبي يشعر بأن قرن نافارو الأيسر، قد مس خصر أنطونيو دي غاليسيا. لكن المشهد حيث كان يجلس خوسي أورانو، كان غير ذلك. واضحة كانت حركة أنطونيو التي جعلت الثور يفقد توازنه لثانية. فقد تفادى بكل خفة، الضربة القوية التي صوبها له نافارو، وعلا فيها قرناه بقوة دون أن يمسا خصره، وغابا في الفراغ والجانب الأيسر للموليتا.

كان الثور في قمة هياجه. الدم على كل جنبات ظهره.

ارتفعت حدة المنازلة عاليا. كان نافارو قويا وسريع الدوران. على الرغم من الإنهاك، لم يسقط. دار العديد من المرات متتبعا الخرقة الحمراء، حتى كادت رقبته أن تكسر في دورة فجائية، وحده أنطونيو من يتقنها، بحيث تكسر رقبة الثور. لكن هذا صعب حدوثه مع نافارو الذي كانت رقبته خشنة، لا يمكنها أن تنكسر بسبب لفتة سريعة، وبسبب كتلة العضلات المحيطة بها.

وكأن نافارو يئس من كسر صدر أنطونيو أو تمزيق خاصرته، فتوقف قليلا حتى استعاد قوته وأنفاسه.

كان شخيره قويا، وأنفاسه التي كانت تضيق تظهر جليا من سرعة تنفسه. تدلى لسانه وسال لعابه كثيفا.

حاول أنطونيو دفعه إلى الركض، بتحريك الموليتا، لكنه في البداية رفض، وبدأ يحفر في الأرض بقوة حافرية الأماميين، وعندما افتعل المتادور هروبا سريعا باتجاه المخابئ الخشبية، ركض نافارو وراءه بكل ما تبقى له من قوة، ليجهز عليه، قبل أن يلتفت أنطونيو دي غاليسيا نحوه، في حركة جعلت الثور يتزحلق بعيدا نحو الخرقة الحمراء. صرخ الناس ظنا منهم أن المتادور كسر رقبة نافارو.

ابتعد أنطونيو قليلا استعدادا للضربة القاتلة. إستوكادا.

- لا. هذه إستوكادا سريعة يا أنطونيو، الوقت ما يزال بين يديك، حتى جرس التنبيه لم يدق؟

قال خوسي وهو يعض على أظافره.

- إنه لا يسمعك حبيبي. قالت أنجلينا، وهي في نفس وضعها

الأول، ملتصقة بخوسي أورانو. إنه لا يسمعك. ثم إنه يعرف ماذا يفعل. محترف في صنعته. خوفك غير مبرر

- انظري يا أنجلينا، انظري جيدا. هناك تسرع غير مبرر. ما

يزال نافارو في كامل قواه. يجب إضعافه أولا. إنهاكه حتى النهاية.

بدا لخوسي أورانو أن الثور ما يزال في كامل قواه الجسدية، على الرغم من أنه خسر دما كثيرا. صرخ خوسي أورانو في مكانه، رافعا يديه، ألا يستمع إلى الجمهور الذي يريد إستوكادا سريعة، وأن يواصل استعراضه بإتعاب الثور أكثر، فأكثر كما تعود أن يفعل. وقت الضربة القاتلة لم يحن بعد.

حاول إقناع نفسه بصمت. لم يسمع أنطونيو شيئا. ظل مركزا على الضربة القاتلة، وسط صرخات الجمهور الذي ظل يدفع به نحو اللحظة الحاسمة.

« - أنطونيو مايسترو، تمتم أورانو، أنت تعرف جيدا متى تستدرج النهاية. أنت معلم كبير. الضربة القاتلة لا تأتي إلا في وقتها وإلا لا جدوى منها، بل ستصبح خطرا على المصارع، لأنها تذهب في الهواء أو تصطدم بعظام الرقبة فتلتوي الشفرة مما يجعل عملية الهروب من قرني الثور شبه مستحيلة. لكن؟ ماذا تساوي الملاحظة أمام خبير قضى حياته كلها في حلبات مصارعة الثيران؟»

حاول أن يقنع نفسه بأنه أمام أستاذه الذي علمه كل شيء. وإذا رأى أن يقدم الإستوكادا، قبل إنهاك الثور، هو يعرف حتما ما لا يعرفه الآخرون. فهو في الميدان ويقدر الأشياء حق قدرها.

عندما وجه أنطونيو شفرة السيف باتجاه نافارو، ووقف في نفس خطه، صرخت أنجلينا بمنتهى صوتها وكأنها في حالة هيستيريا.

- أقتله. اقتله بسرعة. لا ترحمه. إذا لم تقتله سيقتلك.

ضحك خوسي أورانو وهو يشد على كفها ليهدئ من انفعالها الحاد. كانت خائفة، وترتعش في مكانها!

- هههه أنت مع من يا أنجلينا؟ مع نافارو أم مع أنطونيو؟

- ... ...

- أنجلينا؟ الثور هائج. كل الناس صامتين، خائفين، إلا أنت؟

- أنا مع نافارو طبعا، لأنه المظلوم في هذه الوضعية غير العادلة. لماذا تأتون بثور، تقتلونه سرا، قبل قتله المعلن، ثم تثقبون ظهره طويلا قبل تقديمه لقمة سائغة للمتادور؟ ماذا كنتَ ستفعل لو كنتَ في مكان نافارو؟

- سأقاتل حتى النهاية. للمتادور أصلا مخ ثور، وإلا لن يستطيع استباق حركاته في كل ثانية.

- أي ثور مسكين، في اللحظة التي يدخل فيها إلى الحلبة، يعرف أنه سيموت، ولا يملك حلا آخر إلا المقاومة بشجاعة اليائس.

- أكتشفك يا أنجلينا. أعرف الكثيرين ممن يفكرون بهذه الطريقة. من حقك، لكنه منطق الحياة والموت في هذه المساحة التي اسمها الكوريدا.

- أنا من بيت يرفض الظلم. من أم غرناطية وأب من أهالي وهران. عائلتي تعرضت لكل الويلات، كغيرنا من غجر هذه البلاد، من

محتشدات النازية، وتجريب غاز زيكلون ب[1]، في جهنم بوزنفال[2]، إلى التعقيم حتى لا تلد نساؤنا. والدي يتساءل كثيرا كيف نفذت عائلتنا الصغيرة من هذا الخراب القاسي. ربما لأنه لم يكن يحمل وثيقة المرتحل الأنتروبوميتيريك[3] التي تثبت أنه متحرك، غير مستقر في مكان معين، وكانت تمنح للغجر لتبرير هوياتهم، ولم نخضع لقانون 16 جويلييه 1902.

– وهل هذا وقت الآلام يا أنجيلا؟

– فقط لتعرف أن انتفاضي ضد الظلم ليس مزاجا، لكنه في الدم. كان والدي يحكي فظاعات عما يمارسونه ضد الثيران، قبل المنازلة، يميتونهم عذابا، قبل موتهم. حتى تكون الحرب عادلة، أطلقوا الثور كما هو أمام المتادور، بكل طاقته الطبيعية. انزعوا البيكادور من الحلبة لأنه رمز للظلم المسبق ضد الثور. واتركوهما، المتادور والثور، يواجهان قدريهما بامتلاء، ولنر من ينتصر؟ وسنصفق له بصدق.

– نعم. والدك ليس مخطئا في حكمه. لكن القضية أكثر تعقيدا من مجرد تعذيب. هل نملك الجرأة الكافية لوضع ثقافة بكاملها، وتاريخ حي في مطمورة ونغلق عليهما بإحكام؟

قالها خوسي أورانو، ثم التفت نحو بقية المنازلة.

كان كلام أنجلينا جارحا، لكنه حقيقي.

---

1. Zyklon B.
2. Buchenwald.
3. Antropométrique.

5

«لم تحن بعد ضربة الإستوكادا؟»

تساءل خوسي أورانو وهو يعض على أصابعه التي تآكلت أظافرها. العادة التي نهته عنها أمه العديد من المرات، وجدته التي وضعت يده اليمنى في ماء الحنظل الذي كانت تقطره من نبتة الحنظل التي كانت تأتي بها من جبل سانتا كروث، في الجهة المطلة على البحر، من أجل علاج مرضى السكري أو الدود الذي يؤذي الصغار. كان الوحيد الذي كانت تقبل به مرافقا لها، حتى القمة، ومن هناك يواصل الدوران نحو الجبل حيث حقل واسع من الحنظل كانت وحدها تعرفه. وكانت كلما رأت شخصا قادما نحوها، ابتعدت قليلا عن حقلها، وتظاهرت بأنها تنزع الحشائش. عندما تسأل وهي تراكم الحشيش على حافة الطريق، تقول إنه لمعزتها الوحيدة لأن ذلك يجعلها تدر حليبا أكثر. يبتسمون، ثم يواصلون حجهم نحو مرتفعات سانتا كروث، وبمجرد ما يبتعدون قليلا، تعود إلى حقلها السري. وكان خوسي يجد متعة كبيرة في تنفس البحر وتأمل مداه الذي لا نهاية له. وكم حلم لو كان هناك طريق بحري سري يقود نحو أليكانت للركض فيه ولا يخبر به أحدا. كان يجد متعة كبيرة والجدة غارقة في حقلها، تأمل البحر بكل عمق، بتدرجاته الساحرة التي لا يعرف كيف يسمي ألوانها. سأل أمه التي كانت تشتهي الرسم، علمته الأسماء كلها، وعرف منها أنها تدرجات ضوئية في النهاية، من الأزرق الليلي، الأزرق الغامق، الأزرق السماوي، الأزرق الفاتح، الأزق الهادئ، الأزرق العاصف...

بدا خوفه على أنطونيو يتأكد. أنطونيو تتسرع يا صديقي. أنت صاحب خبرة ولستَ مبتدئا؟ ما كان يجب فعل ذلك؟ أكاد لا أعرفك يا أنطونيو؟

صرخة الجمهور الأخيرة أخرجته من غفوته. فتح عينيه عن آخرهما. شعر بقلبه يدق بقوة. كمية الأدرينالين تتصاعد بشكل مستقيم إلى مخه، فتربكه وتعميه عن التفكير.

يعرف جيدا علامات هذه اللحظة.

التفت نافارو يمينا وشمالا، ضرب على الأرضية بحوافره حتى تصاعدت بعض الأتربة. رفع ذيله عاليا. لسانه تدلى، وأصبحت أنفاسه متقطعة ومتسارعة، مصحوبة بصوت مخنوق يشبه الشخير وكأن الهواء لا يمرّ إلى الرئتين.

وقف أنطونيو باستقامة بثقة كبيرة، وجها لوجه مع نافارو. ربما كانت اللحظة الأخيرة التي تسحب وراءها عاصفة من الاحتمالات. فتح الثور عينيه عن آخرهما. هز رأسه جيدا. نظر إلى شفرة السيف في يد المتادور التي ستخترق، بعد قليل، الأغشية والقفص الصدري، قبل أن تتوغل في الرئتين اللتين تمتلئان دما، ويموت الثور اختناقا. ثم التفت نحو الخرقة الحمراء موليتا، التي بدأ المتادور أنطونيو في تحريكها في شكل اهتزازات متسارعة لدفع الثور إلى التحرك والهجوم واستنزاف أنفاسه الأخيرة.

هز نافارو رأسه في الاتجاهين. ثم اندفع نحو أنطونيو بسرعة مجنونة. زاد صراخ الجمهور من هياجه الكبير. قام الكثيرون من أماكنهم في المدرجات. يركض نافارو أكثر، وهو في حالة هياج قصوى، بلا خوف.

مرة أخرى شعر خوسي أورانو بأن نافارو ما يزال بكل قواه، لم يستسلم بعد. صرخ بصوت مكتوم.

«- لا تذهب نحوه يا أنطونيو».

لكن أنطونيو كان يركض في سرعة معاكسة جنونية. باستقامة كما لو أنه سيرتشق بقرني نافارو. عندما وصل على بُعد أقل من متر انحرف نحو اليمين بسرعة، وفتح المولیتا الحمراء على يساره عن آخرها، فأصبحت دجناح أحمر كبير. لم يتوقف الثور الذي أحنى رأسه، فطارت الخرقة الحمراء عاليا. بينما كانت شفرة السيف الذي اعوج في وسطه، قد انغرست جزئيا بعدما اصطدمت بشيء صلب، في عظمة رقبة نافارو، الذي رفع قرنيه عاليا في شكل نصف دائري غير مرتقب، مسّ خصره. مزق جزءا من لباس أنطونيو المطرز بالأسلاك الذهبية، على مستوى الكلية اليسرى، ليرتسم خيط رقيق من الدم خلف لباسه، في الخاصرة بالضبط.

لم تكن الضربة القاتلة، الإستوكادا، ناجحة كليا.

لم يتوقف أنطونيو عن محاولاته إنهاك وإسقاط نافارو من تلقاء نفسه. صعب؟ تمتم خوسي، ما دامت الشفرة لم تدخل حتى المقبض سيظل الثور يتعذب. أتكرهم يحسمون الأمر بضربة السكين.

بقي يدور في مكانه بعد أن أخذ خرقة المولاتو من جديد، والثور يتابع دورانه ويهز رأسه في كل الاتجاهات، بتعب شديد. انحنى نافارو بهدوء على ركبتيه، مستسلما للحظاته الأخيرة. لكنه ظل حيا، وظلت عيناه مفتوحتين. رمى أنطونيو قبعته عاليا باتجاه الجمهور، فاختطفتها الأيادي الكثيرة في الصف الأول، قبل حتى أن تلمس المدرجات. انحنى بدوره على ركبتيه تحت التصفيق الحاد للجمهور العريض. كان متعبا. فتح عينيه بصعوبة باتجاه نافارو الذي نظر إليه بعينين حمراوين ثقيلتين. تفحص طويلا وجه أنطونيو. ثم حاول نافارو أن يرفع رأسه باتجاه الجمهور لكنه لم يستطع. لوى عنقه للمرة الأخيرة، ثم سقط كتلة بلا روح.

تأمل أنطونيو المشهد الأخير حينما كان المساعدون ينهون نافارو لتجنيبه العذاب. رأى السيف المرتشق في منتصفه، في مقدمة ظهر

نافارو، شعر بحزن عميق أنه لم يثبت بدقة الشفرة في مكانها المناسب. غامت صورة الجمهور فتحولت إلى مجرد نقاط صغيرة بعشرات الألوان، لا شيء يجمعها. اتسعت مساحة الدم على الخاصرة اليسرى لأنطونيو. شعر بدوار في رأسه. ارتعشت كل فرائصه كما حالة الثور قبل قليل. تمدد في مكانه على رمل الكوريدا كما يفعل لاعبو كرة القدم في تعبهم، انتشاء بالانتصار، بينما كانت التصفيقات الحادة تسمع في المارشي[1] وشارع لياج والأماكن المحيطة بحلبة مصارعة الثيران.

قبل أن يغمض عينيه، تأمل أنطونيو محيطه لآخر مرة. رأى بالكاد عربة يجرها حصانان واحد أبيض والآخر أسود، تسحب وراءها نافارو جثة هامدة.

المدرجات في حالات هيستيريا وهي تصفق بكل قواها.

- خسارة.

قالت أنجلينا وهي تنظر نحو سماء فارغة وقاحلة.

- ليس هذا الأداء الأمثل لأنطونيو.

- كان يفترض أن يموت.

- في مثل هذه الحالات لا يموت الثور بسهولة لأنه مقاوم. دخول الشفرة حتى المقبض ينهي الحياة لكنه ينهي العذاب أيضا. أنطونيو لم ينتصر. لكنه لم يفشل.

- أنا أتحدث عن أنطونيو. كان يفترض أن يموت.

- وهل تظنين بطلا عظيما مثل أنطونيو يترك نفسه عرضة للموت بهذه السهولة؟ المقابلة كانت قوية، ونافارو دافع ببطولة، حتى اللحظة الأخيرة. مثله مثل نافارو.

---

1. Le Marché (السوق الشعبية)

لا أظن. لكن أنطونيو في هذه الحرب هو المعتدي، والمعتدي يجب أن يلقى جزاءه. اخرج من دائرة المتادور وانظر من حولك، من أين جاء هذا الفقر وهذه التعاسات المستشرية، هذه الحرب العمياء التي تأكل محيطنا ونحن لا ندري. أنت تعرف ماذا حدث لسيرجيو راموس.

- ما العلاقة. سيرجيو راموس قتله إرهابيون. ذبحوه بلا رحمة. ماذا يفعل هنا؟ القتلة سينالون عقابهم اليوم، أو غدا، أو بعد دهر.

- من الظالم يا خوسي؟ سيرجيو راموس الذي وجد نفسه في هذا المكان يسنّ القوانين في أرض لم تكن له وحده، أم صاحب الأرض الذي طرد منها؟ من الثور هنا ومن المتادور؟

- أنت تخلطين كل شيء يا أنجلينا.

- ألم تفكر يوما في أن قرني الثور هما وسيلته الوحيدة للدفاع عن نفسه؟ هو يقتل لأنه وضع في دائرة مغلقة، وأمام جمهور من المتفرجين ضده كليا؟ ماذا يمكنه أن يفعل سوى الدفاع عن نفسه حتى النهاية. المهم. انتصر أنطونيو، لكن أمام من؟

- أمام نافارو. ثور هائج. ثور الكوريدا.

- أرأيت درجة الظلم يا عزيزي؟ لماذا لا يموت المتادور أيضا؟ كل البسطاء وكل المهمشين يشبهون ذلك الثور الذي تقرر موته مهما كانت جرأته الدفاعية وشجاعته.

- أنت لستِ من الغجر المعتادين يا أنجلينا. تحبين الحياة بقوة، وبصفاء عقلي تحسدين عليه.

- سنتحدث يا خوسي. سنتحدث طويلا. الحياة ليست دائما تلك التي نراها، أو تلك التي تصادفنا. كم أتمنى أن تتعرف على والدي. سيكون سعيدا بك. كم من نار على صدري أن يتحملها؟ نار تربة كلما لمستها أحرقتني؟ نار وطن نسي فجأة أننا معلقون في عنقه كالتميمة،

حتى لو نفرنا أو باعنا للقتلة الذين يتربصون به وبنا. باعونا يا عزيزي خوسي. أنت لا تشعر بهذا الظلم وهذه القسوة. تخيل نفسك للحظة، تأتي يد عسكرية وتشحنك في شاحنة ثقيلة، ثم ترمى في باخرة لنقل الحيوانات إلى فرنسا، وعندما تفتح عينيك تجد نفسك في محتشد داشو[1] ومن هناك، إلى محتشدات الموت والمخابر النازية التجريبية على أجسادنا؟ لم يكن مهما أن تكون فرنسيا، فأنت في النهاية محسوب على الغجر، ولهذا وجب أن تباد، لأنك تشوه الجنس الراقي. صحيح أني غجرية لا تعرف المخاطر أو لا تعيها، لكني امرأة جبانة، خلقت لأسعد الحياة، فقط وأفرح بجنونها. لم أولد في هذه الدنيا إلا لأحبك فقط، وأحب هذا النور الذي يشع كل صباح من هذا الخليج المنسي، من هذا الدم الذي تدفعه الثيران التي هيجوها حتى يسهل الإجهاز عليها، في كوريدا لم أر فيها يوما واحدا، المتادور يرمي سيفه، ثم يركض نحو الثور، ويقبل جبهته ويمسح عرقه بالموليتا الحمراء. لمَ يُطلب دائما من الثور أن يموت جريحا، ليُفرح المتفرجين؟ ولماذا لا يموت المتادور أيضا في نفس اللحظة إكراما لجمهور الثيران التي تنتظر دورها في ممرات الموت الباردة؟

ثم رمت بصرها بعيدا باتجاه جيل الأسود المحاذي للبحر. دندنت نشيدا باسكيا قديما بصوت غجري شجي:

حبيبي الذي لا يسمع دمي وبكائي،
ويكتفي بالتربيت على كتفي.
على هذه الأرض التي نبت النور فيها دون أن يُزرع،
واتسع الخير من صلب الشجر، والبحر والسماء.
على هذه الأرض تأتي الرياح والعواصف بلا انتظار،
وتتسع كما النار على بقعة زيت.

---

1. La camp de Dachau.

الشهداء والشهيدات في هذه المدينة يأتون،
يضعون أرواحهم في أكفنا،
ثم يمضون نحو الأبدية دون أن نعرف أسماءهم.
لا يطلبون شواهد ولا قبور من الرخام الغالي،
ولا مقابلا لأرواحهم ودمهم.
هكذا يأتون،
وهكذا ينسحبون بلا جنائز ولا موسيقى البطولات.

- صوتك مدهش ولذيذ يا أنجلينا.

- أكبر من الصوت، الألم الذي بداخلي. محظوظ أنطونيو، لو انحرف قرن الثور أكثر نحو اليسار، لاخترق كليته، وربما جزءا مهما من بطنه أو ظهره. والدي يقول إن لحظة الإستوكادا أو الضربة القاتلة، احتمالات موت المتادور فيها تتضاعف، إذ إن أي خلل في الحساب والخطوات والحركات، يدفع ثمنه المتادور غاليا.

قالت أنجلينا وهي تنظر إلى عيني خوسي أورانو كأنها تكتشفه لأول مرة.

- هو محق تماما. الكثيرون يسمونها لحظة الموت.

- خوسي حبيبي، هل ترى ما أراه؟ إن صديقك يتأوه. ينزف...

التفت حول أنطونيو مجموعة الإنقاذ. أخرجوه من الحلبة على متن حمالة كان يحملها ستة أشخاص.

- يبدو أن جرحه حقيقي. أتمنى ألا يكون الأمر خطيرا. قال أورانو وهو يقف في مكانه. لا يمكن لسيد حلبة لامايسترانثا في إشبيليا أن يستسلم هكذا.

سحب أنجلينا من يدها بسرعة، ثم ركضا في البهو الطويل قبل أن يدخلا إلى قاعة العلاج الاستعجالي السريع. وجد الأطباء والممرضين،

يحيطون به، ويمزقون الألبسة الواقية من حول ظهره وخصره، ويحاولون تحديد ضربة القرن السريعة.

أخذ خوسي أورانو يد أنطونيو دي غاليسيا.

- معلمي وحبيبي. كيفك مايسترو أنطونيو؟

- أشعر بتمزق عضلي في ظهري. تفاديت الضربة القاتلة، لكن حركة نافارو السريعة مست ظهري وخصري. السبب إخفاقي في الإستوكادا. لو نجحت ما التف حولي. عرفت أن الضربة القاتلة لم تكن موفقة. النجاح النصفي، هزيمة. لكن المهم أن الجمهور الوهراني استمتع بالمنازلة.

- سعادته لا توصف، ولو تركناه لهجم عليك وحملك على الأكتاف. أعرف يا أستاذي أنك علمتنا تفادي هذا الخطر بإتعاب الثور. لكن نافارو كان كتلة ثقيلة من العضلات لم يتأثر بأي شيء. ظل مقاوما كأنه كان يرفض الموت.

- ترددي هو السبب. نافارو كان يستحق الحياة. كان يجب تركه وعلاجه. هذا إحساسي العميق. في لحظة الإستوكادا القصوى، شعرت كأني كنت بصدد ارتكاب جريمة. إصراره على الحياة كان قويا، بل أقوى من أي شيء آخر. فكرت في لحظة من اللحظات أن أعتذر من الجمهور، وأترك الثور يعيش. النتيجة كادت تكون وخيمة. أتمنى ألاّ يكون الجرح بليغا. في النهاية، نصف انتصار، نصف إخفاق، هو هزيمة.

- أبدا. أنت كبير سيد أنطونيو. أعرف أنك في مرة من المرات، أوقفت المنازلة واعتبرت أن الثور يستحق الحياة. أنت معروف بهذا. لم يحدث هذا مع غيرك. لقد كنتَ شهما دائما يا صديقي العزيز. حقيقي، تصورت في لحظة من اللحظات أنك ستفعل هذا مع نافارو.

أنجلينا ظلت ملتصقة بخوسي.

كان يجب ألا تقتله يا مايسترو. قالت أنجلينا. كنتما متعادلين في المعركة القاسية. الإستوكادا النصفية دليل على ذلك. كان هناك إصرار قوي لدى نافارو على الحياة، وكان هناك أيضا تردد كبير في قتله. والدي يقول إنه لا يوقف المعركة إلا رجل كبير. ليس من السهل على متادور منتصر ومعروف فعل ذلك.

- معك حق سيدة...

- أنجلينا. ابنة كاباييرو إيميليانو، محضّر الثيران قبل دخولها حلبة المصارعة القاتلة، كما يقول.

- واووو. ؟ كاباييرو إيمليانو، طبعا من لا يعرفه. لابد أن تكوني قد تعلمت منه الكثير. هو أيضا يتنقل كثيرا عبر مختلف الكوريدات. التقيت به في الكثير من المرات، في البهو، أو في الاسطبل وأنا أتأمل منافسي من الثيران المستعدة للمعركة، لكني علمت أنه ترك كل شيء، واشترى مزرعة.

- لا. اشترى بيتا شعبيا خارج المدينة بحديقة، يربي الدجاج الذي يبيض. ويعيش نباتيا. حقيقي تعلمت منه أن أكره هذه اللعبة يا سيد أنطونيو. لكن هذا المجنون الذي بجانبي أعادني إليها. وأناقتك وسحرك أيضا. والدي حكى عن قلبك الجميل كثيرا، وقال إنك لا تشبه الآخرين. وإن إنسانيتك فاقت كل شيء. لو فقط تركتَ نافارو حيا كنت قبلت رجليك الآن.

- صعب يا أنجلينا. أول تجربة لي في وهران. لم أرد أن أحرم الجمهور من إستوكادا انتظروها طويلا. فكرت أن أوقف المعركة، لكني لم أفلح. وربما لحظة التردد قبل غرس الشفرة هي السبب كما قلت قبل قليل. للأسف لم أكن حذرا بالشكل الكافي، تركيزي كان ضعيفا جدا. المرة الأولى التي أشعر فيها بأعضائي تخذلني وبعدول رغبتي في قتل الثور.

- التعب فقط يا مايسترو.

- لا شيء أعمق من التعب...

قال أنطونيو، وهو مستسلم للعربة التي كان الفريق الطبي يدفع بها نحو سيارة الإسعاف، بعد توقيف النزيف. شد على يد خوسي أورانو للحظات قبل أن يدخلوه في عمق سيارة الإسعاف المجهزة طبيا.

في البهو، باتجاه الباب الخارجي. أخرجت أنجلينا منديلا مطرزا بالخط الأحمر والأسود، لوناها المفضلان. ومسحت على عيني خوسي أورانو الدامعتين، ثم وضعته في جيبه. لم يستطع تحمل رؤية أنطونيو في تلك الوضعية.

تمتمت أنجيلينا في أذنه.

- لا تخف حبيبي خوسي. لن يموت صديقك. أنا لا أحب مصارعة الثيران، لكني أحب الألبسة والموسيقى ولحظات التجلي والفرح التي تزرعها في الناس هذه الرياضة. زوجي غارسيا مجنون على هذه الرياضة، وهو من يجرني نحوها في كل مرة. يعبدك. هو من جعلني أحب أداءك لدرجة أن نسيت الثيران ولم أعد أراك إلا أنت.

- أعرف أنه لن يموت، لكن الجرح في الخاصرة ليس سهلا.

- شجاع وصلب. لا تخف عليه. لو غيره، كان الثور قد قتله بعد انحراف ضربته وفشل الإستوكادا.

في الباب الخارجي وجدت مجموعتها تنتظرها وهم يغنون في سعادة عالية، يصحبهم الشاب الذي لم يتوقف عن توزيع المنشورات لبعض الذين كانوا يغادون الكوريدا.

تقدم منه غارسيا بيكينيو.

- تعرف كم أحبك يا خوسي لأنك رشيق وابن مدينتي؟ لا بأس أن تخونني هذه القحبة معك، لكن لا أقبل أن تتركني وتذهب معك. في هذه الحالة وهذه الحالة وحدها، يمكنني أن أقتلك او أقتلها بلا تردد. هذا ليس كلاما طائشا ولكنه حقيقة. المنازلة كانت قوية جدا، لكن انتابتها في بعض لحظاتها، بعض المونوتونيا والثقل. أنطونيو كان بطلا، ونافارو أيضا. موتهما خسارة.

همهم جميع من كانوا وراءه من الغجر.

- أعتقد صراحة أن أنطونيو دي غاليسيا لم يكن في يومه. لكن وجود أنجلينا جعلني أتحمل حالة الخوف التي انتابتني عليه. كنّا معه، لهذا تأخرنا عليكم قليلا.

- كلنا نحبك، لكنها أصيبت بك أكثر. لن تتركك، ولا يمكنها أن تفعل. النساء من هذا النوع لا يذهبن إلا نحو الفرح. شغوفات بالحياة. شكرا خوسي، فارسي العظيم. أنا أحبك، لهذا لا أشك في أية كلمة تقولها، وهذا جزء من نبلك.

ثم التفت غارسيا صوب أنجلينا.

- أنجيلينا حبيبتي. نمشي؟ بقية الجماعة ينتظروننا عند الأبواب. الخلفية، بعضهم يكون قد وصل إلى المارشي. وقتنا ضيق جدا. لنا عمل في جبل الأسود.

- نمشي ولو أن هذا المجنون الذي يقف أمامي ساحر ومن الصعب تركه وحيدا، يتيما.

- عندنا تسليم بضاعة الليلة، يا أنجلينا. أبوك سيقتلنا إذا خذلناه. الأحصنة محملة. ننتهي من الشغل، وبعدها عودي له إذا أحببت.

ثم ركض نحو الجماعة.

التفتت أنجلينا نحو خوسي. كان غارسيا قد غاب وسط الناس عند مدخل المارشي.

قبلته. قالت:

- أحبك. إذا أصبت بجنونك يوما، سأقتلك. اكتب لي عنوانك.

ربما التقينا.

- عندي قلم بلا أوراق.

- اكتبه هنا. ثم مدت كفها.

ضحك. عندك حلول دوما. ثم كتب العنوان وهو يعرف أنه سيمحي بعد لحظات، عندما تغسل يديها.

تمتمت وكأنها كانت خائفة من أن يسمعها أحد:

- أحبك. طبيعي حبيبي لن يمحي قبل أن أنقله. أصلا حفظته. من

لا يحفظ رقم الغواية 69، البقية معروفة. الشوارع أعبرها يوميا، شارع لياج دربي ومعبري. ثم أن حي الكميل ليس كبيرا إلى درجة التيه. سآتيك يا مجنون فقط لأشمك.

نزعت أنجلينا من عنقها شيئا. وضعته في كفه ثم انسحبت.

- انتظرني... انتظرني سأفاجئك يوما في بيتك.

ثم تبعت مجموعتها ركضا نحو المارشي الذي بدأت تخف حركته من الناس، إلا من السيارات الأمنية التي كانت في محيط الكوريدا كما في كل منازلة. كانت الكوريدا صامتة وبدت كقبر كبير، مفتوح على السماء والهواء الطلق.

مشى خوسي أورانو قليلا وهو يسترجع الاستوكادا التي كادت تودي بحياة صديقه. كيف حدث ذلك؟ كيف لم ينتبه إلى نصف الدائرة التي أحدثها الثور وهو يدور؟ كيف ترك جزءا من القرن ينغرس في خاصرته؟

في كل حركة موت ينتظر، لهذا حسابها بدقة معناه الحياة. ممنوع الانزلاق، ممنوع السهو، ممنوع الحركات الزائدة، ممنوع الدوران الضيق أو المفتوح كثيرا الذي يمنح للثور مساحة أكثر للدوران والضرب القاتل.

التفت، لم ير شيئا سوى ظلال كانت تسرع الخطى وتغيب نهائيا خلف خيام المارشي.

نظر خوسي أورانو إلى كفه. تأمل رسم الميدالية الذهبية: كوريدا، ومولينا مرفوعة عاليا، وثور يذهب في الفراغ، وحركة جميلة من المتادور.

ابتسم. وضعها في عنقه ثم غرق في شارع لياج، لا شيء في رأسه إلا الإستوكادا النصفية.

نصف انتصار، نصف إخفاق، هو هزيمة.

مر على محطة البنزين بيريل[1]، في خلفية حلبات المصارعة، أوقفه شاب عرفه من ابتسامته.

- يبدو كأن صديقك أنطونيو دي غاليثيا، جرح؟ لم يكن حقيقة في يومه. كاد يقتل.

- أعتقد ذلك أيضا.

- لابد أن يكون حزينا في فشله في الإستوكادا.

- هذه هي المعارك التراجيدية الكبيرة، تخترقها أقدار لا سلطان لنا عليها.

- طبعا أنت لا تعرفني.

- أعرفك. كلما عبرت من هنا رأيتك في المحطة. أخوك الصغير بتدرب عندنا في مدرسة مصارعة الثيران؟

---

1. Beryl.

- بالضبط. أنا أعمل في محطة بيريل من سنوات. اليوم أخذت عطلة لمشاهدة المنازلة. بانتظارك. أعتقد أنك ستجر وهران كلها نحو الكوريدا.

- آمل أن أكون في يومي.

- أوكي سيدي أتركك. إلى لقاء قريب.

- تشاو. عزيزي.

6

شعر خوسي وهو يتناول الرشفة الأولى من نبيذ تلمسان، أن اليوم لم يكن عاديا. كان ثقيلا.

شيء من المرارة في حلقه.

حاول أن يستعيد ملامح أنجلينا في كل بهائها وجنونها، لكنه فشل. كان وجه أنطونيو طاغيا على كل شيء.

الجمهور كان كبيرا، لكن أنطونيو لم يكن في أفضل أيامه. حاول أن يجد له كل الأعذار. المشكلة هي أن الخطأ غال في مثل هذه الحالات. لا يرحم صاحبه أبدا.

لا يدري ما العلاقة بالضبط. فجأة ارتسم في ذاكرته ذلك اليوم الذي ابتعد بسرعة. مع أن سنتين ليستا بالشيء الكثير في عمر الإنسان. بدا له مثقلا بشيء غامض، لم يكن قادرا، لا على لمسه ولا حتى على فهمه.

شعر بالكثير من القلق وهو يستعيد مصارعته الأخيرة في وهران، يوم 7 نوفمبر 1954، التي كانت هي ختام الموسم.

كان الإشهار حولها كبيرا. البطاقات بيعت قبل شهور من افتتاح المنازلة. شعر خوسي يومها بأنه ينتمي حقيقة إلى مدينته، وأنه ابنها المدلل. السلطات حضرت. رئيس البلدية ذو الأصول الإسبانية حضر أيضا، الكثير من مجموعات المجتمع المدني.

كل شيء تم بدقة متناهية. كان يعرف أن الجمهور جاء من أجله، لكن الكثير منهم لهم عاطفة تجاه الحيوان. وتمنى لأول مرة، بل عمل جاهدا

على أن تكون الاستوكادا حاسمة، لا يتألم فيها الثور، ولا يضطر هو إلى ضربة الرحمة. الاستوكادا تكون أحيانا، عندما تتم بنجاح، هي الضربة الأخيرة، وهي أيضا رصاصة الرحمة التي توقع الثور أرضا مرة واحدة، ولا يتعذب. وكان على خوسي أورانو أن يكون دقيقا في توجيه سيفه في النهاية، نحو المكان المحدد، حتى لا يعذب الثور ويزيد من ردود فعل أعداء مصارعة الثيران.

يتذكر جيدا تلك اللحظات الأخيرة التي بقيت مرتسمة في عينيه أكثر من كل المصارعات التي خاضها. كانت نظرة الثور ريو دي صلادو المعروف بقوته وعضلاته الثقيلة، مليئة بالدم. لم تكن رحيمة. كأنه كان يعرف أنها الضربة الأخيرة التي عليه أن يجابهها بقوة كقدر محتوم، ولكن دون أن يستسلم لها.

دار الثور ريو[1] في مكانه يومها كأنه يصنع لنفسه مركزا حقيقيا يجد فيه توازنه، في وضع شعر منذ البداية أنه لم يكن في صالحه. التقت نظراتهما كأنها شرارة سيفين حادين اصطدما مع بعض مخلفين شتاتا من الشعلات الصغيرة، تطايرت في السماء. بدا الثور الضخم يلحس دمه من على ظهره المجروح بسبب ضربات البيكادور كانت شديدة وقاسية جدا. وكأنهم عندما غرسوا رؤوس الرماح الحادة، على ظهره ورقبته أدخلوها عميقا أكثر مما تفرضه قواعد هذه الرياضة. وظلت السهام الصغيرة الملونة، الملتصقة بظهره، تزعجه كلما تحرك.

دار الثور ريو في مكانه عبثا. وجه بصره نحو المولیتا الحمراء. رفعه عاليا في الفراغ، ثم ثبته في خوسي. كأنه كان يريد أن يقول شيئا، لكنه لم يكن قادرا. ليته تكلم؟ تمتم خوسي أورانو في أعماقه، وهو يسترجع تلك اللحظات لحظة، لحظة.

ابتعد. أغمض عينيه، ثم فتحهما بنفس القوة. كان هدير الكوريدا قد أصبح في رأسه. الناس يصرخون من كل الجهات. ثم وجه شفرة سيفه

---

1. Rio.

نحو الثور ريو. إنها المنازلة الأخيرة للموسم. بدت له عيناه ترتعشان، وهو يهز رأسه يمينا وشمالا ليعرف بدقة النقطة التي تدخل فيها الشفرة عميقا حتى تمس الرئتين أو القلب. لأول مرة يلصق المولیتا بحوضه ورجليه. مد سيفه ولم يعد يرى إلا تلك النقطة بالضبط التي تجعل الاستوكادا دقيقة بلا ألم. الموت فقط.

تجتاحه تلك اللحظة بقوة وكأنها تحدث الآن. بعد أن ضرب ريو على الأرض بقوائمه الأمامية، ركض بكل قواه في الاتجاه المعاكس. بدت له المسافة الفاصلة بينهما طويلة وكأنهما سيصطدمان بعنف مثل نجمتين هاربتين في قمة التهابهما. فجأة قفز خوسي أورانو عاليا بكل قواه حتى شعر بنفسه يطير، لكي تكون الضربة القاتلة، من فوق لتحت، بدقة ويكون هو الأوحد الذي ينفذ الإستوكادا بتلك الطريق الخطيرة بعد من علمه ذلك، لأن أي تعثر يحوله إلى ضحية مثلى لثور في قمة الامه وهياجه. وهو يغرس السيف عميقا ويميل يمينا، ويفرط المولیتا يسارا على اتساعها، لم ير عيني الثور الحمراوين، ولكنه لمح الضربة في المكان الذي حدده بالضبط، حيث يخترق السيف الأغشية بلا اعتراض من العظام، فتدخل الشفرة حتى المقبض بسهولة متناهية، سمع على إثرها شخيرا مكتوما من الثور. ثم لم يسمع إلا صوت ارتطام الثور على الأرض مصحوبا بهدير الكوريدا، بينما حاول ريو عبثا التخلص من المولیتا التي غطت وجهه كليا. هز رأسه قليلا لكي يحرر قرنيه لكنه لم يستطع، ثم مال الرأس الملفوف في المولیتا نحو الجهة اليمنى بلا حراك.

يتذكر خوسي أورانو حتى التفاصيل الدقيقة. رفع رأسه باتجاه الجمهور الذي صرخ عاليا. رمى قبعته في الفراغ الواسع، ثم التفت نحو الثور. أراد أن يخلصه من المولیتا، لكنه غير رأيه في آخر ثانية. لم يرد أن يرى عيني خصمه مغلقتين. المولیتا التي انتشرت عليها بقعة الدم، تحولت إلى كفن أحمر. انحنى خوسي على ركبتيه، ثم قبل رأس ريو، فصرخ الجمهور بشكل موحد، مصحوبا بموسيقى باسو دوبلي Passo doble:

فيفاااااا خوسي أورانوووووووووووووووو.

لا يدري لماذا انتابته كل تلك التفاصيل مجتمعة؟ هل لأن صديقه وأستاذه لم يتقن الإستوكادا.

كان خوسي سعيدا أن الشفرة دخلت عميقا بلا حاجز. ريو لم يتعذب. وكل الناس ظلوا يتحدثون عن هذه الإستوكادا المثالية زمنا طويلا، فقد غيرت كليا من تقليد قديم أصبح ثابتا كالصخرة.

يتذكر خوسي، أنه في الليلة نفسها، بعد المنازلة القوية التي أبدى فيها ريو إرادة استثنائية، رنّ تليفون البيت. أخذ السماعة. عرفه من بحة صوته وهدوئه الكبير، لكنه لم يحدد صاحبه.

- كنت مدهشا اليوم يا خوسي، ساحرا في حركاتك. أستطيع

أن أفتخر أن لي صديقا عظيما في رياضة لا أحبها كثيرا، لكنها مدهشة، بأناقته ورجولته واحترامه للحيوان الذي أمامه. حتى ولو انتهت المنازلة بشكل تراجيدي.

- لم أعرف من معي؟ على الرغم من أن هذه البحة تذكرني بشخص بعينه.

- يا سيدي، العظماء ينسون دوما أصدقاءهم الصغار. كنت

أريد أن أراك، لكن العالم من حولك كبير، وكان من الصعب عليّ أن أصل إليك. لقد أعدت رياضة مصارعة الثيران إلى جمهورها الطبيعي، في وقت كان يظن الناس أنها ماتت. لا يكفي أن تأتي بأهم متادور إلى حلبات وهران إذا لم يكن لديك من أبناء المدينة من يقوم بذلك بدهشة. اشتغلت في كل المهن، ولا أحد يعرفني.

يكفي أن أقول لك أني العب مع لازمو، جمعية وهران[1]، لتتذكر صاحبك سودور[2] تاع غرغينتا[3]؟

بهذا الكلام قربتني منك كثيرا. أعتقد أنـ...

تخيل شخصا اشتغلت معه مدة طويلة. أنت كنت تتدرب على مهنة الكهربائي، وأنا على التلحيم. في قبو غارغينتا المظلم. كنا صديقين على الرغم من المهنتين المختلفتين. في النهاية مشى كل في طريق يظن أنه طريقه المثالي. كان حلمك أن تكون متادورا عظيما لأنها هي الرياضة التي أحببتها وتعلمتها في حقول جدك الذي كان مربيا معروفا للثيران، ومروضا للأحصنة. كنت تتصارع مع الثيران الصغيرة وأنت على حصانك، بينما كان حلمي أقل من ذلك بكثير، أن أكون ممثلا سينمائيا، تخيل. تخيل أحمد زبانا، أو حميميد ممثلا كبيرا. أعرف أن ذلك لن يكون لأنه في مدينتنا توجد ثلاث مواطنات. المواطنة الفرنسية الخالصة، مواطنة فقراء أوروبا واليهود على الرغم من قانون كريميو الذي رفع اليهود إلى الجنسية الفرنسية، وفي آخر السلم، لا مواطنة المسلمين.

- واووووو. صديقي العزيز حميميد. أي فرح هذا؟ وأي ريح جاءت بك بعد كل هذا الانسحاب. على الرغم من غيابك كنت دائما أبعث لك دعوات لحضور منازلاتي أو منازلات غيري لأني أعرف أنك تحب هذه الرياضة.

- تخيل دعوتك وصلت صباح مقابلتك. تمنيت أن أراك بعد

المقابلة، لكني خمنت أن الأمر سيكون صعبا بالخصوص عندما رأيت حضور كل السلطات المحلية. طبعا للتدليل أنهم يساندون هذه الرياضة.

---

1. ASM Oran.
2. Soudeur (لحّام)
3. تحريف لاسم معركة: خرق النطاح.

- تعال، خلينا نشوفك. أنا في حي الكميل لضرورات العمل، لكني مازلت في حي لاكاليرا[1] البحري، في حي الصيادين، بالمركز التاريخي والتراثي لوهران، ولم أغير مكاني. تعال نأكل سمكا، غدا ويكند. فرصة لاستعادة أيام البؤس المشترك ههه.

- سآتي وسأحكي لك عن أشياء كثيرة حصلت لي في حياتي منذ أن افترقنا. العالم تغير كثيرا يا عزيزي خوسي، ولم تعد طيبتنا كافيه لمواجهته.

- ومع ذلك يا حميميد ألومك لأنك هربت وتركتنا وراءك، ولم تقل حتى أين ذهبت لأسال عنك، فأنت صديق المهن الشاقة.

- إنها الحياة يا خوسي. أنا حاليا بين وهران والعاصمة.

صعوبات الحياة والعمل الشاق. الحياة أصبحت صعبة عليكم أنتم الإسبان والمالطيين، والفقراء الأوروبيين، فما بالك بالنسبة للعربي أو المسلم؟ فهي أسوأ مرتين.

بدا له يومها قلقا جدا. كان يشبه البحر الذي ارتفعت أمواجه عاليا في خريف لم يكن يشبه الخريف أبدا. كان كأنه يوم شتوي عنيف. لا تتخيل أنه يوم خريفي، 8 نوفمبر. الأشجار تهتز بقوة كبيرة.

يتذكر خوسي جيدا أن أحمد زبانا لم يكن مرتاحا ولا بشوشا كما عرفه في غارغينتا.

تحدثا كثيرا عن الوضع العام الذي كان كل يوم، يتأزم أكثر. الظلم الذي كان يشعر به، لم يكن من السهل تحمله. يتذكر جملته القاسية أيضا التي قالها زبانا بعفوية، لكنها فاجأته. شعر فجأة بأن أحمد الشاب الصامت، تغير كثيرا.

- لم يتركوا أمامنا إلا التطرف. انظر إلى هؤلاء الصيادين الفقراء. لا شيء يغريهم بالحياة إلا جهدهم ويأسهم وإيمانهم بالحياة. بدون إيمان بالحياة لا شيء يصلح.

1. La Calaira.

كان يجلس معهما صديقه خمنيث، الصياد النقابي، صديق خوسي. سبق أن التقى أحمد به مع خوسي.

انظر. قال خوسي. مايسترو خمنيث الشيوعي، يشبهك في كل شيء، حتى في تحليلك. هو يرى أن السلطات وضعت مواطنتين، واحدة للفرنسيين القادمين من هناك، ونخبة من الأوروبيين، ومواطنة في الحضيض للبقية بما فيهم بعض الإسبان والغجر، والمسلمين.

خمنيث كان الوحيد الذي صفق للأعمال الإرهابية التي حدثت قبل أيام، قال طبيعي، لو لم يحدث ذلك لقلت إن البلاد ميتة وأن الناس راضون في النهاية ويستحقون ما يحدث لهم.

شعر حميميد يومها برغبة في الإجابة على كلمة إرهابية التي لم ترق له، واتجه بكلامه نحو خمينيث.

كلامك مهم. لو لم يحدث ذلك لقلت إن البلاد ميتة وأن الناس راضون في النهاية ويستحقون ما يحدث لهم. الظلم يفتق مواهب الناس في ردود فعلهم. والظلم مهما طال سيتوقف في وقت من الأوقات. المشكلة هي في تعريف الإرهاب. هل الذي يدافع عن حق مسروق ولا يملك وسيلة لاسترداده إلا العنف، إرهابي؟ أزيلوا الأسباب، تزول النتائج. معادلة بسيطة.

- نحن نعيش في العنف، لكن هل نقبل به كمسلمة؟ ما رأيك في الناس الذين قتلوا وهم مسالمون؟ كل يوم تسمع خبرا مخيفا. أعرف أن العنف لن يطول.

- سيطول إذا لم يجد من يسمعه. وهؤلاء لا يسمعون أبدا.

- ستنزاح حالة الغبن. أنت تعمل وتلعب كرة قدم، وتعيش حياة محترمة مثلنا جميعا، ماذا تريد؟

- لكن عندما ترى أهلك وشعبك يقتل باستمرار، فهذا يدفع بك إلى التطرف الطبيعي. هل يعقل أن تسجن بلا سبب؟ تحصلتُ

على شهادة الابتدائية، وسجلتُ في مركز التكوين المهني في مدرسة التكوين الحرفي لتصليح التدفئة والكهرباء والتلحيم، وكنا معا في قبو سوق غاركينتا، ماذا استفدنا؟ لا شيء. عملت في مصنع الاسمنت في لاكادو في سان لوسيان la Cado à Saint-Lucien ولا شيء تغير في وضعي الاعتباري. عنصر بلا هوية، من الأهالي. كلمة الأهالي مهينة للثورة الفرنسية لأنه تعبير عنصري، وممارسة تفريقية.

- جميل وهذا يمنحك التصاقا أكثر بالحياة.

قال خمنيث الذي كان يسمع بانتباه كبير لأحمد زبانا، ويهز رأسه، من حين لآخر، إعجابا بكلامه.

- صديقك قطعة ذهب خالص. قال خمنيث ضاحكا.

- انظر يا خمنيث. أنت مولود هنا، وأهلك أيضا هنا، وحبيبتك هيلينا، هنا، لماذا إذن أنت نصف فرنسي؟ ألا يخلق لديك هذا غبنا عميقا؟ أنا مثلا ماذا فعلت لتوقفني الشرطة في 2 مارس 1950؟ لا شيء. عاقبوني بثلاث سنوات سجنا بلا مبرر وجيه. فقط لكوني في حركة سياسية علنية MTLD[1] لم يمنعها القانون. فوق هذا، منعوني لمدة ثلاث سنوات من الإقامة في مدينتي. هذا هو التطرف الذي يخلق تطرفات مجاورة، ربما أكثر خطورة.

عندما أتاهم الغارسون بالمشويات. صمت الجميع، بينما هرب بصر حميميد بعيدا في البحر بعد أن خفت الرياح وتوقفت. ثم التفت نحو خوسي أورانو:

- عذرا يا عزيزي، لا نريد أن نحول أنا وخمنيث فرحك إلى كابوس. أنا أسعد إنسان اليوم لانتصارك ولأنك أعدت هذه الرياضة إلى سابق عهدها عندما أسست في 1910 كوريدا وهران.

---

1. كان أحمد زبانا عضوا في حركة انتصار الحريات الديمقراطية Mouvement pour le (triomphe des libertés démocratiques (MTLD

هذه اللحظة معك يا حميمد، من أيام العمر الجميلة.

كنت أريد أن ألقاك بعد طول غياب. سأدعوك أول ما تتأكد مقابلة لازمو مع الكميل، أهل الكوريدا. هههه ضحك الجميع ورفعوا كؤوس البيرة، بينما رفع أحمد زبانا كأس الماء البارد الذي كان قد طلبه.

- كأسك الجميلة والمزيد من الانتصارات، وربما أحضر لك القادم من مبارياتك.

- أسعد بك دوما. ستتغير الأوضاع ولن تبقى على ما هي عليه.

- أكيد ستتغير. ستتغير حتما، لأن للظلم ميقاتا.

يتذكر خوسي أورانو جيدا أنه في الصباح الباكر، عندما استيقظ، مشى قليلا في ميناء الصيادين ثم مر على الكيوسك البحري الصغير، وأخذ جريد ليكو دوران[1]. جلس على الكرسي يشرب قهوته في مقهى لاكاليرا. مدد رجليه وتركهما تلمسان الماء، بينما كان خمنيث يربط الأحبال ويتفقد الشباك قبل الدخول إلى عمق البحر ليلا.

فوجئ بمانشيت العنوان المستفز: الإرهاب يضرب من جديد سلام المدينة.

- خمنيث، هل قرأتَ هذا في جريدة هذا الصباح 09 نوفمبر من سنة 1954؟

- هذا ما كان يقوله صديقك حميمد. العنف يولد العنف.

اشتباكات الليلة الماضية في غار بوجليدا والقعدة، كانت عنيفة. يقولون إنهم ألقوا القبض على الإرهابي الذي كان وراء العملية، بعد أن أصيب برصاصتين في رجله.

- يجب وضع حد لهذه الفوضى. لا يمكن أن تعيش مدينة مسالمة تحت التهديد المستمر لعصابات بلا ضمير.

---

1. الترجمة الحرفية لعنوان الجريدة هو: صدى وهران l'Echo d'Oran

- اسمع... يا عزيزي خوسي، هذا حكم جاهز. أنت طيب كثيرا.

الطيبة وحدها لا تكفي في عالم ظالم. سحبوا الإرهابي كما يسمونه، إلى مدرسة البلدية بالقعدة، قبل أخذه للمستشفى، وعرضه هو وأصدقائه، على التلاميذ بجروحه من طرف الأستاذ، عند مدخل مرآب المدرسة وهو يكرر على تلاميذه: « voilà ce qui vous arrivera si vous suivez les rebelles[1] » قبل أن يؤخذ للسجن.

- واحد مثل هذا لن ينفذ من الإعدام.
- البشاعة ببشاعة أكثر منها. تعرف أن دوامة العنف تبدأ صغيرة لكنها سرعان ما تكبر وتتسع.
- لكن يا عزيزي خمنيث هذا تعد على حياة الناس.
- مشكلتك يا خوسي أن نظرتك تتوجه فقط لما هو أمامك، وكأنك فقط في مواجهة ثور، تبحث له عن نقاط ضعفه وكيف تكون الإستوكادا، في النهاية، ناجحة. لكن لا تسأل عن الثور. كيف يفكر وهو يواجه شفرة الموت، والطاحونة التي مر عبرها لإضعافه حتى يصبح صيدا سهلا. بل تعتبر ذلك جزءا من اللعبة. لكن ثمنها المخفي ثور يموت بشكل غير عادل. كل واحد فينا يحب الحياة. ألسنا بشرا كلنا؟

- نعم، لكن هناك مخلوقات ليس لها علاقة بالبشر.

قال خوسي أورانو، قبل أن يدفن عينيه في الجريدة مواصلا قراءة الأخبار والتغطية الواسعة لمصارعته وقصة الإستوكادا الهوائية الجديدة التي أبهرت الجمهور، وأنصار هذه الرياضة.

- من الأحسن أن انهي خياطة الشباك، هذه الليلة لن تكون سهلة مع بحر بدأ يظهر لنا مواهبه هههه.

مرت على تلك القصة قرابة السنتين، وكأنها حصلت الآن. شيء فيها يستعصي على النسيان. يحدث أن يصبح الزمن لعبة في يد الوقت.

---

1. هذا ما سيحدث لكم إن اتبعتم طريق العصابات.

7

قالت إنها ستأتي.

- هل ستأتي؟ أتمنى أن تأتي. وإذا لم تأت، ماذا سيحدث؟ لا شيء.

سيستمر العالم بكل حماقاته، وجبروته وكذبه.

تأمل خوسي البيت طويلا. ليس بيته الدائم ولكنه بيت العمل أو البيت الوظيفي كما يسميه صديقه فاكوندو. صالون واسع وغرفتان. نظمه على ذوقه على الرغم من أنه لا يبقى فيه إلا نصف الأسبوع تقريبا. لوحة موجودة في كل مقاهي وهران العتيقة التي تضم سفينة إيطالية وهي تفرغ الأندلسيين. يتخيل دوما أن جده يكون من بينهم. وصورة كبيرة لأهمّ شخصية طبعت رياضة مصارعة الثيران، فرانشيسكو روميرو الذي كان وراء الإستوكادا في كوريدا روندا. ويعتبر مؤسس الكوريدا بمعناها الحديث، في القرن الثامن عشر. ولوحة في الزاوية وهي عبارة عن تقليد دقيق عن رسم لفانسون فان غوخ: الجمهور في حلبة مصارعة الثيران. سلمتها له سيدة بعد نهاية مقابلته الأخيرة مع افتتاح حلبات وهران بعد غياب طويل، لم يرها أبدا في حياته مرة أخرى. كلما تأمل اللوحة، تذكرها. قالت له جملة واحدة قبل انسحابها:

« - أنت لا تعرفني. غامرت وجئت من أجلك، فقط لأراك وأقول لك كم كنتَ مدهشا. هذه اللوحة أنا من رسمتها لك. وسأرسم ثانية من وحي الإستوكادا التي أنجزتها اليوم ببهاء وسمو وقوة»

عندما التفت نحوها، كأنها تبخرت. لم يرها بعدها.

لا يتذكر منها إلا ملمحا أو ملمحين في وجهها، عينين فاتحتين، تميلان نحو خضرة باردة وجميلة، وخالة شديدة السواد، على الخد الأيسر، وكأنها ممثلة سينمائية. يتذكر أيضا أنها كانت تلبس لباسا أبيض عريضا. عندما التفتت، كأنها انطفأت مثل نجمة هاربة.

لا يعرف خوسي أورانو بالضبط كم من الوقت مر، وكم الساعة. أصلا الزمن لا قيمة له. تحدده الانتظارات التي تقف وراءه. كل الناس يسيرون بتوقيتها لأنها جوهر الزمن.

بعض الصدف تصنع أقدارا غير محسوبة، وترمي بالإنسان في خضم مدارات، وحدها تعرف مسالكها وممراتها السرية. لم يكن يتصور أن دقائق مع أنجلينا كانت كافية لتحرك داخله بقوة.

عندما شرع النافذة دخل هواء بارد كان يأتي من جبل الأسود، محملا برائحة النبيذ والعنب والبحر الذي لم يكن بعيدا.

أوقد الشمعدان ذا الستة رؤوس. انعكس النور مخترقا الظلال، بعد أن أطفأ كل الأضواء الأخرى. شم رائحة عطر أندلسي يشبه عطر العود الذي يصنع في البيوت الغجرية وتبيع منه أنجلينا لنساء الأسواق، وحتى للعابرين بعد سماع الموسيقى.

فجأة استيقظت في ذهنه تلك اللحظة الهاربة.

فقد قضت أمسية جميلة بالقرب منه، مدعية أنها أخته، وتابعا معا منازلة أنطونيو دي غاليسيا، وأحست معه بألمه تجاه جرح صديقه أنطونيو، قبل أن يغادرا معا من مخرج الكوريدا الرسمي ويلتقيا بمجموعتها، بما فيهم غارسيا.

تأتيه كلماتها باندفاع كبير:

قبلته. تمتمت:

- أحبك. إذا أصبتُ بجنونك، سأقتلك. اكتب لي عنوانك.

عندي قلم بلا أوراق.

اكتبه هنا. ثم مدت كفها.

عندك حلول دوما. ثم كتب العنوان وهو يعرف أنه سيمحي بعد لحظات عندما تغسل يديها.

طبيعي حبيبي لن يمحي قبل أن أنقله. أصلا حفظته. من لا يحفظ رقم 69 البقية معروفة. الشوارع أعبرها يوميا، ثم إن حي الكميل ليس ببعيد إلى درجة التيه.»

كانت الساعة تشير إلى الواحدة من نفس الليلة، عندما دقت على الباب بدون انتظار، وهي تطلب منه أن يفتح:

افتح بسرعة يا خوسي، راح أسقط. أنا أنجلينا.

- يا مجنونة، ماذا فعلت بنفسك؟

ارتمت في حضنه وبدأت تبكي. كان وجهها مملوءا بالكدمات.

- عذرا حبيبي، سامحني، أنت منشغل بصديقك الجريح أنطونيو دي غاليسيا، وأنا هجمت عليك بلا موعد، ما أحزنني يا خوسيتو حبيبي. الهمُّ جار بائس، علكة لاصقة باستمرار، ومن الصعب التخلص منه. كلما هربت منه، وجدته ملتصقا بي كالعلقة؟ أحار ماذا أفعل به؟

- كنت حقيقة أفكر فيك، وفي جنونك، وفي كذبتك، وأقول في نفسي كم أنت جريئة. كنت أنتظرك. ألم تقولي إنك ستأتين إذا وجدت منفذا؟ وها نحن معا.

انسحبت منها ابتسامة شاقة، على الرغم من وجهها المليء بالكدمات، وريقها الجاف:

- كنت فقط أريد أن أكون بجانبك، وكان عليّ أن أكذب، لأن مجتمعاتنا بنيت على قشرة لماعة تحتها يتآكل دود الكذب.

ضمها إلى صدره. انفجرت بكاء من جديد

- اشربي الماء أولا، واحكي لي من فعل فيك هذا كله؟ إلى الآن لم أتجرأ على سؤالك مخافة أن أزيد من أذاك؟

- غارسيا الكلب سأقتله. سأدخل في مؤخرته يوما سكيني وأستمتع بتحريكه في داخله وهو يتألم. ضربني على وجهي بعنف كبير، كأنه كان يريد قتلي. انتابته حالة غيرة أعجبتني في البداية. في ثقافتنا الغجرية، المرأة التي يغار عليها زوجها يعني أنها مرغوبة، والعكس صحيح، المرأة التي لا ينتبه زوجها للذين يحومون من حولها، معناه لا يحبها. لكن مبالغته في الضرب لدرجة أنه أفرغ فيّ حقدا دفينا، آذتني ولم يعد الأمر مجرد غيرة، ولكنه حقد من شيء مبهم أنا نفسي لم أفهمه. أعرف أنه عنيف، لكن ليس إلى هذه الدرجة.

- ماذا حدث بالضبط؟

- ببساطة، رفضت أن أنام معه. لم أستطع. كنت في مخي لك بكلي هذا اليوم، ورفضت أن أنتهي في صحنه، فلست الثور الذي قتلته. ولا يمكنني أن أكون مع رجلين في نفس الوقت. حاولت. شربت. سكرت. لم أستطع. أغمضت عيني وتعريت له بكلي، لكن شيئا في مخي ظل يرفضه. هو أيضا تعقد مني. قلت أحاول أكثر. تحولت إلى أفعى قرصته، لكنه لم يمت بسمي، وعندما تعرى أمامي تقززت منه. تحولت إلى ذئبة ولدت للتو، فخاف من رائحتي. تحولت إلى سلحفاة، عندما اقترب مني، دخلت في قوقعتي. وعندما تحولت إلى حلزونة وزحفت نحوه، ونظرت إلى عينيه، شعرت به منكسرا.

حاولت أن أتعقل معه، ولم أكذب عليه:

« - تعرف أني لا أريد أن أنام معك الليلة بالتحديد. ليس لكوني لا أجد شيئا فيك، ولكنها فترة إخصابي، وأكون في وضع غير سليم حبيبي. اعذرني الليلة أرجوك. تذكرت ليلتها كيف اغتصبني بعنف،

ذات مرة وهو في حالة سكره الشديد، في عز حالة هياجه. كتفني مثل خروف، وقام معي بكل ما يمكن أن يفعله مغتصب، وبيتني مكتفة ومربوطة على السرير. وكلما أرادني، فعل بي ما اشتهاه حتى أني لم أعد أحس به.

هذا جحيم وليست حياة؟

الليلة هو أصر بجنون، وأنا رفضت بجنون أكبر. مع أنه لم يعد شيء حميمي يجمعني به، ما عدا السلعة، والتجارة، والتهريب وتقدير المجموعة المتضامنة في عيشها الصعب. وعندما أخفق في كل شيء، قام وضربني حتى كاد يقتلني. فهربت من البيت بينما ظل يصرخ ورائي، وهو واقف عند الباب، في عز الليل:

- إلى الجحيم أيتها القحبة. اذهبي إليه. امنحيه جسدك، هو بانتظارك. اذهبي إليك...

لا أعرف من كان يقصد ب اذهبي إليه، لا أعتقد أنه قصدك وإلا كان تبعني. متأكدة من أنه كان يقصد صديقه وشريكه في التهريب ميغيل سانتوس دي كاميرا. الشاب الذي أدخلك إلى حلبة الرقص الذي يعزف معي على القيثارة الجافة والبانجو. عصاه ترافقه دائما. لم يكن يحبه لأنه كان يشعر أنه كان يغازلني. مع أنه لا علاقة له بي. ركضت نحوك وأنا لا أعرف لماذا؟ لقاء الصدفة قد لا يصنع حبا، لكني أحسست بقوة بقلبك. فإذا كان صديقه يرى في امرأة حارقة ولذيذة، ولابد أن يذوقني يوما، لم يكن يعني لي شيئا، رغم أنه جميل وأنيق.

- لا أدري كيف تتحملين رجلا لا تحبينه؟ هذا جحيم.

- في الحقيقة استجبت لطلب والدي لأنه كان يعمل معه. وكان مقربا منه. أنا نفسي لا أدري كيف قبلت به. ومن أجل الزواج منه أخضعتني عائلته لكل طقوس العذرية التي كنت أكرهها عند الغجر. لم أكن أريد أن أحزن أمي وأحولها إلى مسخرة، فقد بكت كثيرا في حياتها،

لم تر والدها منذ أن سحبوه من بيته. ظلت زمنا طويلا تبحث عنه، حتـ
قيل لها إنه رُحِّل في سفينة تنقل الحيوانات من وهران إلى مارسيليا، ثـ
نُقِلَ إلى محتشد داشو. بعد سنوات جاء من يخبرها من الغجر أو مـ
الغادجو[1] الناجين، أنه اقتيد مع مجموعة كبيرة إلى أوشويتز بناء علـ
تعليمة هنريك هيملر في 12 ديسمبر 1942. لهذا كان من الصعب علـ
أن أحزنها. قمت بكل الحماقات إلا عذريتي حافظت عليها لأني كنـ
أعرف أنه سيأتي يوم وأكون مجبرة على الدفاع عنها. في أعماقي كنـ
خائفة من فقدها لأني في مرة من المرات فتحت رجلي أكثر من اللاز
وأنا أرقص لدرجة أني شعرت بألم وتمزق، لكني عندما فحصت نفسي
لم أر دما.

- ما هذا الهراء؟ أين نحن؟ كأننا نعيش في كوكبين مختلفين.

- أظن ذلك بالفعل. أنت لا تعرف شيئا عني، إلا الرقص والرغبة المجنونة في الحياة. لكن أنا يا عزيزي خوسي، لا نصير لي عندما أوضع بين أيدي نسائنا اللواتي يختبرن عذريتي، إلا تحمل البهدلة. سيبدو لك الأمر غريبا. وعندما أثبتُّ عذريتي التي كنت خائفة من أن تكون قد ضاعت، ونجحت في امتحان الفحص. ومنحتُ المنديل لأم غارسيا التي فرحت به جدا لأنها تأكدت من أن كنّتها عذراء. ورقصت ليلتها لغارسيا الذي كان منتشيا بعد الشرب الذي دوخه. رقص معي، وكان رائعا قبل أن تجرحه رصاصة في رجله، إذ كان يطلق الرصاص ليلة العذرية، وبسبب السكر الشديد، ارتخت يده وكان إصبعه على الزناد، وكاد العرس يتحول إلى مأتم. لم تكن خطيرة ولكنها أقعدته أياما قبل أن يعود إلى حركته. وشربت معه ليلتها، ومع أصدقائنا كلهم. زوجوني شابة خوفا من أن أسقط بين ذراعي غادجو ملعون يلعب بعقلي، وهم كثر ويعيشون بيننا، بعاداتنا وتقاليدنا. ودرست رغما عنهم حتى مللت من الدراسة.

---

1. Gadjo هو من يعيش مع الغجر دون أن يكون غجريا

- مأساة حقيقية، وبؤس لا يمكن قبوله.

- خوسي حبيبي، ركضت نحوك لأني أريد أن أنسى كل هذا.

- هل تشعرين بنفسك أفضل.

- أفضل. عذرا أنت مجروح مما آل إليه صديقك وأنا أثقلت عليك أكثر بهمومي. ماذا أفعل. أشعر بنفسي وحيدة في مدينة توحشت كثيرا ولم تعد كما كانت.

- لا مشكلة. صديقي واستاذي بخير. كان مخدرا بعد العملية.

أزوره غدا بعد التدريبات. وهو يتحسن. الأطباء لم يقولوا أي شيء عن تأثيرات الضربة على مستقبله الرياضي.

- أتمنى له كل الشفاء. أشعر بتعب كبير. أريد فقط أن آخذ دشا. أمحو آثاره اللعينة.

- الحمام جاهز لك.

بسرعة خرجت من الحمام بعد أن اغتسلت ومررت على وجهها بعض المراهم، فخف انتفاخ جبهتها، وخديها، وعينيها. أحست بأنها استرجعت نفسها قليلا، وحاولت أن تنسى نهائيا غارسيا وضربه.

- عندك موسيقى.

- أكيد. ماذا تفضلين.

- أي شيء مجنون وراقص يخرجني من دوامة البؤس التي أنا فيها. عليك أن تحملني في النهاية همه. بي رغبة أن أغادر هذا العالم، ولا أرى أحدا غيرك.

- تانغو؟

- أفضله بجماله وعنفه.

قاسمها الكأس الأولى والثانية والثالثة.

- الآن اراك بشكل أفضل. لا أريد أن أندب قدري ولكن أن أعيش.

ولا شيء غير العيش حتى ولو كان داخل هذا الرماد الأسود الذي يعمينا عن كل شيء جميل.

عندما بدأ التانغو الأول، تشبثت به. سحبته نحوها ثم أبعدته قليلا إلى الوراء. سحبها من جديد نحوه حتى بدت ملتصقة به، عيناها في عينيه، وشفاههما على بعد نفس من بعض.

فجأة رأى الذئب المتخفي فيها.

شربت كأسا أخرى. غاب العد.

التصقت بجسده، قبل أن تتحرر منه كليا ولا يبقى إلا ملمس الأصابع. دارت في مكانها وكأنها كانت تسبح في الفراغ. رأت الطيور والغيوم، وأشعة الشمس الناعمة التي لم تكن قادرة على فتح عينيها فيها. ثم عادت لتلتصق به من جديد. وشوش في أذنها:

- أنجي. تريدين أن ترتاحي قليلا.

- لو كنت أريد أن أرتاح، كنت نمت. أريد الرقص أكثر حبيبي.

أن أرقص حتى يتبخر كل شيء من أمام عيني.

- لكنك متعبة.

- سأربطني بك حتى لا تهرب مني هه

- ناولني الفولار الأحمر. الموليتا.

ثم أحاطت جسديهما بها.

تدحرجت قليلا. لم تستطع أن تقف.

شايف يا خوسي. هكذا ستبقى معي ولن تهرب مني. هذا كله من بؤس الغجر. أنا أدافع عنهم لكن حياتهم زفت وكارثية.

يستمتعون بأكل لحم يعضهم بعض. أنا الليلة ناقمة على كل ما يحيط بهم وبرب ثقافتهم الكارثية. اللعنة عليهم وعلى معيشتهم. القاسية، لابد أن أنتقم منه الليلة.

- الانتقام يفسد علينا ليلتنا.

- معك حق. أريد أن أرقص معك حتى الصباح.

- وأنا أيضا أريدك أن ترتاحي قليلا.

شيئا فشيئا سحبها نحو سريره. نظرت إليه بعينين متعبتين.

كانت وديعة. سكنت كل فورتها الأولى. أصبحت فجأة مثل حمل وديع، تتلمس شفتيه، وعينيه وشعره الجميل.

- قبلني حبيبي. قبلني أريدك بجنون.

لا يعلم إذا كانت قد شعرت به قبل أن تنام، لكنها كانت تسبح في عالم آخر. رائحة عطرها العربي القوي، التي أيقظت كل حواسه، زادت في انتشائه. وعندما مدت رأسها على صدره تمتمت قبل أن تستسلم نهائيا للنوم.

- هل تسمعني حبيبي.

- أسمعك يا أنجي.

- **أن أحبك معناه أن أجدك دون عناء البحث عنك.**
أن تركض نحوي قبل أن ألوح لك بمنديلي
أن تحبني أن يسبق سؤالك دمعي،
ويغطي صوتك على ندائي.
الحب أن تعطي كل شيء، وتعطل السؤال.

- أنجي حبيبتي، ارتاحي، أنت جد متعبة.

- **الحب، أن أكون أنا الغجرية تميمتك الصامتة**
كلما احتجت لها، استجابت لدعواي
دون أن أفضح قلبي. وأكشف أسرار صمتي.

فجأة صمتت نهائيا.

أحس بنعومة نومها الطفولي، حتى بشخيرها الخفيف، لم يرد أن يزعجها. نامت في لباسها الذي رقصت به طويلا.

في الصباح الباكر عندما استيقظ، لم يجدها، لم تبق إلا علاماتها الصغيرة، ورائحة عطرها التي التصقت بكل مسام جسده، والفولار الأحمر الذي رقصت به طويلا قبل أن تتمدد على الفراش، ثم تنام على صدره في شكل جنيني.

ثم رأى ورقة مفتوحة على رخامة المطبخ. قرأها: غراثياس مي كريدو أميغو. كانت ليلة جميلة على الرغم من أنها بدأت بحزن كبير. الفضل كله لقلبك الكبير والجميل. عذرا خوسيتو حبيبي، أخذت مائة فرنك، سلفة فقط، لم أحمل معي أي شيء باستثناء لباس النوم الأبيض الذي تركته لك رهينة، ثم به عطري وجنون الليلة الماضية. الفولار الأحمر، المولیتا التي ربطت بها خصري بخصرك حتى لا تهرب مني، هو ذكرى ليلة هاربة.

« - مجنونة حقيقي.»

ابتسم.

- مهبووووولة حقيقي.

ثم خرج نحو تدريباته.

8

- ماااااادري Madreeeeeee.

رآها من بعيد تفتح ذراعيها باتساعهما.

لم يتغير شيء في عاداتها الطيبة.

- أخيرا هلّ هلال وهران. يا مرحبا بالمتادور الأنيق الذي شرف وما يزال يشرف مدينته. الكوريدا لم تعد حكرا على مدريد أو برشلونة، أو إشبيليا.

قالت مادري مارتا المسنة التي كانت تجلس بالقرب من مدخل مدرسة التدرب على مصارعة الثيران، في عمق الكوريدا، على كرسي قديم من قصب البامبو، متحلل كليا في أطرافه.

قبل خوسي أورانو يدها اليمنى التي كانت تنسج بها شيئا صوفيا. أرادت أن تقوم، ترجاها أن تبقى كما هي. مازحها وهو يرى السعادة التي ارتسمت على وجهها، وهي تراه:

- لابد أن يغيروا لك هذا الكرسي مادري مارتا. جددوا كل شيء في الكوريدا إلا كرسيك، في مكتب صديقي فاكوندو؟ من حقك أن تطلبي شيئا في سنك ومقامك. متأكد من أن الأمر لا يعدو أن يكون سوء تقدير فقط.

- أنا من رفضت. هذا الميراث المتبقي مما فعله الأغبياء بالكوريدا. هذا الكرسي يشبهني في كل شيء. نبقى معا أنا وهو، أو نذهب معا يا

عزيزي خوسي، هذا ما قلته لهم عندما بدأوا يجددون المكان. أول ما بدأت العمل هنا، أكرموني به، كان من أجمل الكراسي في وقته. لاحظوا أني كنت مولعة بالطبيعة. الأشياء بأصحابها يا ابني. أصر مانكو أن يغيره، قلت له أرجوك، كبرنا مع هذا الكرسي، وزوجي تخلى عني بينما هو ظل ملتصقا بي. وكلما تحركت أسمعني صوته. الكرسي هو كل شيء في العالم الذي نعيشه يا عزيزي. الكرسي الوحيد الذي لن يثقل عليه أحد، ويتداول عليه التلاميذ بشكل طبيعي، هو وكرسي المدرسة، الباقي كلها مآس.

– لكنه مكسور، ويؤذيك في الجلوس. الكرسي أولا ذاكرة وإحساس داخلي، وليس مجرد خشب او قصب.

– جربه وسترى.

جلس خوسي قليلا. أحس بنعومة الوسادة من تحته، وبسعادة وراحة كبيرتين.

ثم قام مبتسما.

– من الأفضل ألا أتعود عليه. جميل ووثير. معك حق مادري. مريح. الكراسي أجمل من البشر الذين يجلسون عليها.

– الكرسي لا يؤذي. أعتقد أن البشرية باكتشافها الكرسي رفعتنا عن طبيعتنا، وحسستنا بأننا آلهة صغيرة أو كبيرة. انظر من حولك عدد المقتلات من أجل كرسي إداري أو سلطوي، لهذا أنا ألح على كرسي القصب، فهو يعيدني إلى الأرض. ولن يسمح سادة المقابر يوم أموت، بدفنه معي. أعرف لن يفعلوا. أوصيت حفيدتي بفعل ذلك. هذا ميراثي. لو تركته عندهم سيأكله السوس، وينكسر ويهمل حتى يتفكك. لقد أوقفت تفككه بوسائلي الخاصة.

– أمامك عمر طويل ماما مارتا. فيلسوفة بحق. اسمعي أغنية سمعتها في السوق، من الغجر، تقول:

نحن غجر فقط.

ننام حيث تحرسنا السماء ونجمة العاشق الولهان.

لسنا من صنع الحروب.

لسنا من سرق من الشمس أشعتها.

علمنا جدنا الغجري العتيق

أن الحياة أكثر قداسة من الأديان

وأن قطرة نبيذ من حقول الروح

أكثر نبلا وانتشاء من أحقاد البشر.

- سمعتها. جميلة مادري.

- مثلهم لا أخاف الموت، لم يعد لدي ما أخسره. استعد فقط للعودة إلى أمي، باطن الأرض. عشت كثيرا كما أحببت، وقليلا كما أحبوا. على كل، الحياة هي هذه. من أرادها تأتيه، ومن نفرها تتخلى عنه. أنا أريدها حتى آخر قطرة منها. مثلا. على الرغم من تعب العمر، حضرت استعراض أستاذك أنطونيو، وحزنت له، للجرح الذي أصيب به، وحزنت أكثر أنه أخطأ الإستوكادا. ورأيتك في المنصة الشرفية، كنت مع سيدة جميلة، أعتقد أنها مجنونة بالحياة. خفت عليك من لباسها الأحمر... هههه الأحمر يستثير الثيران.

- وأنا لست ثورا هههه لا خوف عليّ إذن.

- جميلة. غجرية حقيقية، أعتقد أنها أنجلينا، هي وزوجها غارسيا بيكينيو، والمجموعة المرافقة. أصادفها أحيانا في المارشي، يقولون إنها مهربة، وتضرب بالسكين، قتلت أكثر من واحدة اقتربت من عشاقها، ويخافونها. أتعاطف معها، يقال إن جدها قتل في محتشد بوزنفالد مع حوالي صف مليون غجري، أبيد الكثير منهم بغاز زيكلون الذي استعمل لاحقا في غرف الغاز. مساكين أبناء الريح، أنا أحبها، كلما رأتني،

صبّحت عليّ. أحيانا أتساءل ماذا تفعل مع وغد مثل غارسيا الذي يخصي الأحمرة والبغال والأحصنة. أشعر بها حرة في مخها. هي ابنة شخصية كبيرة عمل طويلا بحلبات مصارعة الثيران. كان محضرا للثيران وغادر المكان، ولم يعد. كان عمله يحزنه، لكنه لا يحرم نفسه من أناقة مشهد مصارعة الثيران. متناقض مثلنا جميعا، لكنه صادق.

– نعم قالت لي ذلك، لكنها لا تأبه لقول الناس. لا أعتقد أنها كما يصفونها، مجرمة وإلا لكانت الشرطة قد سجنتها. امرأة رقيقة وشجاعة أيضا وذكية.

– حتى ولو قتلت، أنا أحبها. مؤدبة جدا، وجميلة. مرة رأيتها في المارشي هي وفرقتها، وكانت الشمس في عز إشراقها، بدأت لي مثل أيقونة تستحم في الأشعة. ذكرتني بشبابي.

داعبها خوسي.

– الله يعلم مادري مارتا كيف كان سحرك، الذي لم يغادرك حتى اليوم. يا حظ من فاز بك.

– ككل الجميلات، ضحايا جمالهن. لم أكن أملك جرأة أنجلينا، لكني كنت مقدمة على الحياة بحماس كبير ومجنون. أحببت في سنها بلا قيد، ورفضت أن أتزوج بمن أحب كي لا أخسره. ذهب زوجي وبقي هو وفيا لي. هناك شيء غريب بين عالم نصنعه وعالم واقعي. لا يتشابهان في أي شيء. ونظن خطأ أنهما نفس العالم. ولكننا نكتشف بالصدفة القاتلة أن المسافات بينهما بلا حدود. يلصقون بها كل التهم. مهربة. قاتلة، لكني لا أعتقد. كبرت هنا، وعرفتها من صغرها. وكان يمكن أن تكون أول مصارعة ثيران لولا أن والدها حرمها من ذلك لما كان يفعله ويراه. أعتقد أنه يمكنك أن تنتظر المانكو el Mancu هنا. لن يتأخر. هو مع البيطري المشرف على ثيران التوريرو. أعرفه منذ سنوات طويلة، عندما كانت كوريدا وهران متعة كل الوهرانيين، قبل أن يحولها الأغبياء والجهلة وأصحاب المال العميان، مكانا للحلفاء لصناع الورق.

ثم دخلت مادري مارتا في عمق البهو ولم يسمع خوسي أورانو إلا نداءاتها المتكررة.

- مانكو. خوسي وصل. هو في انتظارك.

- لا مشكلة. نحن على موعد. قال خوسي، ألا يغضب من نعته بالمانكو هههه. بدل مناداته باسمه فاكوندو؟

- هو صديقي من أيام الحرب الأهلية، وهربنا معا في سفينة محملة بالقمح. واعترضتنا فرقاطة فرانكو. فتشونا. وادعينا أننا صيادون وأننا نحن من يوفر السمك لجنود فرانكو، في غياب اللحم. قصة طويلة لو أفتح بابها ما راح تنتهي. يومها مرضت بالسل أنا وزوجي، الذي نسى بسرعة نضالنا، وامتلك أرضا مملوكة للسكان الأصليين، بعد أن سرقها منهم من خلال مصيدة نظمها أحد أقاربه الذي استقبلنا في البداية. قلت له حرام. نحن مناضلون يساريون ولا يجوز ذلك. قال هؤلاء همل وجهلة ولا يعرفون قيمة الأرض. انتظرت أول فرصة لأطلقه. ذلك ما فعلته بعد شهور بلا تردد.

وكأنها أدركت أنها حكت كثيرا، التفتت نحو خوسي وقالت:

- سيد فاكوندو يحكي كثيرا، سأنتزعه من البيطري. هههه.

- أنتظره لا مشكلة. عندي وقت يا سيدتي. ثم إن تدريباتي لا تبدأ إلا بعد الظهر.

- متحمس لهذه المدرسة للتدرب على مصارعة الثيران، واستمرارها. يريد أن يستعملك كنموذج ويجعلك تتعدد في المدينة. علاقته بالسيد باريير كبيرة. هو من وراء كل هذا المشروع. لوهران الحق في التفرد في الحياة والاستمرار بالخصوص بعد نجاح كوريدا أنطونيو. مسكين، الناس يقولون غير ما سمعناه. يبدو أن الثور لم يترك فيه شيئا، وأنه شبه ميت، وأن أحد القرنين خرب بطنه السفلي وجهازه التناسلي. كيف سيكون

وضع زوجته. كنت أفكر فيها. يقولون إن رأس القرن دخل في خصيتيه وأفرغهما من مائهما. لا تضحك، مادري مارتا تحكي كثيرا، لكنها لا تقول إلا ما تسمعه. أنا أعرفك سيد خوسي أورانو لهذا أحكي بحريتي. أنت نجم المدينة وابنها الحقيقي، كل الناس يعرفونك ويحبونك. حتى فاكوندو Facundo سمع نفس الشيء.

ضحك خوسي أورانو بمرارة.

– لا يا سيدتي. أنت تمزحين... هو بخير يا ماما مارتا. حقيقي بخير. حكاية جهازه التناسلي مجرد دعاية، وزوجته وأولاده بجانبه. وجاؤوا كلهم من إشبيليا للسهر على صحته. الضربة كانت خطيرة طبعا. التشخيص النهائي يقول إن القرن الحاد، مس الكلية اليسرى وجزءا من العمود الفقري. أرسل إلى مدريد مع عائلته. الرعاية هناك أفضل. ثم هي إرادته. لكن بالنسبة لوضعه الصحي الحيوي، لا مشكلة. طبعا حاليا لا يمشي، لكن بإعادة التأهيل سيعود إلى الحلبات، هو رجل شجاع. المتادور والثور هكذا، يسعدان الآخرين ويموتان في النهاية؟

– نعم مدريد أفضل. على الأقل في بلده وأهله. الإسبان هنا ما يزال ينظر لهم نظرة دونية. وكل السرقات التي تحدث في الأحياء الغربية من الكوريدا ومن وهران المدينة، يتحملونها هم والعرب. مع أننا كنا هنا قبل الفرنسيين الوافدين، ولنا أجداد منذ القرن السادس عشر. أتركك لموعدك وإلا ما راح تخلص مني. أنا مثل مانكو، ثرثارة.

خرجت مادري مارتا. ساد صمت فجائي، وهدوء كان يسمع فيه طنين الذبابة التي تسربت من النافذة الخلفية الصغيرة.

جلس خوسي أورانو في مكتب فاكوندو، الذي لم يكن مثيرا، ولكنه كان كافيا ليثير حبه ورغبته في اكتشاف ما كان يراه، لدرجة أن قام من مكانه وبدأ يتجول كانه في متحف قديم.

حائط ناصع البياض، عليه مجموعة من الصور التي تبين الوضعيات المختلفة للمتادور، كأنه يراقص الثور الهائج. كان يراها ويسمع

الموسيقى التي تسبق المصارعة في احتفالية كبيرة. قلبه ممتلئ بها. سمعها في المدن العالمية التي عبرها، إشبيليا وغرناطة، ومكسيكو، ومدريد، وكولمبيا وآرل، وكوريدا طنجة الصغير التي قام فيها بعمل استعراضي مع ثور صغير مع الأطفال لترقية هذه الرياضة.

فجأة أثارت انتباهه صورة أخرى في الزاوية الخلفية من المكتب. ليتوغرافيا[1]. كانت تبدو أشكالها غير واضحة وألوانها باهتة. اقترب منها أكثر. سفينة كبيرة من النوع الذي كان يصنعه الإيطاليون، كتب على جنباتها بالحرف اللاتيني: ESILIO[2]، وبحرف صغير تحتها exilio[3] تنزل منها أعداد هائلة من البشر، من كل الأعمار. الصورة نفسها ولكنها كانت باهتة، في مقهى المارشي، المحاذي للكوريدا.

اقتربت منها مارتا.

- يقول فاكوندو إنها للأندلسيين المهجرين من ألميريا نحو وهران.

- أقول دوما كلما رأيتها ربما كان جدي الأول من بين هذه الوجوه المتدافعة، ذات الملامح المهزومة والمنكسرة.

- المنافي صعبة لكن الزمن كفيل بمحو كل شيء.

- تعتقدين مادري مارتا؟

- أظن عزيزي. أتركك تتأمل الصور، وأذهب لأسرقه من البيطري. لأنه إذا تركته على هواه لن يأتي.

- موتشاس غراثياس، مادري[4]. شيء قاس أن تسرق منك أرضك التي كبرت فيها، كيفما كانت الأسباب الخبيثة.

---

1. Lithographie.
2. كلمة إيطالية تعني المنفى.
3. كلمة إسبانية تعني المنفى.
4. شكرا جزيلا يا أمي Muchas gracias.

– أنا أيضا مثلك، لكن يبدو أننا في النهاية نتبنى الأرض التي نكبر فيها والتي ندفن فيها موتانا. أمي تعرف أن أصولنا بلنسية، لكنها ليست معنية كثيرا بالتاريخ. حياتها في وهران وهي مدينتها، ما عداها هي نوستالجية قاسية تشل الإنسان في النهاية ولا يعيش الحياة التي عليه أن يعيشها.

– كلامك صحيح تماما ويستقيم جيدا في النهاية.

ثم التفت نحو صورة أخرى، شعر كأنها في غير مكانها. متادور واقف يتأمل المشهد وسيفه في يده، كأنه فشل في غرس شفرة السيف في رقبة الثور، وعربة مكونة من ثلاثة أحصنة تجر الثور الذي يكون قد نُحر خارج الحلبة حتى يخفف من عذابه بعد عملية ديسكابيلو[1] بواسطة سكين فيردوغو[2] التي تدمر مخيخ الثور. شعر بأن الصورة تعطي مفعولا سيئا. تجسد اللحظة الأسوأ التي يتحول فيها المتادور إلى قاتل بالمجان. مجرم بلا عقاب. وهي التي تبقى في ذهنية المصارع.

« – صورة قاسية قليلا لأن المرحلة اللاحقة هي أن هذا الثور سينتهي على موائد الوهرانيين.»

قال مدير مدرسة تدريب مصارعة الثيران، فاكندو إلمانكو، الذي فاجأ خوسي في لحظة تأمله الحزينة.

– ليعرف الناس أنها لعبة ليست سهلة فيها دوما شخص يضع حياته رهانا محفوفا بأقدار الموت، يسعد فيه الجمهور، لكنه قد يحزن من يحب أيضا. وأنت سيد العارفين.

– قائمة الضحايا كبيرة وطويلة جدا حيث ترك المتادور حياته. جيد أن الجمهور ينسى بسرعة وإلا لن يأتي أحد، ومن يأتي لن يستمتع.

– لهذا حلبات الكوريدا تفرخ في كل مكان بالخصوص في العالم الإسباني. على كل مرحبا بك عزيزي خوسي. ليس من أجل هذا دعوتك.

1. Descabello.
2. Verdugo.

- سعيد بدعوتك.

- أولا لأشكرك كثيرا على جهودك للحفاظ على الميراث بدعوة أناس كثر للمنازلة في حلبات وهران. أنطونيو أحسن من يجسد اليوم بهاء هذه الرياضة. مدرستنا فتية جدا وهي تحتفي بسنتها الأولى منذ تدشين الكوريدا للمرة الثانية في 13مارس 1954 استعراض دومنغو ورفايل إورتيغا، ودماسو غوميز، الذين واجهوا الثيران: مانولو وغونثالو ومارتين. ثم جاء عرضك المدهش في 7 نوفمبر. لتصبح حلبات وهران واحدة من محطات هذه الرياضة. ثم سند أنطونيو الذي كان علامة هذه السنة المهمة. والجميع ينتظرك أيضا في نوفمبر القادم. ونريد أن نحافظ على ثقافة هذا المكان ونستعيد تاريخه الذي سرق منه عندما حول إلى مخزن للحلفاء الذي كان صناع الورق في أمس الحاجة له. وقتلت نهائيا هذه الرياضة لولا جهود پول باريير وإعادة تأهيله للكوريدا، وتوسيع مساحة الجماهير، التي أصبحت 13 ألف، وأصبح يوازي مدرج مدينة آرل. نحن نطلب مساعدتك في أشياء كثيرة. منها رعاية هذه المدرسة التي كانت مجرد حلم وها هي تتحول إلى حقيقة. لا نريد أن تظل متعاونا فقط، ولكن أكثر من ذلك.

- الافتتاح كان رائعا في السنة الماضية وأعاد العلاقة بين أنصار اللعبة ومدينتهم. واستعراض داماسو غوميز كان مذهلا. كان الثور مانولو معاندا بقوة ولم يستسلم إلا بصعوبة مما زاد حماس الجمهور. الناس لا ينسون ذلك 13 مارس عندما أعادوا ربط هذه العلاقة مع ممارسة رياضية متوغلة في التاريخ الإسباني.

- جزء كبير من ساكنة هذه المدينة، أكثر من خمسين بالمائة، هم إسبان، أو من أصول أندلسية. أغلبهم من ألميريا أليكانت وبلنسيا، ثم موجات غرناطة وأخيرا الفارين من نار فرانكو. فلا غرابة أن يحبوا هذه الرياضة. لهذا نحن ننتظر منك الكثير. نعرف أنك لا تقصر، ولولاك ما حصلنا على شخصية مثل أنطونيو. المدرجات كلها كانت مليئة كما

رأيت، الرجل قيمة كبيرة. أعادت هذه الرياضة، اللحمة إلى وهران.

– الرياضة سلاح كبير لأنسنة الإنسان. ولتقريب الناس من بعضهم. لا خصام في الكوريدا، مثل كرة القدم البائسة. الناس يأتون حبا في المنازلة وفي المتادور. لا منافسة إلا بين الثور وغريمه.

– الكثير من الأغبياء يطالبون بتوقيفها من جديد رحمة بالثيران التي يصعقونها أو يذبحونها ويستمتعون بلحمها. نفاق لا يطاق. ينسون كليا أنها ميراثنا العريق على هذه الأرض. بأفولها لا تذهب فقط فكرة مصارعة الثيران، ولكن الرقص، والألبسة، وموسيقى باسو دوبلي. ووهران ليست خلاسية وعظيمة إلا بهذا. مدير الحلبات الوهرانية، بول باريير كان يعرف جيدا سر مقاومته لهذا الموت المبرمج. لهذا أنقذ هذه الحلبات الجديدة، وأعطاها حياة أخرى. ثم فكر فيك، هو وفاكوندو. قال أريد ابن وهران لهذه الرياضة. ركض نحوك حتى إشبيليا حيث كنت تتدرب، وتعمل. وجاء بك ليكتشف سكان وهران أن لهم رجلا يحبونه. كانت مقابلة 7 نوفمبر 1954 وعلى الرغم من تهديدات الإرهابيين بنسف الكوريدا في منشور وزعوه سريا، عند البوابات، وقلت يومها: **من أراد أن يقتلنا فنحن هنا، لا نملك إلا أجسادنا.** تلك جملتك التي رفعها جمهورك عاليا. وانتهى كل شيء كما خطط له بول باريير، وعاد الابن لأهله، ومدينته هههه

– لم أكن أفكر يومها إلا إلى ما يمكن أن يسعد سكان هذه المدينة. لا نريد لها أن تسقط في كماشة القتلة الذين لا ضمير لهم. وهران حية ولا يمكنها إلا أن تكون كذلك.

– لهذا أنا شاكر لك بنجاح منازلة أنطونيو التي أعادت الحياة من جديد إلى حلبات وهران. وكان يجب أن اشكرك بكل قوة. طبعا سأراك في التدريبات بعد قليل. هذه أرضنا، وهذه ثقافتنا أيضا. نحن أيضا فرنسيون ولنا الحق فيما لكل مواطني هذه الأرض.

حق طبيعي. كبرنا هنا، ومات أجدادنا هنا.

ربما لا تحس بهذا. لكن الكثير من الفرنسيين من ذوي الأصول الإسبانية، هم على يقين من أنهم فرنسيون من درجة ثانية. الإنسان عندما يرفض يعود إلى هوياته الأولى.

- أكيد عزيزي. كل الشكر لك.

- المهم احذر مادري مارتا. فهي تحبك ويمكن أن تسرقك من حبيباتك الجميلات. عندما تحب شخصا تملكه، وتغار عليه هههه

- هههه مادري مارتا. ما أجمل قلبها الطفولي.

- نعم. طفلة، لم تكبر إلا قليلا. ملتزمة بكل ما يربطها بوهران.

- بما في ذلك خوسي أورانو.

- هههه.

- احذر. ها هي قد عادت. لا تتركها تأكلك كليا وتضيع علينا تدريبات الأطفال. لن تطلق سراحك اليوم. تتحدث في غيابك بالكثير من الإعجاب لكنها حزينة جدا على أنطونيو دي غاليسيا لا لأنه جرح، ولكن لأنه فقد جهازه التناسلي، وسيضعه هذا في وضعية غير مريحة مع زوجته.

- شرحت لها بالتفصيل أنه بخير من هذا الناحية.

- لن تصدق إلا ما يرضيها. على كل حال عينها عليك. الله يعينك يا عزيزي. أخرج أنا قبل أن تصل، عندي سلسلة مواعيد. أراك مع الأطفال في الحلبة بعد قليل.

- أوكي. اتفقنا.

9

في عمق المارشي المكتظ بالغادي والرائح، ارتفع صوت السيدة مخترقا هدوء الناس ونعومة حركة السوق.

– Au secours... au secours... أنقذوني. سرقني الغجر. المتوحشون سرقوا حقيبتي اليدوية وكل نقودي... يبدو لا رجال في المدينة إلا المسوخ. أعرفهم... سأفضحكم أمام الشرطة.

ترددت صرخات السيدة التي كانت تجر كلبا عجوزا، وتكاد تجن، ولا تصدق كيف تخلى عنها الكل بما في ذلك، بوبي، كلبها. التفتت نحوه، وهي تكاد لا تصدق ما حدث لها.

- وأنت يا بوبي، تصلح لأي شيء؟ كان يفترض أن أتركك تموت أيها الكلب الحقير والعجوز. لحظة سرقوني أنت رحت تبول. كلب ابن كلب صح. لماذا لم تهجم عليهم؟

رفع الكثيرون رؤوسهم بحثا عن مصدر الصوت.

صرخت ثانية، السيدة النحيفة التي كانت تحمل حقيبة يدوية أنيقة، بجلد ثعبان، وعلى عينيها نظارتان شمسيتان.

ثم أشرت بإصبعها نحو أنجلينا، وعازف القيثارة ميغيل سانتوس دي كاميرا، الذي كان يرافقها في الغناء، في مقهى المارشي المفتوح على حركة البشر.

- سرقتني هذه الكلبة. هي من كان يتبعني، حتى إنها رفست كلبي ودوخته. منذ البداية أحسست أن أمرها غير طبيعي. وأنها ليست مغنية، ولكنها سارقة حقيرة.

تساءلت أنجلينا أموندين وهي تتفرس في سحنة السيدة النحيفة التي بدت لها مثل قطة، باتت تحت الأمطار طوال الليل.

– أنا؟ متأكدة؟ كنت في المقهى أغني، فكيف أسرقك؟ أعتقد أنك مجنونة قليلا. بعيدة عنك، يدي ليس فيها عشرون مترا؟

– أنت. ستقضين الليلة في السجن.

تقدمت منها أنجلينا بعد أن نزعت يد العازف من على كفها إذ حاول تهدئتها ومنعها من التلاسن مع السيدة، بالخصوص عندما رأى الشرطي فانسون يتقدم نحوهم بعصاه البيضاء.

– أنا سرقتك؟ متى؟

تسأءلت أنجلينا مرة أخرى، بحدة، وهي تحاول كتم غضبها. احمر وجهها حتى غطى على شقرة بشرتها.

– نعم. الآن. قبل دقائق. عندما أردت أن أدفع، لم أجد حقيبتي. من يسرقني غير هؤلاء الغجر الذين أفسدوا المدينة.

– أنت تظلمينني يا سيدة، ولا رغبة لي اليوم في الحرب، متعبة جدا. وكنت أريد أن أدخل إلى بيتي، بلا معارك. والدي مريض ولا أريد أن اخسر وقتي مع المجانين.

لكن السيدة دفعتها بعنف، حتى كادت أنجلينا تسقط على فمها.

– لن تذهبي هكذا. أقسم. إذا ما اعدتِ لي نقودي، سأبهدلك أمام الشرطي. وتبيتين في زنزانة تناسب حقاراتك.

مرة أخرى حاول العازف أن يوقف أنجلينا، لكنها دفعته، فترنح حتى كاد يسقط قبل أن يجد توازنه الذي كان قد فقده.

– خلص. الآن يا أنا يا أنت. فتشيني وإلا أذبحك أمام الناس.

– يفتشك الشرطي. لن أوسخ يدي بغجرية سراقة.

أحمرت عينا أنجلينا حتى بدا كأنهما ستنفجران. كانت كأنها نمرة تستعد لخوض حرب الحياة الأخيرة.

- لن يلمسني رجل غير زوجي أو من أحب. نحن الغجر نحب لكن لا نسلم أجسادنا بسهولة لأول عابر. أحرار نحن، يا قطة المجاري والمزابل، لكننا نقبل الموت على الشرف. إذن فتشيني. أمر.

- غجر، وأجسادكم رخيصة.

نظرت أنجلينا إلى عازف القيثارة، طلبت منه أن يعزف بالبانجو، نغما أندلسيا. دارت في مكانها. ضحك الناس الذين كانوا يتحلقون حولها. شعروا بأن المسألة تتعلق بمسرحية من مسرحيات السوق التي كثيرا ما يكون وراءها الغجر لكسب بعض المال.

نظرت السيدة النحيفة إلى الشرطي. لم يتدخل في عملية التفتيش.

- ماذا تفعل هنا إذن؟ تتفرج كما هؤلاء الأوغاد.

ضحك الناس الذين اتسعت أحداقهم ودائرتهم.

تصاعد حنين البانجو.

- لا دخل للشرطة هنا. يا أنا أو أنت؟ فتشيني، وإلا سأذبحك الآن وأمام جميع البشر. تراجعك لم يعد ممكنا.

عندما همت بإخراج سكينها من جواربها قفز ميغيل سانتوس، عازف البانجو نحوها، ومد يده إليها.

- أرجوك أنجلينا. لا تكوني حمقاء. ما فينا يكفينا. هل تريدين أن تقضي بقية عمرك في السجن؟ وخوسي؟

كأنه شلها بكلمة خوسي. سكنت قليلا.

- يجب أن تدفع الثمن.

تعالت الضحكات عاليا مصحوبة بنقرات البانجو التي عادت إلى اتزان إيقاعاتها المعتاد. التفتت أنجلينا نحو العازف:

- حبيبي ميغيل سانتوس، عزفك رخو قليلا.

- سيقوى في لحظة الذروة. سأشد على الخيطان.

قال الشيخ الذي اتكأ على عصاه وبدأ يستلذ بالمشهد برفقة زوجته المسنة التي انعكف ظهرها إلى الأمام.

- ها هي أنجلينا تقترح علينا مسرحية من مسرحياتها المجنونة، ونكاد نصدق أن ما يحدث أمام أعيننا، حقيقي بالفعل.

التفتت أنجلينا نحو المرأة من جديد:

- فتشيني.

- أجساد الغجر مريضة، وبها رائحة كريهة.

قبضت أنجلينا المرأة من رقبتها فبدت بين يديها كقطة مرتجفة من شدة الخوف. بينما كان الناس يصفقون على المشهد. اتسعت الدائرة بسرعة. بدأ الحاضرون يتكاثرون، ويتضاحكون ويرمون النقود على الفوطة التي بسطتها أنجلينا على الأرض. كأنهم يرون مسرحية على الهواء الطلق كما تعودت أنجلينا أن تفعل.

- مجنونة أنجلينا. مقلب من مقالبها. المرأة النحيفة جزء من اللعبة، قال أحد الحاضرين.

- فتشيني. يا وسخة. لا تختلف رائحتك عن رائحة النازيين. ألم نكن آريين من أصول هندية؟ ومع ذلك ذبحونا. فعلوا ما تفعلينه الآن معي. اعتبرونا جنسا منحطا لأننا اختلطنا كثيرا مع غيرنا من الأقوام. آريون فاسدون. لهذا كان مصيرنا في النهاية المحتشدات الجهنمية. وحولونا إلى فئران تجربة لغازات الموت التي أبادتنا بشكل شبه كلي. طبعا لا تعرفين هذا، لأن كتبك المدرسية لا تتحدث عن هذه الإبادة الجماعية. بل لم تزعج محاكمات نورومبرغ نفسها بإدراج إبادة الغجر في حديثنا. لم

يلتفتوا نحونا. لم نكن موجودين مطلقا. لم يكن أحد يرانا سوى النازية، وأنت اليوم؟ فتشيني وإلا لن اتردد في ذبحك، أيتها الجيفة.

مدت المرأة النحيفة يدها بعد أن احمر وجهها كليا. وشرعت في تفتيش أنجلينا.

في البداية أفرغت السيدة النحيفة السلة التي لم يكن بها أي شيء باستثناء البطاطا والبصل والطماطم، والقرنون والخرشف، وقرنين من الفلفل الأحمر الحاد، وبطيخة صفراء، وأربع برتقالات، وعرجون من التمر، وقليل من لحم البقر. ثم أفرغت حقيبتها اليدوية عن آخرها. لم تجد ما كانت تبحث عنه، إلا أحمر الشفاه، وعلبة ماكياج. والكحل، وعلبة قطن تستعمل للجراح العادية والعادة الشهرية، والدواء الأحمر الميركيروكروم، وقطعة صابون لوكس.

- هل وجدت شيئا؟

- لا. حتى الآن.

ثم التفتت السيدة نحو الأغراض المبعثرة.

- أريد أن أفتش ألبستك الفضفاضة؟

تضاحك الناس عاليا. رموا المزيد من النقود على منديل أنجلينا الأحمر الذي كان يبدو كمولينا.

خفتت عدوانية السيدة النحيفة. كان جسد أنجلينا مثل نخلة طويلة. بدأت تفتيشها في كل مكان في جسدها، حتى الأماكن الحميمية تحسستها. أدخلت يديها عميقا. لامست نهديها، تحت سرتها، مؤخرتها وظهرها.

أنجلينا مستسلمة لها بدون أية ردة فعل، وتنظر في الوقت نفسه إلى الشرطي فانسون، الواقف بصمت، يلعب بهراوته البيضاء ويضحك من حين لآخر للمشهد ويتمتم في أذن أحد الحضور:

- لولا معرفتي بأنجلينا أموندين لقلت إنها الحقيقة.

ثم طلبت السيدة النحيفة من أنجلينا أن تنزع حذاءها، فنزعته. حينما انتهت، سألتها. أنجلينا.

- هل وجدتِ شيئا؟

- لا. أعتذر. أنت كنتِ ورائي.

- متأكدة من أنه لا يوجد شيء؟

- لا أبدا. شككت فيك. عندما نلتفت ونجد وراءنا غجريا لا بد أن يكون هو السارق أو المعتدي.

- طيب. تكررينها أيضا.

أشرت لعازف البانجو أن يزيد من حدية الإيقاع. ثم التفتت نحو الطفل عمر الذي كان يضع على رأسه شاشية ملونة. لعمر قصة يعرفها كل أهل السوق. أبوه ذهب إلى مارسيليا ولم يعد. يقال إنه تزوج بامرأة أخرى. أمه ماتت في تفجير سوق غارغينتا الأخير. كانت الوحيدة التي ماتت وكأن القدر لا يختار من ضحاياه إلا الأكثر بؤسا.

- عمر. حبيبي اجمع النقود. خذها. حلال عليك. القصة ما تزال طويلة لمن أراد أن يتابع نهاية الباخية. يا الله، سخنوا جيوبكم.

نزع عمر قبعته الملونة. وبدأ يجمع النقود من ايدي الناس، ثم أفرغ محتويات المنديل في القبعة. واستمر في الدوران على الحاضرين الذين كانوا يصفقون انتشاء.

صفق رجل وهو ينظر إلى صديقة منزوع الأسنان

- واش قلت لك يا الفرماش. فصل من فصول أنجلينا أموندين. مجنونة. تعرف كيف تقنع جمهورها بأدائها الجميل.

- والله ظننت المسألة جدية وحقيقية في البداية.

التفتت أنجلينا نحو جمهور الحاضرين.

- لم تروا شيئا بعد.

ثم استدارت بسرعة نحو المرأة النحيفة. نظرت إلى عينيها طويلا.

- ما اسمك؟

- ماري مادلين.

- يعني قحبة محترفة.

ضحك الجمهور طويلا.

- لا. ماري مادلين التي أنقذها سيدنا المسيح له المجد، كانت غير، وتابت على يده. أنت ستتوبين على يدي. كيف تجرأت واتهمتني بالسرقة وأنت لم تري مني شيئا؟

- لأنك كنتِ ورائي.

- لأنك ترين بعين واحدة. بثقب مؤخرتك. الآن جمّعي الخضر قبل أن أدخلها كلها في طيزك واحدة واحدة.

تضاحك جمهور السوق الذي وسّع الدائرة.

نظرت المرأة النحيفة بتحسر إلى البرتقال، والبطيخة الكبيرة. ثم التفتت نحو عرجون التمور الذي بدا لها ممتلئا.

- رتبي كل شيء كما كان في الحقيبة اليدوية بسرعة.

كان فانسون الشرطي يضحك عاليا، بينما السيدة النحيفة تحاول أن تصرخ في وجهه.

اقترب منها كلبها العجوز، فبال بالقرب منها.

بدأت ترتب الأشياء قطعة قطعة، ومن حين لآخر تنبهها أنجلينا:

- لا. هذه كانت من تحت مش من فوق. وهذه من فوق. انزعيها وضعيها تحت... في مكانها بالضبط. بينما كان الناس يتضاحكون بعد أن استلذوا بالمشهد الذي طال.

سحبت أنجلينا كرسي المقهى المجاور، واستراحت عليه. ثم مدت رجليها كمن خرج من معركة أنهكته كليا.

- الآن، ألبسيني حذائي.

- لن أفعل، لست خادمتك.

- وتحلي فمك؟ وهل أنا قحبتك حتى تفتشيني بتلك الطريقة المهينة؟ لم يبق لك إلا أن تدخلي إصبعك الوسخ في لتتأكدي من أنني لا أخفي شيئا.

عندما انتهت، قامت أنجلينا من مكانها. اقتربت منها أكثر. نزعت لها نظارتها السوداء، وبكل قواها صفعت ماري مادلين حتى أسقطتها أرضا.

- أيتها الحقيرة. يد واحدة لا تصفق، لكنها تصفع.

حاولت ماري مادلين أن تقوم. تدحرجت للحظات ثم استقامت قليلا. صفعتها أنجلينا مرة أخرى، على الخد الثاني، فعمت للحظات ولم تعد ترى شيئا.

انسل فانسون من بين الجمهور وهو يضحك.

سأله أحد الواقفين.

- تضحك يا فانسون؟ لماذا لم تتدخل؟

- مجرد مسرحية. سأعقد الوضع كثيرا. للغجر قوانينهم الخاصة وضوابطهم. لا تعرف متى يعيشون حقيقة ومتى يمثلون. بعد قليل تصبحان صديقتين، لا تخف عليهما.

ابتعد فانسون حتى غاب وراء بناية الحلبات الضخمة، حيث ملتقى الطرقات، ومحطة البنزين بيريل، الملتصقة بحائط الحلبات.

نظفت أنجلينا النظارة، ثم وضعتها على عيني ماري مادلين.

- يجب تنظيف النظارات من حين لآخر حتى تكون رؤيتك أدق. أنتظر أن تلبسيني حذائي.

انحنت ماري مادلين على ركبتيها. أخذت رجل أنجلينا. وضعتها في حجرها. أعلت الفستان العريض قليلا على مستوى القدم والساق. فجأة اصفر وجه مادلين. لمع تحت الشمس البيضاء الحادة، جزء من السكين النائم على الجزء السفلي من رجلها.

ألبستها فردة حذائها الأولى ثم الثانية.

- الآن علي أن أفتشك كما فتشتني.

- لكني لم أسرق شيئا؟

- وهل وجدتِ عندي شيئا مسروقا؟

- لا. أبدا.

- دعيني إذن أتأكد منك.

ثم أدخلت أنجلينا يدها في صدر ماري مادلين، وضغطت على نهديها حتى تألمت. ثم نزلت بيدها اليمنى بين فخذيها وعقفت إبهامها. تأوهت المرأة ألما وهي تحاول أن تتفادى بقية أصابعها. احمر وجهها.

- لا يوجد شيء مغري إلا العظام.

ضحك الجمهور عاليا وبدا كأن أنجلينا تلعب ألعابها الساخرة.

عزف صاحب البانجو مقطوعة سريعة.

- هل أحسست بشيء؟

- نعم بألم، بسبب إصبعك وظفرك.

- لم تقولي لي ماذا بقي عليك أن تفعلي؟

- أعتذر منك.

- في المرة القادمة التفتي جيدا قبل أن تتهمي الغجر. لسنا سراقا. ناس يحبون الحياة، ولا يعتدون على أحد، لكنهم لا يقبلون الذل أبدا. كان ممكنا أن أذبحك أمام الناس، وأمد يدي لفانسون ليأخذني إلى الحبس،

لكنني لم أفعل لأني أحب الحياة، ولا أريد أن أنهيها في السجن بسبب غبية عنصرية، رخيصة.

ثم سحبت السكينة، ووضعتها عند حدود حنجرتها. صرخ ميغيل:

- لا يا مجنونة لا تدخلي السجن من أجل واحدة عنصرية. كلبها أفضل منها. ينظر لها باحتقار.

فجأة بدأ البول يرتسم على لباس ماري مادلين، ورائحته الحادة تتصاعد عاليا، حتى أن هناك من الناس من وضع منديلا على أنفه.

- أعتذر يا سيدتي، أرجوك لا تذبحيني، فأنا أم لأربعة.
- وأنا ليس لدي ما أخسره. لا دار لا دوار. يمكنك أن تخرجي من هنا، ليس هذا مكانك.

عزف ميغيل سانتوس، مقطوعة الوداع الحزينة تحت تصفيقات الحضور الذي ظل مقتنعا أنه كان يعيش مسرحية قريبة من الحياة.

- طيري من هنا قبل أن أغير رأيي وأذبحك.
- أمرك سيدتي. اعتذر مرة أخرى.

مشت السيدة قليلا حتى غادرت الدائرة البشرية المكتظة حولها. بينما كان الحضور يتسابقون لوضع النقود في الشاشية الملونة لعمر الصغير الذي لم يتعب من الدوران.

اتجهت ماري مادلين صوب الشرطي فانسون الذي كان منهمكا في حركة السيارات. لم يُسمع إلاّ صوتها وهي تصرخ.

- لماذا لم تفعل شيئا من أجلي؟ كأنك متواطئ مع هذه العصابة من الشريرين.

- ماذا أفعل معك ومع تلك المجنونة؟ كنت أعرف أنها مجرد لعبة لتجميع المزيد من النقود. أنتم الغجر لكم قوانينكم وجنونكم. ابتعدي، عندي عمل الآن.

- لكني فرنسية. لست منهم. لست غجرية.

- من الأول عرفت أنها مجرد مسرحية تختلقها أنجلينا خلقا. وفرقتكم خطيرة، لأنها تدخل في أعماق الناس. برافو. الأداء كان مدهشا ورائعا. إذا لم تكوني غجرية فأنت بكل تأكيد غادجو.

- قلت لك لست غجرية، ولا أحب هذه العرق المنحط. فرنسية أبا عن جد أنا. ألا تسمع. راح تجنني. ف ر ن س ي ة حرة. من البيريغور. هل تعرف البريغور والرجال العظام الذين نزلوا من رحمه؟ كل قادة فرنسا وقادتها الكبار، جاؤوا من البريغور.

- من الأحسن أن تتمّي المسرحية في المارشي، وليس هنا. حركة المرور قوية وأخشى أن تؤذيك سيارة.

- يا رجل ألم تقتنع بعد أنه لا علاقة لي بهم، وأنها أهانتني؟

- في هذه الحالة، يمكنك أن تقدمي شكوى ضدها في مركز الشرطة. ليس بعيدا من هنا. اذهبي مباشرة في شارع لياج الرئيسي، ثم ميلي يمينا. تجدين المركز، احكي لهم عن كل شيء.

- وأنت ماذا تفعل هنا، في هذا المكان، واقف مثل الصنم، تشم رائحة البنزين من المحطة المقابلة لك. تحرك. فأنا مظلومة.

رفع الشرطي عصاه البيضاء.

- تريد أن تضربني.

- لا يكفيك بهدلة الغجرية. أنا أؤشر للسيارات لكي تمر فقط.

لا علاقة للعصا بك.

تروحي مباشرة، على طول شارع لياج حتى تصلي إلى المركز، وهناك اعرضي عليهم تفاصيل المسرحية، يا سيدة البيريغور العظيمة. أنا لست معنيا بمسرحيتكم.

لم تستطع أن تخفي غضبها الحانق.

- Merde.

ضحك فانسون وهو يدفن رأسه بين كتفيه، ويدعو بعصاه البيضاء، سيارات البيجو 203، تراكسيون، أروند إليزي، وجوفا كات[1]، المتوقفة والتي أغلقت الطريق، أن تتحرك.

- يبدو أن المسرحية ما تزال مستمرة.

انتفضت ماري مادلين في مكانها، ثم واصلت طريقها نحو المركز وهي غير مصدقة ما حدث لها من إهانة.

1. Peugeot 203, Traction, Aronde Elysée, Juva Quatre.

10

شيء في وهران، يستعصي على الموت.

«وهران أجمل مدينة في العالم» كيف عرف السر وامتلكه ليصل في النهاية إلى هذه الجملة التي يحفظها الوهرانيون جيدا. لم تكن صرخة الكاردينال فرانشيسكو خمنيث سيسنيروس، في حملة 17 مايو 1509 عبثا وهو يضم وهران لتاج الملوك الكاثوليك. كان يعرف سر المدينة حتى قبل أن يعبر دروبها وكنائسها ومساجدها ليقرر أين يبني كنيسته الأولى في وهران. أول شيء قام به أنه بنى على أنقاض مسجد ابن البيطار كنيسة سان لويس التي تطل على المدينة من الأعالي. كان يريد أن يقول لوهران أنا مالكك الجديد وأني هنا. هنا في عمق أنفاسك الروحية.

فجأة تحول مسجد ابن البيطار إلى حفنة غبار.

ضحك سيسنبيروس وهو ينظر إلى وهران من رأس الجبل.

« – آن لك أن تنصاعي. مدينة وقفت ضد كل الرياح، بما في ذلك رياح الله. رياحي العاتية الساخنة، لا أحد يستطيع مواجهتها دون أن ترميه في جهنم».

كان خوسي أورانو يمشي تحت مطر أصفر. لأول مرة يرى أن في الدنيا مطرا أصفر. ربما كان ذلك بسبب الأشعة الصفراء التي انكسرت على الوجوه والبنايات ودائرة الكوريدا حيث ارتسمت غيمة الليل الأولى مغطية جزءا من محيط الكوريدا؟

خرج خوسي أورانو منهكا من التدريبات ومتعبا. فقد درب الصغار في الميدان على عجل صغير. كانت حصة ألعاب أكثر منها تدريبا بالمعنى الدقيق. كلهم أحبوا العجل. حتى إن طفلا صغيرا قال لخوسي إنه سيطلب من والده أن يشتري له عجلا أبيض مثل الذي كانوا يتدربون عليه.

كانت غيمة الليل قد ارتسمت.

مر أورانو على المارشي الذي كان ما يزال مكتظا بالناس. اشترى خضرا وفواكه. ثم مر على اللحام الذي رفع يديه فحياه. واصل بعدها عبوره. يعرف جيدا اللحام أن خوسي لا يأكل اللحم بتاتا. لا يدري لماذا أصبح نباتيا منذ أن دخل هذه اللعبة. مخافة أن يجد الثور الذي قتله على مائدته؟ جملته التي يكررها دائما. من حين لآخر يحيي بعض المارة الذين اعترض بعضهم طريقه للتوقيع على ورقة، أو قطعة قماش حمراء. بعضهم يحييه ويقبل يده اليمنى أنه أعاد الحياة إلى مدرجات الكوريدا، وأنهم ينتظرون موعد مقابلته المبرمجة في نهاية السنة بفارغ الصبر. يقولون له نفس الجملة.

« - سنكون خوسي أورانو معك، وسنحملك على ظهورنا.»

يضحك، ثم يواصل طريقه.

منذ أن استجاب لطلب صديقه فاكوندو، وسكن الحي، في البناية الصغيرة الملتصقة بالكوريدا، ليكون قريبا من عمله التدريبي، والناس يغمرونه بحبهم. في كل زاوية يجد دوما من يوقفه قليلا لتوقيع شيء أو تلقي نقد حول رياضة مصارعة الثيران نفسها. يشعر بالتعب، لكنه بمجرد أن ينزل إلى بيته البحري في لاكاليرا، ليقضي الويكند الطويل، من مساء يوم الجمعة حتى الاثنين، ينسى كل متاعب الأسبوع ويتشوق إلى الرجوع إلى الكوريدا.

طيبة خوسي أورانو الكبيرة تجعله لا يستطيع تفادي هذا الطريق المكتظ الذي يؤدي مباشرة إلى مقهى ساحة الثيران le café des arènes.

مشى قليلا حتى قارب المقهى، فأوقفه رجل سبعيني في العمر، نشيط في حركاته.

- أنت لا تعرفني سيد خوسي أورانو، لكني أعرفك وفخور بك جدا. سعداء بك يا ابن وهران. الناس في المارشي يحكون عنك بفخر كبير حقيقي.

- شكرا سيدي على محبتك.

رد أورانو بخجل كبير، وهو يتأمل عيني الرجل الحادتين كعيني طير حر. النسر، وشاربيه الكثين كشاربي انكشاري عثماني.

- يبدو أنك الوهراني الوحيد الذي امتهن هذه المهنة القاسية.

- لا أعرف بدقة، ولكني أظن. العيب في أجدادي الأندلسيين. أهلي أبناء هذه الأرض. لم نقطع أبدا مع إرثنا. على أي ولدت هنا، وكبرت هنا، ومدافني هنا كما تقول مادري مارتا.

- أعرف. مادري مارتا امرأة طيبة. تحكي كثيرا لكن قلبها أبيض. هي أم الكوريدا، لقد عايشت فترات صعودها وانهيارها.

- تعرف كل هذا؟ جميل.

- أنا لست بعيدا عن هذه المهنة.

وقبل أن يتساءل خوسي أورانو أكثر، سبقه الرجل إلى الكلام:

- هل أنت راض عن متعتك الدموية.

ارتبك خوسي من كلمتي متعة دموية. لكنه أجابه وهو يريد في أعماقه أن يتنصل منه بأسرع ما يمكن. جملة الرجل أبعدته عنه بسرعة، بل رمته في قارة أخرى لم يكن خوسي مستعدا لسماعها. الناس يحكمون على شيء من بعيد، ويسعدون به في الوقت نفسه.

« - ازدواجية مقيتة في العقلية»

تمتم خوسي في خاطره دون أن يرد على الرجل السبعيني.

– لا توجد المتعة الدموية يا سيدي. العرس عندنا، في ثقافتنا الأندلسية والإسبانية يختم بالدم. قد لا تعني لك خرقة دم العروس في ليلة الدخلة، الشيء الكثير، لكنها في معتقد أجدادي الأندلسيين تعني سرا خاصا. تعني أن هذا الجسد يمنح لعاشق واحد ووحيد. وأن لا يد عنفته أو لمسته. وأنه قضى عمرا ينتظر فارسا يعرف سر هذا الجسد. الجسد يا سيدي كون مقفل، القليل من يتوصلوا إلى تفكيك سره. يعيش الرجل مع زوجته أو حبيبته، سنوات وهو يكرر نفس الفعل دون أن يدرك أنه يمر بمحاذاة الحب. قصة طويلة يا سيدي، يمكننا أن نفصل فيها يوما ما.

– وأنا متفق معك كليا.

فكر خوسي أن يتخطاه ويتخلص منه، لكنه لم يستطع. لم تكن في حديث الرجل أية نبرة عدوانية. نظر الرجل إليه طويلا، ثم مد يده إلى ظهره، يربت على كتفيه.

فاجأه من حيث لا ينتظر.

– معك حق. أنا يا عزيزي خوسي أكثر من يقدرك، حتى ولو اختلفنا حول رياضة مصارعة الثيران. اشتغلت في حلبات كثيرة، ومنها هذه الكوريدا العظيمة. كنت محضّرا لثيران الكوريدا قبل دخولها المعترك المصيري.

– يا إلهي، أنت أعرف بمآسيها إذن؟

– تراجيدية حقيقية. في ساحة فيها واحد يجب أن يموت ولا خيار له في ذلك، منذ لحظة اختياره للمعركة، وهو الثور عادة. ثور الكوريدا ميت مسبقا. في الثانية التي يدخل فيها على الحلبة. وآخر له حق الدفاع عن نفسه. التراجيديات تقول إن مصير الثاني يظل معلقا على المقابلة ومنتهاها.

- كلام خبير حقيقي.

- أكثر من هذا يا خوسي. هناك بعض الثيران، منذ بدء الاهتمام بقوتها وجبروتها، تفتعل المرض، تتمدد على الأرضية ولا تقوم. لا تأكل. بعضها يموت. حقيقي. رأيت ذلك في الكثير من المناسبات. ليس خوفا، فقط يشعر بأنه سيموت بعد لحظات من المقاومة الصعبة. حتى في لحظة انتصاره على خصمه، لا خيار أمامه إلا الموت. افتعال المرض هو شكل من أشكال رفض الدخول إلى معركة غير عادلة.

- لا أعرف. حقيقي لا أعرف. الثيران تموت كمدا؟ أول مرة أسمع هذا. عندما أكون باالكوريدا، أنسى كل شيء. ولا أرى أمامي إلا الضربة القاتلة. الإستوكادا، التي أنهي بها المنازلة. أصبح بعدها مباشرة خوسي أورانو، الكائن العادي الذي اختار أن يكون نباتيا في حياته، مخافة ألاّ يفاجأ ذات عشاء بلحم الثور الذي قتله على مائدة عشائه. لا أدري متى أظل أقاوم هذه الرغبة الداخلية في. عندي شيء يتخطاني ليس حبا في الدم، ولكن في تمثيلية كبيرة تراجيدية بين الخشونة والأناقة. داخل الكوريدا، المتادور شخص آخر مطلقا. قاتل، وفي الوقت نفسه راقص وفنان.

شعر الرجل السبعيني ببعض القلق الذي ارتسم في عينيه.

تأمل وجوه المارة للحظات، ثم التفت نحو أورانو.

- ومع ذلك يا عزيزي خوسي أورانو، كل الذين سألتهم عن هذه الرياضة التي أحبها ولكني أشعر بأنها ظالمة لطرف، على حساب آخر، أجابوا بعكس ما تقول. أشعر بأن كل ما سمعته منك صادق. قبل سنتين، حاولت أن أقترب منك في منازلة إشبيليا. كنت أنيقا وجميلا ومدهشا في كل شيء. وكانت الإستوكادا بارعة واحترافية، فقط لأقول لك نحن من نفس المدينة، من وهران، لكني لم أفلح. اشتغلت في كوريدا وهران فترة طويلة. وخرجت مريضا.

– كنت حابب أسألك عن الموضوع. أحتاج إلى قهوة الجزوة، التي تعودت عليها، لأسترجع توازني بعد التدريبات. قهوة قوية كان أجدادي الاندلسيون يستمتعون بها بعد يوم ثقيل من العمل في الحقول. سأكون سعيدا لو قاسمتني إياها.

– لا أطلب أكثر من ذلك عزيزي. عندي موعد مع ابنتي في المقهى المجاور. يمكنني أن أراها من هنا عندما تظهر مع مجموعتها.

– لا أحد يضيع في المارشي، على الرغم من فوضاه. روائحه تقودنا إلى أمكنتنا المطلوبة.

– أعرف أنها ستجدني. تعرف أني لن أكون إلا في النواحي. إلا إذا تعاركت مع شخص ما. دمها سخن جدا. على كل سأراها لأننا سنسمع غناءها من هنا. صوتها جميل وقوي، تحب الأسواق ولها جمهور مجنون على صوتها.

– مغنية؟

– مغنية أو لتقل مزاجية. مغنية وراقصة. سأعرفك عليها ولكن احذر إذا كانت لك زوجة راحت عليها؟ لما تحط بصرها على رجل تأخذه ولن يمنعها حتى زوجها. لكنها عشاقة ملالة. بسرعة تصاب بالضجر، فتنسحب، وعندما تقرر لا تلتفت وراءها.

– أسعد بها. قلت لي إنك اشتغلت في الكوريدا الخلفية كمحضر للثيران قبل دخولها إلى المعترك.

– نعم. ندربها على الموت القبلي، أي الدخول في حلبة الموت.

وقف القهوجي على رأسيهما. ثم انحنى بظهره عميقا وصينيته في يده ترتجف.

– حظنا كبير في هذا الصباح، متشرف بك سيد خوسي أورانو. نحبك ونشتاق حضورك في الكوريدا.

- اثنتان.

ثم التفت الرجل السبعيني نحو خوسي أورانو، وتنهد.

- نعم. تمنيت أن أحكي لك قصتي لأني أعتقد أنها تستحق أن يسمعها الجميع الذين امتهنوا هذه الرياضة.

ثم تنهد طويلا. أغمض عينيه. ثم رشف قهوته التي كان النادل قد وضعها بهدوء أمامه، ثم انسحب على رؤوس أصابعه.

- اشتغلت إذن في الكوريدا.

- قصة طويلة... ومؤلمة جدا عشتها بقلق كبير وخوف من أن أجن يوما. الأمر كان ثقيلا على رجل حساس يحب الحيوانات كثيرا.

- الأمر جاد إلى هذا الحد سينيور

- إيمليانو.

- إيمليانو زباطا؟

لم يستطع خوسي كتم ضحكته.

- من كثرة ما ألصق اسمه باسمي أصبحت أشبهه بشنباتي ومزاجي الثائر، وغضبي أيضا.

تنهد إيمليانو مرة أخرى طويلا، وتوجه ببصره نحو البحر الذي غيبه الجبل والبنايات التي قامت بكثرة في العشرين سنة الأخيرة في حي الكميل، بالكوريدا. لولا سؤال السيدة النحيفة التي كان وجهها مرتبكا، وتحمل في يدها حذاءها:

- هل تعرف مركز الشرطة.

ضحك إيميليانو وهو يلتفت نحوها. بدت له السيدة كأنها مجنونة.

- لست مجنونة سوى أن قدمي تمزقا من كثرة الذهاب والإياب.

- المكان الوحيد الذي لا أخطئ فيه. مركز الشرطة، علاقتي به دائمة. انظري هناك، بعيدا. بالضبط في الزاوية. كأنك لست من هنا؟

- لست من هنا. أزور أختي من حين لآخر. أنا من وسط وهران. تعيشون وسط وحوش من السراقين الغجر. لم يخطئ هتلر عندما قادهم نحو الأفران مع اليهود. لو عاصرته كنت أخبرته بأن يأتي إلى وهران، هي أيضا بها يهود وغجر، ويمحو هذا المكان من الخارطة.

- إلى هذه الدرجة؟

- وأكثر. سرقوا محفظة النقود، وبهدلوني أمام الناس. حتى الشرطي فانسون متواطئ معهم، أرسلني نحو المكان الغلط. وجدت نفسي في مدخل مصحة عقلية. مصرة أن يدفعوا الثمن. سيدة البريغور لا تهان هكذا.

- المهم. مركز الشرطة هناك. موفقة في مسعاك.

- أين هناك. كلهم يقولون هناك، بدون وجود لأي هناك.

قام إيميليانو من مكانه، ثم أشر لها باتجاه مستقيم. هزت رأسها بالإيجاب، ثم انطلقت، حذاؤها ما يزال في يدها.

التفت إيميليانو نحو خوسي الذي ظل طوال الحديث يهز رأسه.

- أرأيت يا عزيزي الظلام الذي ينام في أعماق الناس؟ تمحو حيا بكامله، وربما مدينة، فقط لأن غجريا سرقها؟ والله يعلم إذا كان غجريا لأنه لا أحد مكتوب على جبهته أنه كذلك.

- كل واحد هو مركز نفسه.

- احذر. انت في حضرة سيدة البيريغور.

ضحكا حتى ارتفعت ضحكاتهما عاليا.

- يبدو أن المسكين فانسون كان على حق. هههه

11

- شوقتني إلى قصتك سينيور إيمليانو... زباطا؟

قال خوسي أورانو كأنه يشجعه على قول شيء لا يريد أن يقوله.

- هل تسمع الضجيج الذي بداخلي يا خوسي أورانو؟ أنت أعدتني إلى الرجل الذي تعلمت منه كيف يكون الإنسان بسيطا

وكبيرا، وسط بحار الكذب والزيف. صفة الكبر قد تكون مضمرة في عمق كل واحد فينا، لكن من يستطيع إيقاظها؟ زباطا العظيم. كان، حتى عندما يمر أمام الناس، يتناعتون عليه، مع ضحكة سخرية مخبأة، وربما بعض عطف للتخفيف من محنته: «مسكين» يسير خطوات ودون أن يلتفت نحوهم، يتمتم بدوره، بشيء من الشفقة عليهم: «مساكين. لو يعرفون لكنهم لا يعرفون، ولن يعرفوا أبدا، لأن الطريق الذي ساروا فيه لن يوصلهم إلا إلى المزيد من الكذب»

- كأن زباطا هو الذي يتحدث. حقيقي. قرأت بعض خطبه ورود أفعاله ومواقفه.

- لا أدري. الناس هكذا يا عزيزي. يحكمون سماعا فقط ولا أحد يكلف نفسه بالبحث عن الحقيقة. أحببت هذا الرجل بقوة. لكن يا عزيزي، من نحبهم نتماهى فيهم، هكذا كانت تقول ماتيلدا، زوجتي. ربما كان فيَّ شيء من زباطا، لهذا ارتبطت به. على كل أنا أحبه. كان رجلا عظيما يرفض المذلة. المشكلة أن الكبار يقتلهم الصغار بخديعة ما دائما. ربما لأنهم رومانسيون في النهاية. قاوم بكل ما يملك من قوة،

لكن الحيلة كسرته. زباطا، سيد الثورة المكسيكية في 1910، سنة بناء كوريدا وهران. حارب باستماتة دكتاتورية الرئيس بورفيريو دياز[1]. شعاره الأسمى، لم نبلغه حتى اليوم: الحرية العدالة والقانون. اخترق الحرب الأهلية لكنها أكلته. كان الناس يتراكضون لإسقاط الرئيس دون التفكير في الآتي. عرف في وقت متأخر، أن الآتي كان أكثر دموية من كل ما مضى. سهل أن تسقط رئيسا ظالما، طاغية صغير، صعب أن تجد من هو أفضل منه في وقت قصير.

- لم أتخيل مربيا ومحضرا للثيران أن يكون بكل هذا الوعي وهذه السعة الفكرية. تعرف يا إيميليانو نحن أيضا ضحايا الأفكار المسبقة وليس فقط الناس العاديين.

- لهذا قلت لك إن ما يطفو إلى الأعلى هي الأشياء الخفيفة فقط، وليس الحقيقة كلها. ثم ماذا نعرف عن الناس لنحاكمهم؟

- لا شيء. حقيقي. أنا كل ما جمعني بزباطا، هو يوم ميلاده.

الغريب إني أشترك معه في نفس اليوم، ونفس الشهر. 8 أوت؟ ألم تكن هذه إشارة لشيء ما بالنسبة لك؟

بدون تفكير، أجاب خوسي أورانو.

- لا. صدفة. متأكد من أنها مجرد صدفة؟

- هل تظن أن الحياة مجرد كومة من الصدف؟

- الرجل كان مجنونا وثائرا ضد النظم الجائرة. أنا في هذه الأرض، لا أعرف جيدا ضد من أثور؟ ضد من أحمل سلاحي؟ أي مثل أعلى يستحق أن نضحي من أجله؟ بقدر ما تسير البشرية إلى الأمام، تفقد مثلها العليا وتنتصر للزيف في أغلب الأوقات. أصبح الإنسان يباع ويشترى برضاه. نحمل السلاح ضد من إذن يا خوسي أورانو؟

---

1. Porfirio Diaz.

يمكن أن نرفعه ضد الظالم. ضد القاتل.

قال خوسي وهو يحاول أن يفهم ماذا يتخفى وراء كل هذا الوجه السمح الذي بدأت التجاعيد تتعمق في خديه، وجبهته، وتحت ذقنه.

- من هو هذا الظالم؟ متى كان يظهر بسهولة بالخصوص إذا ملك وسائل الدولة؟ منذ أن كانت الدنيا دنيا، والخير خير والشر شر، هذا السؤال يطرح دون أن يتلقى أية إجابة. البشرية عندما لا تفكر تتراجع، وها نحن نتراجع في كل قيمنا يا عزيزي.

- لكني مندهش جدا يا سيد إيمليانو من علاقتك بزباطا بعد كل هذا الزمن؟ الزمن الصعب يمحو التفاصيل.

- أو يعمقها أيضا. ما قادني نحوه تعالق شبه باطني مع الرجل، هو يحب الخير والعدالة وأنا أحبهما، وشبه خلقي، نفس قامته وشارباه الطويلان؟ ثم لماذا أسماني والدي باسمه؟ جدي لم يكن مكسيكيا، ولا علاقة له بتلك البلاد التي كان يحب سخاء ناسها. تعلمت من هذا الرجل الكثير. البشر لا قيمة لأرواحهم في حسابات الحيلة. الكولونيل غواخاردو[1] هو من رتب مقتل زباطا. قتل في كمين مرتب بشكل جيد. تخيل يا عزيزي، قتل 57 عسكريا، من الجيش الفيديرالي، من رجاله، فقط ليثبت لزباطا أنه ارتد عن الجيش الفيديرالي وأنه أصبح مع قضيته. لا قيمة للأرواح وهي تظن في أعماقها أنها دافعت عن قضية وطنية، بينما هي ماتت داخل اللامعنى، ويتمت العائلة والأبناء ونفسها أيضا.

- للأسف، كبار الثوار يقتلهم الجبناء. هل كان روبيسبيير شجاعا عندما قطع رأس صديقه دونتون؟ ووضع الثورة في مهب الريح.

تدخل خوسي أورانو كمن يسرق الكلام عنوة. لاحظ أن إيميليانو يحتاج إلى نفس. كانت كلماته تتراكض وكأن وقته محدود.

---

1. Jesus Guajardo.

- بالضبط. ضرب له الكولونيل غواخاردو موعدا في لاسيينداي سان خوان شينامیکا[1]، وهناك سقط في الكمين الذي نصب له. عندما وصل زباطا إلى مكان اللقاء، كان مسلحون ينتظرونه، فأطلقوا عليه النار من كل الجهات بحيث لم يتركوا له أية فرصة للنجاة. قُتل بالحيلة والمكر، وأخذ الكولونيل غواخاردو مقابل ذلك خمسين ألف بيسوس ذهبية، يعني حوالي 38 كيلو من الذهب، ورتبة جنرال. ماذا بقي من ذلك كله؟ لا شيء، أجساد تحولت إلى غبار قبل أن تأكلها رياح النسيان. وتفاديا لأية مشاكل، وحتى لا تسرق جثته من طرف أنصاره، حفروا لزباطا حفرة عميقة جدا، ودفنوه في عمقها. اندثرت كل قبور الطغاة، ولم يبق إلا قبره. يحمل رقم 23، كُتب على الشاهدة:

« Al hombre representativo de la revolución popular
al apóstol del agrarismo al vidente que jamás abandonó
la fé al inmortal
EMILIANO ZAPATA

dedican este homenaje sus compañeros de lucha.[2] »

- شخصية عظيمة، أنا أيضا أحبه. وأستغرب أحيانا كيف لرجل غني جدا، أعطته الحياة من سبل العيش ما يريحه، يصبح ثائرا ضد نظام الجنرالات المتواتر؟ ما تكاد تنتهي من جنرال، حتى يخرج لك جنرال آخر. يتوالدون كالجرذان.

التفت إيمليانو مرة أخرى صوب الضجيج الذي كان يأتي من المقهى المقابل، لكنه هذه المرة لم ير إلا المرأة الجميلة التي كانت تعزف على البانجو أناشيد غجرية قديمة، وفي محيطها شخصان يجمعان النقود من المعجبين بعزفها وغنائها.

---

1. L'hacienda de San Juan Chinameca

2. إلى الرجل ممثل الثورة الشعبية.
ونبي الزراعة، إلى الرائي
الذي لم يفقد أبدا إيمانه،
إلى الخالد أبدا إيمليانو زباطا. (تكريم من رفاق النضال.)

- هذه فرقة أخرى، ليست فرقة ابنتك. نبهه خوسي أورانو.

حتى الآن لم تدخل لي في الموضوع. قلت قصة طويلة وبعدها هربت بعيدا نحو زباطا.

- قصدك عملي في تحضير الثيران للكوريدا؟ قصة طويلة، وقاسية حقيقة. اليوم أنا مرتاح. في البداية كان عملا شاقا. لكن بمجرد ما نتعود عليه يصبح كل شيء عاديا. الثيران الهائجة تحتاج إلى من يقلل من هياجها. أنا من كان يحضرها لكم حتى تكون معاركم مكللة بالانتصار. ثيران مهزومة سلفا، لأن الثور لو ترك على حريته سيظهر في الحلبة بشكل مختلف، وأكثر ثقة في نفسه.

- وأكثر تكافؤا مع المتادور.

- يتم تنظيم ثيران الحلة، في ممر ضيق بحيث لا تستطيع أن تفعل شيئا. مستسلمة لقاتلها. ليس اللون الاحمر هو ما يثير الثور.

كما يصر الناس؟ النرفزة والغضب والإهانة هي السبب. الكائن عندما يهان يرمي بنفسه في قلب النار. وإلا لماذا يأكل الثور نوار شقائق النعمان دون أن يثير ذلك انتباهه؟ يغضب بسرعة. حركات المولیتا في يد المتادور يفسرها على أساس أنها اعتداء عليه وإلا لماذا يركض صوب موته؟ نحن نختار من يصلح من الثيران في المنازلة، ليسوا كلهم كذلك. لا نحضرهم فقط ليكونوا ثيران كوريدا أي رياضيين، ولكن نحضرهم أيضا ليكونوا ضحايا مثاليين. نحشو أنوفهم بالقطن، حتى يضيق نفسهم ويزيد غضبهم، تنفسهم يصبح صعبا. لكي نسهل مهمة المتادور. شكليا الحرب عادلة لكن في الجوهر، لا عدالة في هذه الحرب. متادور في كامل لياقته وفرحه وفنه، يواجه ثورا منهكا. نخضعه لعملية أفايتادو[1] للإنقاص من حدة قرونه وطولها.

1. Afeïtado.

شعر خوسي أورانو بانشداد كبير لكلام إيميليانو الذي كان من حين لآخر، حتى وهو يتكلم، يرفع رأسه قليلا، كلما سمع صوتا أو موسيقى، صوب المقهى المقابل، بحثا عن ابنته.

- هي لم تأت بعد. عندما تصل ستسأل عنك دون أن تتعب نفسك بالالتفات في كل مرة.

- أنت لا تعرف ابنتي. إذا رفعت رأسها ولم تجدني، تمضي في سبيلها. ساعة بدقة عالية. لننتظرها. لن تتأخر.

- أعتقد يا عزيزي أن في كل امرأة شيئا من هذا؟ يذهبن مباشرة نحو افتراض ما لم نفكر فيه. الإهانة والاستصغار؟

12

إيميليانو زباطا يحفظ جبال وهران ومرتفعاتها، كما جيبه.

نظر صوب البحر المتخفي جزئيا وراء الجبل. تأمل الغابة التي كانت تكسو قسما مهما من جبل الأسود، وكيف تحيط به مثل حزام أخضر حتى تكاد تغطي القلعة الاسبانية القديمة التي كانت مركز دفاع ضد الهجمات العثمانية قبل أن يستقر كل شيء.

- هذا الكلام لو يسمعه معادو مصارعة الثيران سيفرحون.

سيرفعونك في الأعالي. وشهد شاهد من الكوريدا. سمعت طبعا شيئا من هذا. لكن بالنسبة للمتادور هي حرب فيها عدالة. ندخل الحلبة متساوين في الأسلحة، وإمكانات الدفاع. نحن بسيف ومولیتا وهو بقرنين حادين، لا يرحم أحدا، لا حصانا ولا بشرا. ومن وقع بين قرنيه، وداعا. كل صراعنا ألا نمنحه فرصة تمزيقنا.

قال خوسي أورانو محاولا جذب انتباه إيميليانو نحوه، فقد كان ذهنه يغيب أحيانا، وبصره يهرب في أحيان أخرى، نحو الجبل، أو نحو عمق السوق والمقهى المجاور كلما سمع ضجيجا يأتي من مكان ما. وكأنه كان خائفا من خسران موعده مع ابنته.

- أعرف يا خوسي أنك تعرف كل هذه الأمور جيدا، فأنت ابن المهنة، لكن المسالة ليست بهذه البساطة. أنا أتحدث من صلب المأساة، وأكاد أقول الجريمة. نعطيهم أشياء لا تتخيلها تزيد في هياجهم. الثور يرى الألوان كما الإنسان، لكن بشكل أقل دقة. يعطى محلولا يشربه،

يحوله إلى مجنون ينطح كل ما يصادفه في طريقه. وعندما، يدخل إلى الحلبة، تبدأ مرحلة أخرى من الآلام مع ألبيكادور الذي يدميه. لا أفهم لماذا هذا كله. تنتابني الرغبة لقول هذا لمنظمي رياضة مصارعة الثيران، أطلقوا الثور على طبيعته يركض في الحلبة لمواجهة إنسان اختار هذه الحرب عن سبق إصرار وترصد، فليدافع عن خياره. الذين هم في المدرجات لا يرون هذه التفاصيل الصغيرة، لكن الذين في المقدمة، في الباريرا[1]، والكونتر باريرا، والديلانتيرا، والتنديدوس barrera، contrabarrera، delantera، tendidos » وبعدها gradas المدرجات، وهذه درجة بعيدة نسبيا تهمها المعركة فقط بلا تفاصيلها الصغيرة. لا يرون ثور الكوريدا وهو يلهث، وصدره يكاد ينفجر منذ البداية حتى قبل الدخول في صلب المعركة، لأن الأدوية التي تشحن فيه تزيد من جنونه، وتنهكه بسرعة.

وقفت شابة عند رأس خوسي أورانو، لم ينتبه لها إلا عندما اعتذرت بصوت ناعم.

- عذرا سيد خوسي أورانو.

التفت خوسي نحوها وهو يتأمل عينيها الجميلتين الهادئتين. كانت تلبس تيشورت عليه صورته وهو يرشق سيفه الحاد في رقبة الثور، لحظة الاستوكادا.

اقتربت منه أكثر. انحنت قليلا. تنفس بعمق عطرها الوردي الناعم المخلوط بشيء يشبه المشمش.

- عذرا سيدي. أنا باوليتا. من أصل ميكسيكي. أنا أحب هذه الرياضة وأحبك أيضا بدليل أني أحمل صورتك في لباسي. لكني في الوقت نفسه أتعاطف مع الحيوانات التي تقتل بشكل بشع ولا ذنب لها. لا أدري ما الذي يجب فعله.

---

1. الحاجز.

- أفهمك يا باوليتا. ربما كان نفس إحساسي. الفارق بيننا، أني عندما

أكون في الساحة أفكر في القتال، كجندي في معركة، لا يمكنه الرجوع إلى الوراء. قاتل أو مقتول، فقط.

- ننتظر مصارعتك القادمة. سأحضرها. أرجو أن تتذكرني يومها عندما آتي نحوك لتحيتك.

- جيد. سعدت بك باوليتا.

- ممكن تأخذ مني هذه الورقة، ربما دفعت بك إلى قليل من التفكير في لحظة فضول. نحن من كنيسة الكميل، في الزاوية، شايف؟ أنا موجودة هناك كل مساء، بعد الظهر، مع السواح، أو مع الخوري، أو مع والدي، أو في السوق كما اليوم.

وأشرت بإصبعها بعيدا.

- شكرا. أعرف الكنيسة، ولو أني لا أرتادها.

- أنا هنا منذ مدة قصيرة. أهلي من المكسيك، لكن الغريب أني أحببت هذه المدينة بسرعة.

- وهي ستحبك كثيرا أيضا. وهران تحب من يحبها، ولا تتنكر إلا لمن ينساها. أصعب ما يمارسه العاشق نحو المعشوق، هو التنكر. قاتل ولا يُشفى.

- مدينة لطيفة. أمي تحبك وحضرت لك منازلتين، واحدة في إشبيليا، والثانية في مكسيكو. وكنت مبدعا فيهما. الأخيرة حضرته معها لكني انهمكت في لباسك الجميل والشيق وحركاتك أكثر من صراعك مع الثور، بل إن الثور انتفى من بصري، لا أعرف لماذا. كنت دائما أتساءل لماذا تلبسون الضيق. والدي متدين. يكره هذه الرياضة. وأعمل هذا من أجله، لكني أحب أن أراك في الميدان. كوريدا وهران جميلة. رأيت صديقك أنطونيو دي غاليسيا، فقد كان مبدعا خلاقا.

خسارة أنه أخفق في الإستوكادا، وجرح في الأخير وقيل إنه فقد البصر بعد هذه المقابلة.

ضحك خوسي.

تذكر مادري مارتا التي حدثته عن فقدان أنطونيو لكل أعضائه التناسلية بضربة من قرن الثور. قالت الفتاة:

- يبدو أني قلت حماقة.

- الكثير مما يقال عن المتادور هو سلسلة من الحماقات.

صحيح تضرر أنطونيو من تلك المنازلة، على مستوى الكلية، لكن لا علاقة لذلك ببصره.

- شكرا سيد خوسي على المعلومة. سعيدة بك وبالتعرف عليك مباشرة. نحن نحبك جدا.

- سعيد بك باوليتا.

- هل تسمح سيد خوسي أورانو؟

لم تنتظر جوابه. كانت أسرع من كلماته. طبعت على خده قبلة، وضعت في يده منشورا، ثم غابت بين الناس، توزع أوراقها.

ابتسم. نظر إيميليانو إلى عينيه البراقتين:

- جميلة. يوم كنت في سنك، لم أكن بصبرك. مع أنه لم يكن لي حظك. كنت لا أدخل المدينة إلا بعد غسل جسدي بصابون لوكس[1] الذي كان يزيل عني روائح المراعي والبقر، العديد من المرات. أسوأ وأجمل شيء بالنسبة للرجل هي رائحته.

- وناعمة ومعطرة كتفاحة.

- كما ترى يزيد عدد الذين يرفضون هذه الرياضة في وهران. حتى من بين الجميلات. لم يبق أمامك إلا الاستسلام لقرار الناس. هناك دم كثير والناس لا يحبون الدم.

1. Savon Luxe.

- ولا أحبه عزيزي إيميليانو.

ثم فتح المنشور الذي تركته الشابة وشرع في قراءته. فجأة توقف ملتفتا صوب إيميليانو:

- اسمع هذا يهمك جدا.

... La seule vérité[1] de ces spectacles horribles, c'est l'agonie dans la souffrance gratuite, c'est la torture volontaire et sadique infligée à un animal plein de vie et qui ne demandait qu'à être heureux et à vivre sa vie; c'est l'expression d'une cruauté barbare appliquée à un être créé par Dieu, pour la joie innocente de l'homme, et qui l'utilise mal et le dégrade, parce qu'il en est soit l'auteur soit le spectateur conscient.

Il faut que tous ceux qui organisent de tels spectacles, comme ceux qui y participent, sachent tous cette souffrance et fassent qu'elle cesse en boycottant les corridas!

Malheureusement ce genre de spectacle cache des intérêts économiques très importants, tellement vicieux, que ceux qui les organisent sont arrivés à faire subventionner cette barbarie au lieu de la supprime,

Aidez-nous à protéger la vie de tous les animaux, en faisant que les hommes s'approprient leurs, qualités en devenant raisonnables.

Montaigne disait "Plus je connais les hommes ,plus j'aime mon chien". Et vous?

---

1. الحقيقة الوحيدة لهذه العروض البشعة هي حالة الموت في المعاناة المجانية. التعذيب المقصود والصادية المسلطة على حيوان مليء بالحياة ولا يطلب أكثر من أن يكون سعيدا ويعيش حياته. هي التعبير عن ممارسة بربرية مسلطة على مخلوق خلقه الله لإسعاد الإنسان والذي يستعمله بشكل سيء، ويهينه سواء كان الفاعل أو المتفرج الواعي. على كل من ينظموا مثل هذه العروض والذين يشتركون فيها أن يدركوا هذه المعاناة ويعملوا على توقيفها بمقاطعة حلبات مصارعة الثيران. للأسف هذا النوع من العروض يخفي تحته مصالح اقتصادية مهمة ودنيئة لدرجة أن المنظمين هم أنفسهم من يمول هذه البربرية بدل إيقافها. ساعدونا على حماية حياة كل الحيوانات بجعل الإنسان يستفيد من مزاياها بأن يصبح عاقلا.
مونتاني يقول: كلما عرفت البشر، أحببت كلبي أكثر، وأنتم؟
الأب روجي بيستر، حول الكوريدا (مقتطفات من أخبار بيشبوتي، عدد 14)

عندما انتهى من القراء، بقي للحظات واجما صامتا يتأمل الفراغ. التفت تلقائيا. بحث عن باوليتا بعينيه، وكأنها كانت تنتظره في المنعطف هي أيضا قبل أن تغيب نهائيا. رفعت يدها اليمنى عاليا. وبعثت له بقبلة هاربة. شكرها برأسه، قبل أن تغيب كليا في عمق الكنيسة، وبين الناس.

كانت كلمات المنشور قاسية، لكنه تفهمها، فهي في النهاية من رجل دين. وطبيعي ألا يقبل بذلك ولو بشكل نفاقي. الدين ممارسة نفاقية تعود عليها الناس، تسترضي الجميع ولا تسترضي الذات.

- رجال دين. تحركهم العواطف أكثر من الأحاسيس. لكنهم لا يعرفون شيئا عن سر المنازلة حيث يعلو الصراع ويصبح الدم الذي يسيل جزءا من المشهد. أنا أيضا كبرت في مزرعة جدي في باريغو، وكنت برفقته وأساعده منذ عمري الأول، وكنت سعيدا.

- ميغيل دي لا كوستا.

- نعم. ميغيل دلا كوستا. هل تعرفه.

- لروحه الرحمة والسلام. هو في النهاية مزارع ويعمل مع الكوريدات المحلية وأليكانتي. لاقى في عمليات التلقيح التجريبية، بين الثور البافاري الثقيل والعنيف وثور باريقو[1] الأنيق، خفة وقوة عضلية، وأناقة في الجسد. رجل محبوب جدا عند رياضيي الكوريدا. لأنه يقوم بعمله بحب.

- تربيت في مزرعته. كان يرسلني لأقبض على الخرفان والثيران الصغيرة، التي كانت تعذبني وتجرجرني. كنت أتصارع معها بعنف وجدية، حتى أقلبها أرضا، وأكتفها قبل أن يصل مشتريها، أو البيطري الذي كان يأتي ويحك على رأسي ويقول لي:

---

1. المحمدية اليوم، Perrégaux

«- أنت ستكون متادورا حقيقيا.» كان يأخذني معه إلى حلبات مصارعة الثيران. إلى كوريدا وهران. العرض الأول في حياتي لم يكن المتادور مرتاحا فيه. كانت ثيران باريغو ثقيلة وقوية. في مرة من المرات وأنا أحاول أن أقبض على ساق أحدها، جرجرني وراءه بلا رحمة، فانكسرت أسناني الأمامية، وكان أصدقائي يسخرون مني. يسمونني ليرماتشييو. لا أعرف أصل الكلمة ولكن تعني الشخص الذي فقد أسنانه. من يومها حقدت على الثيران.

- ألم يغضب منك جدك؟

- لا، ولكنه قال لي، تعلم على الأصول بدل مصارعتها بغباء.

ودخلت إلى مدرسة وهران قبل أن تغلق لتعلم مصارعة الثيران، وإشبيليا، وهناك تعلمت كيف أكون حرفيا. لا أعرف كيف التصقت بي رياضة مصارعة الثيران، لكنها أصبحت هواي الأول. لا أدري إذا ما كان ذلك برغبة انتقامية مبطنة من الثيران التي كسرت أسناني الأمامية، أم حبا في هذه الرياضة؟

عاد ضجيج الموسيقى. وفي اللحظة التي أراد فيها أن يلتفت صوبه، نزلت يد على وجهه وأغمضت عينيه. تنفس طويلا. شم رائحة يعرفها.

- مممممم. هذه الرائحة أعرفها.

ثم تحسس الخواتم الخشنة الكثيرة على أصابعها.

- هل تأكدت من؟ أم أضيف لك شيئا آخر لتعرف.

- شيء آخر.

انحنت عليه قليلا. وقبلته طويلا. ترك نفسه ينساب في قبلة ممتدة وناعمة، شعر بلذتها من الأعماق.

- هل تأكدت؟

- لم أتأكد بعد. أريدها أطول أكثر.

- طماع. يكفي اليوم. قام وعانقها.

عندما فتح خوسي عينيه، رآها. كانت مثل غيمة في لباسها الأبيض. مشرقة كشمس، أنيقة كالوردة التي لا تغادر شعرها.

- واو أي حظ يا خوسي؟ هل تعرف الرجل الذي معك؟

ابتسم وهو ينظر إلى إيميليانو زباطا.

- أنا مع صديقي إيميليانو. إيميليانو زباطا. تعارفنا قبل قليل وكأننا أصدقاء من زمان. هناك جاذبية لا أعرف سرها بين الكثير من الناس أحسستها مع إيميليانو؟

- هي جاذبية الأنثى السرية. إيميليانو زباطا، والدي. أكثر من ذلك، هو باتشيفالو[1] الكبير الذي يصلح بين الناس حتى خارج القانون والقضاء. حتى اللواتي يخن أزواجهن، هو من يصلح بينهم هههه. الغجر يحلون مشاكلهم داخليا وليسوا في حاجة إلى قانون. العائلة هي كل شيء. حتى جرائم الدم هو من يسمع له الجميع فيها. وكلمته لا تنزل إلى الأرض، لكنه يرضي الجميع.

قالت أنجلينا وهي ترسم ابتسامة جميلة على محياها.

- تأخرتِ؟

- قحبة سيدنا المسيح ماري مادلين جاءت لتعلمني درسا، فمسختها. عنصرية مجانية لا شيء يبررها مطلقا.

- هذه البلاد امتلأت بالأغبياء.

التفت إيميليانو صوب خوسي باندهاش.

---

1. Patchivalo الحكيم

- هههه، فهمت الآن. رأينا سيدة ترغي وتشتم مرت بالقرب من المقهى مثل المجنون: سرقوا محفظة نقودي، وتسأل عن مركز الشرطة لأنها مصممة أن تبيِّت من أهانها في السجن؟

ثم نظر إلى أنجلينا، كمن يفتح عينيه على شخص يتعرف عليه لأول مرة:

- يعني أنك أنت من...

- أنت تعرف يا بابا أني أغني وأحلم لكني لا أسرق، وإذا سرقت لا أسرق أبدا امرأة. لا أدري من أين جاءني هذا المبدأ السخيف. واحدة مثل ماري مادلين تستحق أن أعريها وأجرجرها من شعرها، من حظها كان معي ميغيل سانتوس عازف البانجو والقيثارة، وإلا كنت دمرتها حقيقة.

- حسنا فعل.

- هل تعلم يا بابا؟ هذا الرجل المجنون، الغجري، هو من جعلني أحبه وأحب قليلا الكوريدا التي كنت أكرهها.

- لم يقصر. يجب أن يشكر. هو على الأقل علمك هواية يكرهها والدك هههه، كنت أنتظرك في المقهى المقابل فجئتِ من الخلف.

- مقهاي المفضل، لكن سبقتني كريستينا، قحبة العسكر، لهذا لا حظ لي معها وإلا ستكون مقتلة بيني وبينها. وأنا لا أريد القتال.

أخذت يد خوسي بعفوية.

- الغجر يحبون أيضا يا بابا.

- وإذا أحبوا يموتون حبا.

- يحبون عشقا. غجر اليوم يريدون أن يعيشوا يا بابا، بدل أن يموتوا. يكرهون الموت الرخيص، دون أن يفقدوا غجريتهم.

ثم التصقت بجسد خوسي كأنها كانت خائفة من أن يهرب منها.

قال إيميليانو موجها كلامه لابنته:

- محظوظة. لو سبقتك كريستينا، كانت أخذته منك.

انفتحت عيناها على آخرهما. ثم قامت بجدية وكأنها تؤدي مسرحية تراجيدية. فجأة استلت سكينة رقيقة وطويلة، من لباسها التحتي. رفعت رأسها عاليا كأنها تستعد لرقصة عنيفة.

- في هذه الحالة عليك أن تترحم على كريستينا. أنت الذي لم يؤمن يوما إلا بالإنسان. والله سأقتلها، ثم أرميها بالقرب من حظيرة

الخنازير التي يربيها أبونا أوغوستينو. لم أقتل يوما في حياتي. كلهن يحكين عني أخطر القصص. فأنا مسالمة، لكن من يقرب من عريني، يتحمل مسؤولية اقترابه.

- وإيمانويلا؟ ضربتها ضربة قاتلة لولا خفّتها.

- إيمانويلا قصة أخرى يا بابا. ليس غيرة على زوجي، فأنا أعمل معه، لكني لا أحبه. غارسيا لا يطيقني أيضا هههه. متعادلان في الكراهية. ضربتها لأنها استغبتني، كدت أذبحها. أشكر الله أن السكينة أخطأت العنق، ولكنها ختمت وجهها الطفولي بوشم أبدي. اليوم كلما تحسستْه، تذكرتْني. الدرس جيد. أكثر شي يمس الغجري، الإهانة والمذلة. على كل أخذت عليها قرابة السنة سجنا. ولولا عفوها، واعترافها بأنها أهانتني واستفزتني، لقضيت زمنا أطول بين جدران البرد والموت، يضاف إلى ذلك معاملة الغجر. فأنت أقل من سجين. نفايات بشرية لا تستحق العيش. صرحت في إفادتها أنها غازلت زوجي أمامي، حتى إن قاضي التحقيق قال لها مازحا بثقل وسماجة: " متى كان الغجر يغارون على أزواجهم." سألتها وماذا قلتِ له. قالت: ضحكتُ. قلت له نعم يغارون. هم أيضا لهم عواطف إنسانية. أجبتها بعنف:" ابن القحبة.

كان يجب أن تذبحيه، حتى يسحب شتيمته للغجر. أن تقولي له: يا قواد يا ابن القواد، أنت من يحكم على عشق الغجر، ماذا تعرف عنهم سوى غبائك العظيم الذي يعطيك الانطباع بأنك سيد العارفين؟ وكبير الناصحين والقديسين؟ من عرّفك بأن زوجتك العظيمة، التقية النبية، لا تخونك يا عظيم، وتنام مع خادمك الشقي الذي ينتقم منك بعنف حين ينام معها في كل الوضعيات التي لا تستطيع القيام ولا بواحدة منها؟ كلما غبت عن المدينة؟ ماذا تعرف عن حب الغجر؟ لا شيء. عندما يحبون، يصبحون أخف من ريش الفراشات، وتصبح تنهداتهم، أنفاس الآلهة عندما تستيقظ قبل كل الكائنات، وتحضن الأشجار والرياح والألوان مندهشة في إبداعها الكبير. يعطون بلا مقابل ولا يأخذون إلا قلب العاشق المجنون. والله لو كنت مكانها لقلت كل هذا بلا تردد ولهددته بعنف.

- يعيدك طبعا إلى حفرتك وقد عرف أنك غجرية.

- ليفعل. هناك سقف للإهانة.

- ومن بعد؟

قال خوسي متحمسا لما سيأتي.

- لا شيء. اعتذرت منها، وأسمعتها نشيدا ظل طويلا في قلبي، حفظته من المرحومة أمي ماتيلدا، قبل أن تنتهي تحت عجلات القطار؟ وهذا الوغد اللي اسمه بابا، لم يذكر لي يوما سبب موتها. قال كانت ساهية وهي تقطع المعبر المؤمَّن، ولم تسمع الجرس الذي كان ينبه بقدوم القطار فمسحها. لكني مقتنعة أنها انتحرت وهو يقول لا. وكلما سألته كرر علي نفس قصة السهو. ماما ماتيلدا كانت أكثر الناس نباهة ودقة. كانت ساعة العائلة.

تمتم إيميليانو بسكينة وهدوء ساحبا نظره بعيدا باتجاه الغيوم.

- ماتيلدا كانت شاعرة على طريقتها/ وبأحاسيسها العظيمة.

تقول كلما اشتد عليها حنين طفولتها القاسية:

" خذني بين يديك أيها الفارس المجنون.

قبلني كما يفعل المهاجر مع قلبه.

بعثرني في سمائي التي أعرفها.

لقد أخذوا أبي ولم يرجعوه،

سحبوا نساء قريتي، عندما عدن كنَّ عاقرات.

الغجر لا يهاجرون نحو سماء غير سمائهم.

لا تخف عليَّ من ضياع المسافات وأتساع المعابر.

سمائي تعرفني.

أنى طوحتَ بي، وسقطت،

فذاك وطني، وثمة قلبي"

- واووو. أية قوة؟ ليس شعرا فقط ولكنه حزن صاف مثل الذهب الذي صهر في النار لإزالة كل شوائبه.

قال خوسي وهو يضمها.

- في النهاية أنا أدين لإمانويلا بحريتي. ضحكت يومها مني

وهي تضمني عند مدخل الزنزانة، التي تقع في خلاء سعيدة. الحر والذباب والأمراض. كانت أول من استقبلني يوم خرجت من السجن، حتى قبل زوجي. تمتمت في أذنها: هو، زوجي، بغل، لا يصلح لأشياء كثيرة، باستثناء تهريب الدخان والكحول، وللغرض الذي في مخك هههه تعرف القحبة بماذا أجابتني: لقد جربته مرات عديدة، في المرة الأخيرة ما عجبني فتخليت أنا عنه، ثم انفجرت ضاحكة بشكل أخاف البواب وهو يغلق البوابة الثقيلة من ورائنا. جربته قليلا هههه... قد أجربه أكثر في المرات القادمة وأخبرك هههههه. ضحكنا عاليا وعندما سألنا

زوجي لماذا نضحك، قالت له: نكتة نسوية ماجنة لا تصلح للرجال. هي للنساء فقط.

ضحك الثلاثة طويلا. نظر خوسي طويلا إلى عيني أنجلينا. نظرت إليه بنفس الجنون. عندما لمح إيمليانو زباطا تلك النظرات المخطوفة، عرف أنه زائد على المشهد.

- أعتذر. أترككما. عندي أيضا أشغال كثيرة في المارشي.

نظرت إليه أنجلينا بعينين مائلتين كأنهما تستعدان لحرب صدامية:

- بادري كيف تتركنا؟ ألسنا على موعد هام أنا وأنت، لتسليم البضاعة لأصحابها؟ أم تراك نسيت؟

- لا لم أنس شيئا. قلت ربما غيرت رأيك.

- لي كل الوقت لأهتم بهذا المجنون.

التفتت أنجلينا نحو خوسي أورانو:

- عنوانك وتليفونك لم يتغيرا حبيبي. أنتهي من عملي مع بادري إيميليانو، وأمر عليك، متأخرة قليلا، لكني سأمر هذا المرة. لم تغير سكنك منذ لقائنا الأخير؟ 69 هههه.

- جيد. تعرفين كل شيء. أسعد بك أنجلينا. أنا أيضا لا التزام لدي. خوفتني بحكاية السكاكين؟ هههه

- أنت لم تر شيئا حبيبي هههههه

التفت إيميليانو نحوه كأنه ليذكره.

- وموعدك يا خوسي. أصبت بمرض النسيان بهذه السرعة؟

- حقيقة ما فهمت.

- وابنة الخوري؟ باوليتا المكسيكية. ألم تعدها بلقاء هذا المساء هههه

- والله هذه ملعنة منك يا زباطا. تريد أن تذبحني أنجي؟

- جيد أنك قلت أنجي. قربتني منك أكثر وإلا كان عقابك عسيرا. العقاب الصحيح مؤجل لليل. سأعرف كيف أقتلك مرات عديدة في الدقيقة الواحدة. غراثياس مي كريدو أميغو[1].

- بانتظارك حبيبتي.

ثم انسحبت برفقة والدها.

بينما سلك خوسي أورانو شارع لياج المستقيم الذي تعود عليه منذ أن ترك لاكاليرا، من أجل تدريب الأطفال مصارعة الثيران.

- هل ينتظرها؟

ضحك في أعماقه. الذي يأخذ كلام أنجلينا على علاته سيصاب بحالة جنون. انتظارها قسوة، لأنها وحدها تحدد مواقيت اللقاء.

ومع ذلك، وهو يستمتع بالنسائم الليلية فكر في أن يحضر كل شيء كما لو أنها ستأتي.

حضر طاولة جميلة، مع البيرة. هو يعرف جيدا أن أنجلينا تحب البيرة الوهرانية، وتحب نبيذ ريو دي صلادو، تشعر ببعض ملوحته الجملية وثقله المخملي في المذاق.

أطفأ كل الأنوار ولم يترك إلا شمعات الشمعدان مضاءة، تعمق بظلالها الناعمة الرغبة في الحب والخلوة.

انتظر طويلا. مر زمن ولم تأت.

ارتعشت ذبالات الشموع الواحدة تلو الأخرى، قبل أن تنطفئ بالتتابع.

" مجنونة ويمكن أن تفاجئني في كل لحظة"

---

1. Gracias mi querido amigo شكرا صديقي العزيز

تمتم خوسي وهو يترقب بسمعه كل الأصوات والخطوات.

مضى الليل ثقيلا ولم تأت. في أواخره، انفلتت منه ضحكة مدوية بعد أن غالبه النوم وانطفأت كل الشمعات المتبقية، واضطر إلى إشعال الضوء من جديد.

- مجنون من يصدق غجرية. والله مجنون. وممكن غبي أيضا. نعم أنا غبي.

كان خوسي يمشي في البيت، ويهز رأسه. كيف لامرأة بهذا الجمال الساحر، أن تكذب؟ تسرق؟ أن تحاذي الجريمة؟ وهل هي جريمة؟ أليست دفاعا عن النفس؟ لماذا الثور إذن ينتفض؟ الا يدافع عن شرف القوة وهو في الحلبة ويريد أن يموت ميتة العظماء؟ لكن هل من الضروري أن يموت الثور؟ لماذا لا يذوق المتادور أيضا؟ لماذا لا يمسك الثور من قرنيه ويروضه ليتعلم الحياة بدل الموت؟ وهل تروض الثيران خارج حروبها في حلبات المصارعة؟

كان كلما تذكر كلماتها البذيئة، ضحك طويلا. ما هي مسافة المقبول ومسافة البذيء؟ هي عفوية وصريحة ولا تضع القفازات على أصابعها كلما تعلق الأمر بردة فعل ضد من يمسها أو يهينها.

أطل خوسي أورانو للمرة العاشرة بلا جدوى. لم ير إلا سوقا مستكينة، وشرطيين في الزاوية يواجهان آخر السيارات، ثم التفت يمينا ليرى الكوريدا بكل جبروتها وعظمتها.

« لا أدري من الغبي، صاحب فكرة تحويلها إلى مكان لتجميع الحلفاء؟ هل يعقل أن يتم محو كل شيء بجرة يد مجرمة؟ كم هش ما يصنع جمال هذه الدنيا، كم ثقيل وجاثم ما يسرق فرحتها؟

عندما استيقظ، بعد نوم لم يعرف كيف جاءه، ولا متى، قام مذعورا. شعر كأن أنجلينا جاءت ولم يفتح الباب عليها؟ فتح الباب. وهو ينتظر أن

يفاجئه وجهها، ورقة مرور، أو أية إشارة تدل على أنها عبرت بسرعة ولم يفتح لها الباب، فلم يجد شيئا.

عندما أغمض عينيه للمرة الأخيرة، سمع صوتها يأتيه من بعيد:

« حبيبي خوسي أورانو؟ احذر. لا تلعب بالنار. هل عرفتَ الآن ما معنى أن تحب غجرية؟ أن تقبل بأن لا تتردد أمام الحرية، وتضع حياتك كلها في دوارها وتمضي برفقتها ولا تسأل عن الثمن، الذي قد يكون حياتك.»

تدرج في نوم عميق لم ير فيه شيئا سوى الكثير من الضباب الذي غطى الغابة كلها التي وجد نفسه فيها، عرفها من عواء الذئاب الذي كان يأتي من بعيد. كانت ترتدي فستان عروس بلباسها الأبيض الفضفاض. ركض وراءها: أنجلينا لا تذهبي، أنا خوسي، حبيبك أورانو؟ عندما حاول لمسها اشتعلت في كفه كالورقة القديمة ولم تخلف وراءها إلا رائحة الحطب المقدس والصندل. كانت قد غابت كليا ولم يعد يرى حتى ظلها لكن رائحتها استمرت طويلا قبل أن تغيب شيئا فشيئا. في لحظة من اللحظات، قبل أن يفتح عينيه بثوان، بدا له كأنه بمجرد أن لمس لباسها تحولت إلى ذرات بيضاء تشبه ندف الثلج والفقاعات، قبل أن تنطفئ نهائيا.

شيء يشبه الفراغ الأبيض كان يجتاحه كليا.

بقي زمنا طويلا نائما، بعينين مفتوحتين. تأتيه كلماتها الأخيرة كحبات مطر صاف وعاشق.

- هل عرفتَ الآن ما معنى أن تحب غجرية؟

13

صباح الجمعة.

بقايا أوراق أشجار البلاطان الميتة، الأوراق البيضاء المليئة بالأغبرة، الصحف الميتة، تلعب بها الرياح الخريفية عاليا قبل أن ترميها على أسطح البنايات العالية.

بدأت الأمطار تتساقط بكثافة لكنها لم تمنع الناس من التدفق على الكاتدرائية الكبيرة التي تفتح صدرها بحب غريب. شكلها الروماني البيزنطي جعلها مريحة وغير مغلقة. وعلى الرغم من أنه شرع في بنائها في 1903 ودشنت بعد عشر سنوات، إلا أن عمرها يبدو أكثر حداثة من ذلك. واجهتها النقية أبدا والمشرقة، تعطيها أناقة وكأنها شيدت في اللحظة. الأورغ الضخم، كفايي كول موتين[1] الذي دشن في 3 فبراير من سنة 1918، ما يزال يسمع من بعيد كل أيام الآحاد أو في الاحتفالات الدينية.

كان يفترض، في البداية، أن يتم اللقاء في الكنيس اليهودي في شارع جوفري[2]، لكن الكثير من اليهود المتطرفين رفضوا ذلك وقالوا إن تضحيات سيمون كانوي[3] في 1880 لم تكن من أجل أن يجتمع فيها كل من هب ودب، ولكن من أجل مكان ديني سلمي يجمع كل يهود وهران. الفكرة نفسها رفضتها مساجد وهران على الرغم من محاولات بعض الأئمة الذين لم يتمكنوا من إقناع الناس، وانتهى الأمر إلى كاتدرائية ساكري- كور جو جيزو[4]، التي استقبلت الفكرة برحابة صدر.

1. Orgue Cavaillé-Coll-Mutin.
2. Joffre.
3. Simon Kanoui.
4. Sacré-Cœur de Jésus.

كانت الحركة جد نشيطة على غير العادة، في يوم غير ديني من أيام الأسبوع. ليس يوم الأحد. الثلاثاء يوم عمل.

بدا كأن الكاتدرائية تتحمل أكثر من طاقتها على الرغم من اتساعها الكبير. امتلأت الكراسي فجأة عن آخرها. لم يبق أي مكان. حتى الكراسي التي أضيفت لاحقا، أغلقت الممرات الممكنة. الواقفون في الزوايا المظللة كانوا كثيرين. حتى إن الأب مارسيل مازح صديقه الإسباني ذا الأصول الإفريقية، شيكو نيغرو، الذي كان يقف بجانبه، بكلمات تتبطن مرارة عميقة:

- ماذا لو حضر هؤلاء كل أحد لقلنا إن المسيحية بخير. مع أن مونسينيور كانتيل[1] حينما دخل إلى وهران في سنة 1899، كان رهانه كبيرا، ومتحمسا لبناء كاتدرائية حينما لاحظ أن كنيسة سان لويس، في الطرف الغربي من المدينة القديمة، لم تعد كافية؟ لهذا فكر في بناء هذا المعلم الذي لم يتحمس له الكثيرون، لأنه لم يبن بالمواد التقليدية ولكن بالإسمنت المسلح، وكأن الله الذي هو قلب إيمان تهمه هذه التفاصيل.

- ليس مهما سيد مارسيل. نفرح بالموجودين هنا. ثم نحن أمام قضية

إنسانية تتعلق بالدفاع عن الحيوانات التي يتم تعذيبها أمام الناس في مشهدية تراجيدية لم تعد مقبولة أبدا.

- معك حق. يبدو أن الأمور كلها استتبت الآن، ويمكننا أن نبدأ حتى نحرر الناس ليذهبوا نحو انشغالاتهم.

بدأ النقاش حادا منذ البداية، بشكل غير مسبوق في الكاتدرائية. كانت الخلافات كبيرة بين أنصار الحفاظ على رياضة مصارعة الثيران، والواقفين ضدها بكل مبرراتهم. وكان عدد الذين يقفون ضد الكوريدا في البداية قليلا جدا، لكنه كان يتنامى، كلما حضر أشخاص جدد إلى

1. Monseigneur Cantel.

الكاتدرائية. رجال الدين، مسيحيون، مسلمون ويهود، شكلوا حائطا مشتركا مع بعض ضد هذه الرياضة وكأنهم اتفقوا سلفا على منعها، من خلال المنشور المشترك الذي وزعوه في أغلب الأحياء ذات الكثافة الإسبانية أو الأندلسية والفرنسية أيضا.

تدخل الأب مارسيل ليخفف من حالة الحدية التي اتسعت بين المتدخلين. حاول أن يوفق بين الآراء لكنه لم يخف رأيه الذي في داخله، حتى لا يصطدم بالسلطات المحلية. الكاتدرائية هي صاحبة المبادرة لا أكثر.

- هذا اللقاء لا يعوض السلطات المحلية لهذا نريد سماع رأي رئيس

البلدية الذي يشترك معنا في التساؤل على الأقل، الدي يثار لأول مرة في مدينتنا. جميل أن نعرف كيف يفكر سكان وهران في هذه الرياضة التي انطفأت، ولكن سرعان ما أعيدت إلى الواجهة من جديد. طبعا كنا ضد تحويل المكان إلى مخزن للحلفاء، خدمة لصانعي الورق. هناك أناس تعبوا من أجل تشييد هذا المعلم الذي يمكن أن نجد له وظيفة أخرى. موقفنا الديني كان دائما واضحا، نحن لا نريد أن يقتل الحيوان بغير حق. نعم للمتعة، نعم للرياضة، لكن لا للمتعة بالدم والقتل. من حيث لا ندري، نحن نبتذل الدم، صحيح أنه حيوان، لكنه مع الزمن سيرتسم في عقول الناس دما، بغض النظر عن كونه هو دم حيوان، لأننا ننزع روحا بغير حق. نتمنى أن نسمع للسيد هنري فوك - دوبارك[1]، رئيس البلدية. رأيه يهمنا جميعا. فهو سيد هذه المدينة ويعرفها جيدا.

قام رئيس البلدية، رجل مستقيم، وطويل، وعلى وجهه الكثير من علامات الراحة والتسامح. لا يبدو عليه الانشغال، لكنه كان يسمع جيدا لكل المتدخلين.

---

1. Henri Fouques-Duparc, Maire d'Oran de 1948 à 1962

- أشكركم على دعوتي. أنا هنا بصفة شخصية لأن الأمر يهمني كابن لهذه المدينة، ويهمني جدا ما يفكر فيه أبناء وهران. أشكركم على الدعوة الكريمة. الإشكال مطروح حتى في المهد الذي تربت فيه هذه الرياضة، إسبانيا وأمريكا اللاتينية. لهذا فأنا مستمع أكثر مني مشارك حاسم. وأوصل مقترحاتكم للمجلس ليقدم رأيه في هذا الموضوع. طبعا، إذا كان يحق لي أن أعبر عن رأيي، فأنا ابن هذه المدينة ولا أضيع أية فرصة للاستمتاع بهذه الرياضة التي تجعل دمنا يغلي ليس فقط خوفا على المتادور، ولكن أيضا من أجل ألاّ يتعرض الثور لآلام حادة، مثل الذبح في الثقافتين اليهودية والإسلامية، توصي الكتب المقدسة بالرأفة بالحيوان والتقليل من آلامه. الإنسان في النهاية حيوان وعليه أن يحافظ على كل ما يحيط به، وهذا يعطي توازنا في الطبيعة. السؤال هو هل ننظر للطوروماشي، كرياضة تحترم في سياق آلياتها الحيوان أم لا؟ أحترم رجالات الدين، لكن في الوقت نفسه أنا أعبر عن نفسي وعن الملايين من عشاق الكوريدا الذين يشتركون معي في نفس الرأي. طبعا هذا ليس توجيها للنقاش، لقد استمعنا واستمتعنا بالكثير من الآراء المهمة جدا حتى في تضاربها. عذرا، هذا مجرد مساهمة في النقاش لا أكثر. مع كل الاحترام للآراء الأخرى.

كان خوسي أورانو، في زاويته بتأمل النقاش، ويحاول أن يفهم آراء المتدخلين، لكنه كان يشعر كأنهم يتكلمون في الفراغ، لماذا يحزنهم الثور ولا تحزنهم ملاين القطعان من الخنازير والخراف والدجاج التي تقاد يوميا إلى المذابح، في ظروف بشعة. لا يؤمن كثيرا بتدخل رجال الدين في الحياة العامة، لأنهم خارج منطق هذه الأرض. يعيشون في عالم بعيد عن مصائب الناس اليومية.

عندما رفع رأسه، رأى الإمام يرفع إصبعه، ثم وهو يتقدم نحو منصة الحديث، بعد أن أشر له الاب مارسيل بذلك:

- أخونا الإمام مولاي عبد القادر الرافعي. تفضل.

- شكرا أخي في الله، مارسيل. شكرا للسيد رئيس البلدية هنري فوك

دوبارك. سعيد أنه عبر عن رأيه داخل الكاتدرائية التي هي مكان الله أو الرب بلا استثناء. ولو أني تمنيت أن يكون موقفه أكثر حزما وصرامة بوصفه ممثلا للسلطة العمومية. البشرية بنت كل شيء بدمها، وقليلا ما تفرغت للعلوم والحضارة والتطور والخروج من دائرة التخلف. نعم هذه الرياضة مقبولة كونها رياضة تجمع البشر على لحظة هم يرونها سعيدة، لكننا نراها غير ذلك. بل نراها تعذيبا قاسيا للحيوانات.

- لا قوة تجبركم يا سيدي الإمام. يمكنكم أن لا تذهبوا نحوها، لكن

اتركوا الناس يستمتعون بما يريدون. لا تحلوا محلهم وكأنكم المالكون للحق المطلق، والمفوضون من الله. مشكلة رجال الدين هي هذه. بعد كل المآسي البشرية التي تتخفى في ذاكرة البشرية، ما يزال رجال الدين يريدون توجيه الحياة العاطفية للناس. الكوريدا عاطفة يا سيدي الإمام، كما الأشياء الأخرى التي نحب.

تدخل شخص من إحدى زوايا القاعة، كان في الظل، دون ذكر اسمه. حتى عندما التفت نحوه الناس، كان قد انتهى من كلامه وتماهى في ظلمة المكان، والحاضرين الذين كانوا يتتبعون مصدر الصوت. لكن القس طلب من المتكلم أن يظهر نفسه ليتعرف الناس على بعضهم البعض، لم يعلن عن نفسه. ظل صامتا.

- على كل، قال مارسيل، صوتك وصل يا سيدي. ونحن نقبل بهذا الرأي بوصفه جزءا من النقاش العام. تفضل سيدي عبد القادر وعفوا على المقاطعة.

- سامحك الله.

- أنا ناقشت ولم أرتكب إثما، سيدي الإمام.

جاء الصوت من زاوية ما.

- كان أجدادنا يتصارعون مع مختلف الحيوانات دون قتلها.

ليتعرفوا عليها لا أكثر. يستمتعون بها. يلعبون مع الثيران الصغيرة والمتوسطة، ويربونها لنفس الأهداف النبيلة، لكن دون قتلها أو تعذيبها. نفس الشيء بالنسبة لأكباش المبارزة والاقتتال. التعذيب في ثقافتنا وديننا، مرفوض ضد الكائنات الحية. هناك العديد من سور القرآن الكريم تحمل أسماء الحيوانات: مثل سورة البقرة، والأنعام، والفيل... وغيرها، ومن ثمَّ حرَّم الإسلام تعذيب الحيوان، ولَعَن المخالفين على مخالفتهم، وفي ذلك. يُروى عن النبي الكريم أنه مرَّ على حمار قد وُسِمَ في وجهه، فقال: «لَعَنَ اللَّهُ الَّذِي وَسَمَهُ "من حقوق الحيوان على البشر، شرعا، الرحمة والرفق به، وقد توافرت النصوص على أن الإحسان إلى الحيوان والرفق به، عبادة من العبادات التي قد تصل في بعض الأحيان إلى أعلى درجات الأجر وأقوى أسباب المغفرة. فقد روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم، قال: «إِذَا سَافَرْتُمْ فِي الْخِصْبِ فَأَعْطُوا الإِبِلَ حَظَّهَا مِنَ الأَرْضِ." فلماذا يتحول هذا الإنسان الذي أنعم الله عليه بالعقل والخير، إلى ضبع كاسر؟ إلغاء الاستوكادا وجرح الثور قبل بدء المعركة، يؤنسن قليلا هذه الرياضة.

- ما قيمة الكوريدا دون الإستوكادا يا سيدي. الرياضة هي كل مترابط، تقبل أو ترفض. مشكلة رجال الدين هي مواقفهم الوسطى التي تعني اللاحركة. مع... ولكن...

ردّت امرأة رقيقة، شقراء، ناعمة، كانت في الكراسي الأمامية.

سرت بين صفوف القاعة همهمات هي أقرب إلى الضحكات المكتوبة.

- شكرا سيدة أدلين. قال مارسيل، ماذا يقول إمامنا.

أجاب الإمام بكلمات سريعة:

- على كل ما قلته لا يتعدى أن يكون رأيا إنسانيا ودينيا. ليس شرطا أن يكون القتل منتهى كل شيء. يمكن مثلا الحفاظ على هذه الرياضة دون التعدي على حياة الثور؟ البرتغاليون جربوا ذلك وأعطى الأمر نتيجة جيدة. دعونا على الأقل نتأمل الحالة عن قرب ونستمع لبعضنا.

لم يستطع مارسيل أن يستقر في مكان. فقد كان في أعماقه قلقا، خائفا من التطرفات التي ظهرت حينما طرحت فكرة إجراء اللقاء في كنيس يهودي أو في مسجد. لم يكن الأمر هينا إذ حاول كل واحد أن يجد مبرراته، بينما المسألة هي إقناع بالدرجة الأولى.

- نتفق منذ البداية هي رياضة أولا وأخيرا؟ وفي كل رياضة شيء من الألم وحتى الظلم. هي ثقافة تميزنا هنا في الجزائر عن غيرنا في أوروبا، حتى ولو كنا فرنسيين، نحن مثل العرب والبربر والكورسيكيين والمالطيين، وسكان ما وراء البحار، وغيرهم. لكل ثقافته وميزاته وخصوصياته التي جعلت وهران تزدهر ثقافيا وتتعدد وتتهجن، لكن يجب إيجاد حل لهذا الألم. صحيح إن الاستوكادا هي أكثر اللحظات اشتهاء للجمهور لأنها تحرك شيئا عميقا فيه، الدم. ولكنها الأخطر أيضا على المتادور. تكون الحظوظ فيها متساوية في الموت بين المتصارعين. المتادور ليس في منأى عن الموت كما تعرفون. نحن هنا لا لنفرض آراءنا، ولكن لنستمع إلى بعضنا البعض.

رفع الأب جيوينو يده بكل أدب. طلب الكلمة. انتبه له مارسيل لكن ظل يحرك راسه في كل الاتجاهات.

- أبونا الجميل والكبير، جيونو، لك الكلمة.

كان مارسيل يعرف بأن جيونو إذا أخذ الكلمة فلن يتركها لغيره. كان أثناء التحضير لاجتماع الكاتدرائية من الرافضين كليا للقاء، لكنه كان أقلية، فلم يستطع أن يفرض رأيه.

- أستغل الفرصة لأقرأ عليكم ما قاله الأب روجي بيستر في كنيسة الزيتون. قد يكون قاسيا، ولكنه صادق حقيقة ولم يضف من عنده شيئا. نحن نفكر هكذا. كنا سعداء لما كانت الكوريدا مكانا لتجميع الحلفاء، فقد كان لها دور إيجابي في صناعة الورق. الآن أصبحت مكانا لإراقة الدماء. وقد سرنا ضد باريير عندما أعاد ترميمها وفتحها: الحقيقة الوحيدة لهذه العروض البشعة هي حالة الموت في المعاناة المجانية. التعذيب المقصود والسادية المسلطة على حيوان مليء بالحياة ولا يطلب أكثر من أن يكون سعيدا ويعيش حياته.، هي ممارسة بربرية مسلطة على مخلوق خلقه الربّ لإسعاد الإنسان والذي يستعمله بشكل سيء، ويهينه سواء كان الفاعل أو المتفرج الذي بحضوره هذا يزكي القتل وفعل الجريمة. لماذا لا نقول إن هذه العروض الدموية تخفي وراءها مصالح مالية مهمة، ودنيئة أيضا، لدرجة أن المنظمين هم أنفسهم من يمول هذه البربرية بدل إيقافها. أنظروا بأعينكم من يقوم بالدعاية لمصارعة الثيران؟ جيدور؟ **اشرب جيدور، وابتسم، أنت في وهران. شركات النهب المنظم.**

ضحك الحاضرون. لم يمنع خوسي أورانو نفسه من الضحك ايضا. يعرفه جيدا. اعترضه العديد من المرات. لقد رآه سابقا عند بوابات حلبات وهران لمصارعة الثيران، يقف الساعات الطويلة ليوزع الأوراق المعادية لهذه الرياضة. وكثيرا ما ساعده الشباب بأخذ جزء من المنشورات، يوزعون بعضها أمام عينيه، ويلقون بالبقية في المزابل القريبة، ويعودون نحوه ليأخذوا بعض ما تبقى له. من شدة إصراره على مجابهة الكوريدا، كاد يموت بضربة شمس لولا أن وجد بعض الشباب بجانبه.

- كلكم يعرف رأيي. لن أضيف عليه شيئا. ساعدونا فقط على حماية حياة كل الحيوانات من الانقراض، بما فهيا الإنسان. مونتاني يقول: كلما عرفت البشر، أحببت كلبي أكثر، وأنتم؟

Montaigne disait "Plus je connais les hommes ,plus j'aime mon chien", et vous?

دعونا نخرج من هذا الدم، ونقول: كلما عرفت البشر، ازددت حبا للإنسان؟

اهتزت قاعة الصلوات في الكاتدرائية بالتصفيقات. قام الصف الأول ثم الثاني، الثالث، الرابع، ثم كل القاعة. تحية لم ينتظرها. يحبه الجميع لصراحته القاسية. حتى عندما انسحب الحاضرون إلى الخارج بعد انتهاء اللقاء، ظلوا يكررون جملته الأخيرة التي ارتسمت في رؤوسهم نهائيا.

Montaigne disait "Plus je connais les hommes ,plus j'aime mon chien", et vous?

شعر الأب مارسيل بالكثير من الإحراج. لم يكن يعرف أنه سيجد نفسه وحيدا، في مواجهة وضع، كان أعقد مما تصوره. حتى الإمام والحاخام كانا ضيفين أكثر منهما منظمين.

قام شاب تردد في ذكر اسمه بالتفصيل. علت محياه صفرة واضحة، رغم ظلال الكاتدرائية. في عينيه حيرة لم يستطع أن يخفيها.

- صدقت الأب جيونو. نحبك لقلبك الكبير ولصراحتك. دعونا نخرج من هنا ونحن نقول: كلما عرفت البشر، ازددت حبا للإنسان. حتى ولو كان ذلك مجرد حلم هارب. حتى يتغير الإنسان، سيظل كلام مونتاني صحيحا. أنا محمد ابن هذه المدينة منذ خمسة قرون على الأقل. هذه تربة والدي، وجدي، وجد جدي، والسابقون لهم. أجدني

اليوم من الأهالي[1]، بلا أي وضع اعتباري. اسمي لا يؤهلني لقول ما سأقوله، لكنني سأقوله.

- هذا بيت الرب يا محمد، قل ولا تخف، طمأنه مارسيل. نحن هنا لتبادل الآراء حول قضية نظن أنها تهمنا جميعا مسيحيين ومسلمين ويهودا، ولا هدف لنا سوى الخير.

- شكرا سيد مارسيل. نعم، يجب حماية الحيوانات من التلف ومن العذاب. حقها علينا أن نضعها في المراتب العالية. يمكن أن نصدر اليوم نداء نسلمه للسيد رئيس البلدية هنري فوك - دوبارك الذي شرفنا بحضوره. لكن يا سادة يا كرام. ألا يوجد ما هو أجمل وأهم من الحيوان؟ يوجد طبعا. الإنسان. ما رأيكم في الناس الذين يؤتى بهم من الجبال، ومن بيوتهم، صغارا وكبارا، ويُسْحَلون في الطرقات؟ خارج قانون البشرية؟ أتمنى أن أسمع آراء بعضكم حول هذا الظلم. نعم حملوا السلاح، وربما قتلوا ظلما، ولكن ألا ترون معي الظلم المسلط على السكان الأصليين؟ نحمل السلام عندما لا نجد من يصغى إلينا. هناك كوريدا أخرى اليوم، يرمى فيها اللحم البشري للكلاب الضالة والذئاب. البارحة فقط قتل الأمن أكثر من عشرة أشخاص وهدم بيوتهم، وشرد عائلاتهم، على حواف جبل الأسود، وقيل إنهم هم من وضع قنابل الأسابيع الأخيرة؟ كيف عرف الأمن ذلك؟ تخيلوا؟ من بين الأموات أربعة أطفال لم تتجاوز أعمارهم الأربع سنوات؟ نحن ضد أن يُقتل الناس الأبرياء، ولكن هل استمع أحدكم إلى الذين يُقتلون بصمت، وخارج أي ضجيج إعلامي؟ لماذا لا نفكر في الإنسان وسعادته أولا، قبل الثيران؟

تدخل أحد المنظمين:

---

1. الذين ليسوا فرنسيين. السكان الأصليون الذين حولهم الاستعمار إلى لا شيء. Les Indigènes

- يا سيد محمد هذا موضوع آخر، ليس هذا مكانه، ولكن في خلايا الإرهابيين وفي الأحزاب السياسية. هذا فضاء للخير.

- طبعا أعرف أنه ليس مكانه، فقط لا أريد أن يظل الوهرانيون عميانا لا يبصرون إلا ما يملى عليهم. أكون بهذا قد بلغت. أنا أيضا أحب هذه المدينة وأريدها أن تظل حية وجميلة، ولكل الوهرانيين.

- هل لديك شيء عن الكوريدا، قال مارسيل، وهو يحاول جاهدا إخفاء الحرج الذي انتابه من كلام محمد.

- شكرا سيد مارسيل. انا أحب جدا هذه الرياضة. لكن في الأولويات، أحب الإنسان أكثر من الثور.

همهمات تشبه الضحكات المكتومة.

- شكرا محمد. ما قلته يمسنا جميعا. نحسد على الأمن الذي عشناه طوال سنوات في وهران. نحيل الكلمة إلى ... لا أحد؟ هاه السيد هارون بن دافيد، حاخام كنيس المدينة.

- مثلي مثل الإمام عبد القادر، نؤمن بأن الحيوان يصان ولا يجوز تعذيبه. من أبسط حقوق الحيوانات عدم معاملتها كسلعة، يجب أن نتوقف عن العبث بها وكأنها ملكنا. لقد أوصى يهوه الله، معطي الحياة، البشر أن ‹يتسلَّطوا على سمك البحر، وطير السماء، وكل حيوان يدب على الارض. (تكوين 1:28) من المنطقي إذا الاستنتاج أن الله يعتبر البشر أسمى من الحيوانات. شكرا محمد على التذكير. مسّني كلامك في العمق. نتميَّز عن باقي المخلوقات بإعرابنا عن صفات الهية كالحكمة والعدل والمحبة. وقد وضع الله فينا أيضا حاجة روحية وحسًّا بالصواب والخطأ، أما الحيوانات فلا. فهي لم تُخلَق «على صورة الله». إذا، الحيوانات أدنى من البشر ولم تُخلَق لتعامَل هي والبشر بالطريقة ذاتها.

صمت الحاخام قليلا، ثم واصل حديثه. ساد الصمت الكاتدرائية برمتها. أخرج بعض الوريقات من الكتاب الذي كان في حمالته.

- ما قلته موجود في الكتاب المقدس، لكنه لم يقل عذبوها. هذا مصدر الشقاق والاختلاف. لست نباتيا لكني ألح على حقها في الراحة والعيش. حرص الله في شريعته إلى الإسرائيليين قديما أن تحظى الحيوانات بوقت راحة، وتحصل على الطعام والمساعدة والحماية الأذى.)خروج 23: 4، 5؛ تثنية 22: 10؛ 25:4.) «ستة ايام تعمل عملك، وأما اليوم السابع ففيه تمتنع عن العمل، لكي يستريح ثورك وحمارك». -)خروج 12:23.). النصوص كثيرة، يجب فقط أن ننتبه لها.

- أنا لا أفهم لماذا نربط ما لا يربط؟ لكن هذه رياضة لإسعاد البشر، وليست شرا في جوهرها، لماذا تحولونها وكأنها صراع من أجل القتل المجاني؟

انتفض الشاب أندريا الذي كان يجلس في المقدمة. واصل الحاخام وكأنه لم ينبته لما قاله أندريا.

- أمر الله هو الأعلى. يسمح الله للبشر بقتل الحيوانات لحماية أنفسهمأو صنع الثياب. (خروج 28:21؛ مرقس 6:1) كما إنه يجيز قتلها للحصول على الطعام. تقول التكوين 9 :3 «كل الحيوانات الدَّابة الحية تكون لكم طعاما». وفي إحدى المرات، ساعد يسوع تلاميذه على اصطياد السمك، ثم أكلوا منه جميعا. الكتاب المقدس يقول إن الله «يبغض محب العنف». (مزمور 5:11) من الواضح أنه لا يرضى أن نؤذي أو نقتل الحيوانات لمجرد المتعة أو الرياضة. فقد خلق الله نظاما بيئيًّا يوفِّر للحيوانات حاجتها من الطعام والمسكن. قال الملك داود في صلاته: «الانسان الإنسان والبهيمة تخلِّص يا يهوه». (مزمور 6:36) مثلا، حفظ يهوه خلال الطوفان القاتل حياة 8 اشخاص وكل

أنواع الحيوانات قبل هلاك الأشرار (تكوين 19:6).أقول لكم، هذه المرة إذا جاء الطوفان، لن تجدوا السفينة التي تحملكم، ولا نوحا ينجيكم.

ضحكت القاعة.

- لكن الزمن تغير يا سيدي الحاخام. وعليك أنت بوصفك رجل دين أن تخرج من الدائرة الضيقة، ومن صمتك، وتدين الذين يقتلون الأبرياء. نسيت أن أقدم نفسي. أنا عريف بن سوسان. الإرهاب أدمى المدينة في الشهور الأخيرة، وكبير حاخامات وهران صامت؟ ولم نسمع منه أي إدانة. على الكنيس اليهودي ألاّ يخفي رأسه في الرمال، ما يصيب الآخرين، سيصيبنا.

قام الحاخام، من جديد.

- أفهمك وأفهم رأيك. لكن أنت أيضا ابذل جهدا لتفهم الآخرين. كنتَ من الرافضين عقد هذا اللقاء في كنيس وهران، وكنت عنيفا. وأذكر أنك قلتَ على الكنيس أن يظل خارج السياسة. وها أنت تطلب منه أن ينخرط في السياسة؟ لا علينا. يجب فقط أن تعرف أن الشاب محمد الذي تحدث قبل قليل هو ابن هذه الأرض ولم ينزل من المريخ، وله الحق، كما لك الحق في إبداء الرأي في موضوع يهمنا جميعا.

تململ الإمام مولاي عبد القادر في مكانه. نظر إلى مارسيل لكي يتدخل. وقبل أن يتحدث، قامت سيدة في مقدمة الكنيسة:

- السيدة روزا كاميو. أنا جئت أسمع عن الكوريدا. الآن تحول الموضوع إلى شيء آخر. ليس هذا مكانه. هناك عنف وقصف. قنابل. بالمقابل هناك تقتيل يومي ضد الأهالي؟ هل ترون هذا طبيعيا؟ أعتقد أن محمد الذي قد لا يصل إلى بيته سالما، قال الحق الذي في داخل كثيرين منا، ولا نجاهر به خوفا. ماذا تنتظرون من شخص سُرق منه كل شيء؟ لا أريد أن أفتح الحنفية لأن القلب ممتلئ.

- لا مشكلة. هذا فضاء الرب وهو مفتوح للجميع. تفضل.

- على كل أنا أمي جاءت من كاديثيا، وهذه الرياضة في الدم.

هي أكثر من مجرد قتل ثور وجره إلى الخارج ليتحول إلى أكل على موائد الوهرانيين كما قال خوسي أورانو الذي تمنيته معنا. هذه الرياضة يجب أن تستمر في وهران. فهي صورتنا الثقافية. فرنسيون نحن، لكن لا نختلف كثيرا عن الأهالي إلا في كوننا أوروبيين استطعنا أن نجعل من الأغاني وجهتنا وثقافتنا وحبنا للأمكنة. أرى في الكوريدا كل هذا الميراث. فهي وسيلتنا الثقافية لإثبات أنفسنا، ووجودنا. من هذا المكان الكبير والمقدس أيضا والدافئ الذين ندين فيه كثيرا لأبينا العظيم، قس وهران صاحب الغبطة كانتيل[1] الذي لولاه ما كانت هذه الكاتدرائية. يجب ألا ننسى السيد باريير الذي أعاد لهذه الرياضة وهجها، وأنقذ الكوريدا من التهالك. انظروا كيف تمتلئ الكوريدا كلما كانت هناك مقابلة؟ ألا يدفعكم هذا إلى التفكير بعقل شاب؟ فخورة بمتادور وهران الكبير السيد خوسي أورانو الذي ترك رخاء إشبيليا وعاد إلى أرضه في وهران. كم تمنينا أن نسمع رأيه.

رفع مارسيل يديه كما لو كان يمثل في مسرح مفتوح.

- سيدة روزا كاميو المحترمة. نقدر مداخلتك. لكن ما رأيك لو قلت لك إن متادور وهران معنا اليوم؟ معنا ويتابع هذا اللقاء بكل انتباه منذ بدايته.

- واووو. سأكون أسعد امرأة لو سمعته. لقد حضرت كل مقابلاته في وهران وبرشلونة، وحتى في ليما وميكسيكو. زوجي ديبلوماسي، ونتنقل كثيرا.

- سيد خوسي أورانو الكلمة لك. نتشرف بحضورك. الأكيد سمعت الآراء المتضاربة ولك وجهة نظر خاصة حول الموضوع.

1. Monseigneur Edouard- Adolph Cantel. Evêque d'Oran de 1899 à 1910.

وأنت معني بشكل مباشر بما سمعت؟ لا يهم إذا اختلفنا. نحن هنا لنستمع إلى بعض.

قام أورانو بعد أن التفتت كل الأنظار نحوه. علت القاعة بالتصفيق الحاد مع أن البعض لم يكن موافقا، ولا مرتاحا، لأن المكان ديني ويجب أن يحترم كما هو مهما كانت المناسبة.

- شكرا. أجدني في ورطة حقيقية.

ضحك الحاضرون قليلا احتراما للمكان.

- أنا سأتحدث من موقعي كإنسان علماني، لكن لي كل الاحترام لرجال الدين الطيبين. اليوم أنا هنا ومعي أطفال وهران

الذين يتدربون على هذه الرياضة. على ظهري مسؤولية كبيرة. كيف يتعلمون رياضة هي مكروهة عند الناس وتكاد تكون جريمة؟ أردتهم أن يسمعوا، عن قرب، كل ما يقال عن هذه الرياضة التي يتعلمونها بحماس. منذ نصف قرن حدث صراع بين أنصار البناء بالمواد التقليدية النبيلة كالخشب والحجارة الكلسية البيضاء، والطين والتبن، وبين أنصار التحديث والبناء بالإسمنت المسلح؟ الأماكن ليست حجارة فقط، ولكنها تتكلم أيضا، وتحتاج فقط إلى من يصغي إليها. الكوريدا مثل كاتدرائية ساكري- كور التي نجتمع فيها اليوم. لها تاريخ من الفكرة الأولى التي انتابت من بنوها تعبيرا عن ثقافة وهوية، ولإسعاد الآخرين. بدأت كوريدا وهران بحلبات خشبية بدائية يلعب فيها الناس سباق الثيران قبل أن يتم تعويضها بحلبات حقيقية وأصيلة في 1908، ودشنت في 1910. وأصبحت جزءا من المشهد الثقافي الوهراني. توقفت للأسف، بسبب الحرب الأهلية في إسبانيا في 1936، لتعود ثانية في 1954. وبعد تجديدها وتوسيعها، عادت باتساع أكثر: تحمل أكثر من 10000 متفرج. ونخاف أن تتوقف من جديد بسبب الحرب الجارية اليوم. أتساءل معكم، هل كان الذين أصروا على استمرار هذه الرياضة أغبياء إلى هذا الحد؟

علا التصفيق مرة أخرى.

- أعتذر أني أطلت دون الدخول في الموضوع.

- نحن هنا لنسمعك عن قرب. إذا لم يتكلم صاحب المهنة، فمن يتكلم؟

- لا تتخيلوا أن الإستوكادا هي لحظة فرح بالنسبة للمتادور. أبدا.

هي الثانية الهاربة، التي يصعب الإمساك بها، التي يضع فيها حياته كلها في الميزان. فجأة يتحول الثور إلى أسد أو نمر قاتل، وعلى المتادور أن يتخيل أنه في أعالي الكوريدا ملك وحاشيته ينتظرون موته بفرح، وبعنف. وعليه أن يثبت للجميع أنه قادر على الحياة والاستمرار. هذا إحساس المتادور بالضبط. لم تتعرض الكوريدا إلى تهديد مثلما تتعرض له اليوم. لا يمكننا أن ننفي أنه إذا كانت الكوريدا عرضا قد يصل إلى درجات قصوى من الإمتاع، والجمال الأخاذ، فإن هذا لا يمنع من أنها رياضة بها قسوة وتوحش. وهذا يخلق لدينا نحن المدافعين عن هذه الرياضة، صراعا أخلاقيا بين المتعة واحترام الحيوان. مما لا شك فيه أن احتفالية مصارعة الثيران تضع الحيوان أمام لحظة عسيرة تسبق الموت. وهذا صعب قبوله بالنسبة للكثيرين منا. كل نقاش حول هذا الموضوع يفترض بالضرورة تطبيق ذلك على بقية الحيوانات من أجل انسجام الرأي، لأن كل عنف ضدها هو لا أخلاقي، ويستحق الإدانة. الرافضون لمصارعة الثيران، أو الطوروماشي، يخطئون إذ يظنون حينما يفكرون أن الكوريدا هي ممارسة شريرة تسحب وراءها كتلا بشرية بلا عقل، تستمتع بشكل مرضي بآلام حيوان بريء. ثيران المعارك موجودة لأن هناك كوريدا وليس العكس. وعندما تندثر الكوريدا يندثر معها ثور المعارك. ومعها تربية هذا النوع من الثيران. وتستمر الثيران في العيش وأكل الأعشاب، ونش الذباب بذيولها. لو زار الرافضون أمكنة تربية ثيران المعارك لعرفوا درجة الاهتمام الصحي والحياتي بها. لا يوجد مكان تحب فيه الثيران

بشكل عشقي، مثل إسبانيا، الميكسيك، كولمبيا، البرتغال... كانت دائما الكوريدا مصدر إلهام كبير، بدونها ستكون الفنون منقوصة وحزينة. أنظروا إلى أعمال غارسيا لوركا، هيمنغواي، غويا، بيكاسو وغيرهم؟ ماذا كنا سنخسر لو لم توجد الكوريدا؟

صفقت السيدة روزا كاميو، بحماس كبير، في البداية بشكل منعزل، قبل أن تتبعها الكاتدرائية كلها.

- هذا هو التحليل الحق. يجب أن نصغي أيضا للذين يواجهون الموت في كل منازلة. لقد نطق خوسي بالحق. من المجنون الذي يستمتع بقتل ثور أعزل؟

- شكرا سيدة روزا. أضيف، إن هناك نفاقا كبيرا يحيط القضية.

الذين يرتعبون من وحشية مصائر الثيران، ويطالبون بغلق حلباتها، لا يتوانون عن التمتع بأكل النقانق الكتالانية اللذيذة. حوالي عشرة ملايين خنزير تعيش في أمكنة ضيقة، فوق بعضها البعض، ولا حركة لهم إلا رفع الرؤوس والانحناء أثناء الأكل. أما نقلهم نحو المذابح فهو يتم في ظروف شديدة القسوة. هكذا تعذب الخنازير استرضاء للذائقة البشرية. كل هذه الممارسات الوحشية، لا تزعج أحدا. هل رأيتم كيف يتم حشو بطون البط؟ للحصول على الكبد الدسم الذي لا تخلو منه طاولات الميلاد، ورأس السنة. لست بصدد البرهنة على أي شيء. الذي يسحرنا في مصارعة الثيران ليس الانتصار أو الهزيمة، ولكن تلك اللحظة العالية الأحاسيس التي يرمي المتادور بحياته كلها في ساحة عامة أمام عشرات الآلاف. نكتشف لحظتها نبل وأناقة المتادور، وكرمه وشجاعته الكبيرة، ونكتشف أيضا قوة الثور، واندفاعه، ودفاعه عن نفسه، وتجاوزه لذاته حتى وهو في حالة نزف وتعب. هناك مصير مشترك يجمعها حتى النهاية. لا خداع في لافاينا ألينيو[1]، تلك التي تضع المتادور في مواجهة الثور

1. La Faena de alino.

استعدادا للإستوكادا بلا تنميقات فنية. لافاينا دي أسيو[1]، هي سلسلة من الإثارات الفنية بالموليتا، ضد الثور. لا فاينا كورتي إي بور دريتشو[2] هي الحركة السريعة والدقيقة. يكاد يكون الأمر طقسا دينيا، مسرحيا، أسطوريا، تراجيديا، رمزيا. انطفاء كل هذا، هو موت جزء حي فينا، يصنع أسطورة الحياة وسحرها. وليس الموت إلا وجهها الآخر. أثقلت عليكم ولكن يجب أن أسمعكم صوتي العميق، بلا كذب ولا مساحيق. أعطف كثيرا على الثور لحظة الإستوكادا، لكنني أخاف أيضا على نفسي وهي تواجه قدرا لا شيء فيه مضمون. شكرا لكم جميعا.

على الرغم من النصائح الكثيرة باحترام المكان، وعدم التصفيق، فقد اندفعت القاعة بحماس لم يتوقف، نحو التصفيق.

تقدم مارسيل من الميكرو. وقف قليلا ينتظر توقف التصفيق.

- لا أجد ما أقوله. لقد وضعتنا عزيزي خوسي أمام أنفسنا وأمام ضمائرنا. نختلف معك لكن ما قلته صحيح. لا أعتقد أن بعدك سيتجرأ شخص آخر على الكلام...

تضاحك الناس. كانوا يعرفون جيدا أن مارسيل كان يريد توقيف الجلسة التي كثيرا ما انحرفت عن موضوعها الأساسي الخاص برياضة طوروماشي.

- أشكركم على حضوركم. نلتقي حتما في ظروف أجمل.

رفع مارسيل يده عاليا إيذانا بانتهاء اللقاء. بدأ يصعد صوت نقي وصاف من الأورغ الكبير لموسيقى قديمة من القرون الوسطى تستعيد الأنبياء المقتولين، وعذابات البشر في مواجهة جشع الحكام والأطماع البشرية.

بدأ الناس يخرجون بنظام وهدوء. تكاثرت الهمهمات وكأن الفضاء

1. La Faena de aseo.
2. La Faena corte y por derecho.

لم يكن كافيا للنقاش، فتواصل أثناء الخروج. الكثير من الحاضرين بقي بالداخل.

بهدوء، وبعيدا عن الأنظار المشدودة إلى الخارج، اقترب مارسيل من الشاب محمد الذي كان يسير منكس الرأس مع المجموعة المغادرة باتجاه الشارع العام. كان هادئا على الرغم من صفرة وجهه التي أظهرته كأنه مريض.

- محمد. ارجع إلى الوراء بهدوء بدون أن تلتفت إلي. اتبعني. لا تخرج ناحية ساحة سكوار غاربي[1]، الشرطة هناك، في انتظارك. غادر من الباب الخلفية الصغيرة. باب الإنقاذ ورجال الدين، لا يوجد بها أحد هناك. لقد قلتَ كلاما يبدو أنه لم يعجب رجال الأمن. اتصلوا بنا لنخرجك لأنك إرهابي وتهدد الكنيسة، لكننا لم نفعل طبعا. اتبعني عن بعد.

- شكرا عزيزي مارسيل.

نفذ محمد ما سمعه. تراجع إلى الوراء بهدوء، ثم تبع الأب مارسيل، منكس الرأس حتى اختفيا، وراء ركائز الكنيسة الكبيرة، بينما ظل الكثير من الناس يغادرون على إيقاع النشيد الكنسي القديم. دخل وراءه نحو قاعة صغيرة.

- جرب هذا المعطف الأبيض، وهذه البريطة.

لبسها بسرعة، فتغير فجأة مظهره، هو الذي كان يرتدي لباسا يغلب عليه السواد.

تمتم الأب مارسيل في أذن محمد.

---

1. Square Garbé.

- ضع هذه الكوفية الخفيفة على عنقك. جيد. الآن، خذ المخرج الصغير من الوراء، ستجد نفسك في الشوارع الخلفية التي لا تزورها الشرطة إلا قليلا. لا أحد في الخارج. إنهم ينتظرونك من الباب الرسمية. ادخل بعدها في الحديقة، ومن هناك اذهب حيث تشاء، لا أريد أن أعرف. لن ينتبهوا لك أبدا.

- شكرا يا أبي.

- لا شكر على واجب يا ابني.

قبله على رأسه. ثم غادر محمد المكان بسرعة.

14

نسمات الليل الوهراني ناعمة جدا.

كل شيء هادئ كما يحدث عادة بعد سقوط الأمطار.

توقفت السيارة الزرقاء، ليس بعيدا عن الكوريدا، دون أن يتوقف محركها. الشارع خال من كل حركة.

نزل خوسي أورانو. عندما مد يده للسائق ليناوله ثمن الرحلة:

- سيد خوسي. أنت ثروة وطنية لا تتكرر بسهولة. احذر.

الإرهابيون العرب لا يرحمون. قبل يومين ذبحوا أوروبيا وزوجته بلا رحمة. لا تمش كثيرا وحيدا. ادخل بسرعة إلى بيتك. يجب الحذر. منذ سنتين يقتلون بهمجية غير مسبوقة. حياتك ملكنا أيضا.

حياتنا ملكنا... شعر بكبر الكلمة وباتساع معناها.

- شكرا عزيزي على كرمك. شكرا. بيتي على بعد خطوتين.

لا مشكلة. وأصحاب الدكاكين يظلون تقريبا حتى الصباح.

ترنح خوسي قليلا قبل أن يعتدل في مشيته، بينما مضت السيارة بسرعة لتختفي وراء البناء الدائري للكوريدا، كأن هناك من يطاردها. لا يدري لماذا نبهه السائق إلى خطر الإرهابيين؟ هل أصبح الأمر مخيفا إلى هذه الدرجة؟ كان يمكنه أن يقضي الليلة في بيت والديه في لاكاليرا، لكن قيامه صباحا للتدريبات جعله يفضل أن يقضي الليلة في الكميل، ويقوم صباحا براحته.

الحي صامت، في سكينة غريبة.

انتبه إلى الساعة الكبيرة، لورلوج [1]في ساحة السوق، التي تظهر من بعيد، من جديد. الواحدة بالضبط.

كيف مضى الوقت بسرعة؟ تذكر فجأة جملة لوركا الساحرة. **إن الفرح غيمة بلا وزن، تمضي بسرعة.**

الفرح غيمة. مؤمن بذلك مثل طفل بلعبته.

لم يستطع أن يقاوم سهرة الأصدقاء الشهرية، على النبيذ الأندلسي الذي جلبوا كرومه من هناك منذ عشرات السنين، وربما من قرون، وعلى الموسيقى المجنونة والفلامينكو، في حي الكاليرا[2]، الإسباني القديم، بين البحر والجبل. عطر النبيذ مختلطا برائحة البحر وعطر الراقصات وعرقهن يثير بقوة كل المحتفلين بالشهر الأندلسي في وهران.

شعر خوسي بأنه شرب كثيرا، ولكن نشوى عميقة كانت تهزه من أعماقه. ربما لأن خمينيث، كبير الصيادين، صديقه النقابي الأحمر كما كان يسمى، والمجنون على الكوريدا، روى له كثيرا عن جده وعن جدته من أمه الوهرانية، ولقاء الدم الإسباني والعربي. ولم يسكت إلا عندما أسكتته حبيبته هلينا التي تصغر خمنيث بعشرين سنة، لكنها كانت تحبه بجنون. كانت سهرته في الحي الإسباني مع زملائه جميلة، بعد مقابلة الكوريدا: سباق الثيران، الاستعراضية التي قدمها خوسي مع الأطفال الذين يدربهم. امتلأت الحلبات بالناس، وتحملت أكثر من طاقتها. الدخل كله كان خيريا لصالح يتامى الكوريدا: الأطفال الذين عثر عليهم على حواف الكوريدا، ملفوفين في ورق الصحف، أو حتى

---

1. L'horloge.

2. Calaira. La Calère ou la Marine. يقع كاليرا في سفح جبل المرجاجو. دائرة سيدي الهواري. حي بناه الإسبان في القرن الثامن عشر. في الأصل كان ميناء قديما للصيادين. هو ثالث حي إسباني بعد لابلانكا والمدينة الجديدة. في 1980 تمت إزالته من طرف السلطات المحلية.

داخل غطاءات قطنية، موضوعين بالقرب من أحد أبوابها. في كل مرة يجدون طفلا هناك، والكل يتهم الغجر أنهم يلدون بلا عاطفة ولا نظام. المرأة الغجرية تمنح نفسها لأي عابر، وعندما تحمل منه تختفي حتى تلد. بعد أسبوع تلف المولود في أغطية صوفية، أو في أي شيء يقيه من البرد والعري، وتضعه عند مدخل الكوريدا باكرا، وتظل تراقب العابرين الكثر، المتوجهين إلى أعمالهم أو نحو المارشي، حتى تطمئن أن أحدا منهم أخذه، أو استلمه عمال البلدية. سُميَ هؤلاء المرفوضين، بأطفال الكوريدا، لوس نينيوس دي لا كوريدا[1].

وهو يفتح باب شقته، سمع الموسيقى التي كانت تأتي من مكان قريب، فكر أن يكون جاره المجنون سكوبيدو، الذي يعمل في السكك الحديدية، الذي طلقته زوجته لأنها ضبطته مع بائعة التذاكر في سنيما. اكترت ذات صباح سيارة شحن. نقلت كل شيء ولم تترك له إلا المسامير. من يومها لم تعد أبدا. يبيت الليل كله على الموسيقى والنشيج، الذي يسمع من بعيد، نبهه العديد من المرات، لكن في كل مرة يخرج وهو في حالة سكر.

« - كي باسا أستاذ[2]؟»

فيرد وسي أورانو عليه: عفوا عزيزي سكوبيدو. أخطأت في بابي. لا شيء. ويعود إلى بيته وهو يسمع كلمات سكوبيدو:

«- يجب ألا تدق على باب غير بابك يا خوسي، لأن ذلك يوقظ النائمين. الناس يعملون يا عزيزي..

أدرك إلى أي حد كان مخه ضائعا في الأيام القليلة الماضية. ضحك في أعماقه. ههه لابد أن أكون مجنونا. دليل قاطع أني سكران. استرق السمع أكثر. بدأ يدندن. ددن دن. ددن دن دن. عزف موسيقى بيزي. كارمن. فتح الباب أكثر. زادت الموسيقى قوة. لابد أن يكون الشراب ونبيذ الأندلس قد فعل مفعوله كليا.

---

1. Los niños de la Corrida.

2. ماذا يحدث أستاذ؟

كان عطشا كأنه حج إلى جبل سانتا كروث. فجأة انتبه إلى الطاولة الأنيقة الجاهزة للطعام. وشمعدان صغير عليه ست شمعات تتقاطع شعلاتها من حين لآخر وتتداخل. شرب قليلا وهو ما يزال تحت دهشة المكان.

فتح غرفته. وجد ألبسة داخلية نسائية حمراء، استغربها، ونويزيت إسبانية سوداء، وحمالتين بنفس اللون، وعطرا عربيا قويا. لم يصدق ما كان يراه. من فعل كل هذا؟ لابد أن تكون من الأوهام التي يخلقها السكر القوي.

فجأة، وهو يحاول أن يتأكد إن كان ما يراه حقيقة، أم مجرد وهم أو ضياع المخ بسبب الشرب الكثير، سمع صوتا نسويا ناعما، يأتيه من داخل الحمام.

- حبيبي وصلت أخيرا.

عرفها من صوتها. لكن من أين يأتي كل هذا؟ تساءل خوسي وهو يحاول أن يسترجع كل حسه وإدراكه.

- حبيبي أعطني الفوطة الصغيرة من فضلك. مررها من فجوة الباب، انتهيت تقريبا من الدوش.

سلمها الفوطة وهو لا يكاد يصدق أنها أنجلينا.

شعر بحرارة البخار تملأ يده اليمنى وهو يزحلق الفوطة.

- كيف كانت سهرتك حبيبي؟

جاءه صوتها واضحا.

- جميلة. ارتحنا وغنينا ورقصنا. تمنيتك معي.

- هههه كيف أكون معك وأنت لم تعزمني، خفت من أن أفسد عليك سهرتك مع معجباتك؟ غجرية مجنونة يمكن أن ترتكب جريمة غيرة هههه المؤكد أنك فكرت بهذه الطريقة.

- هههه... أنتِ لم تأت حتى للمقابلة الاستعراضية التي نظمناها لصالح الأطفال اليتامى، أصلا لا تظهرين؟ ثم إن الاستعراض كان رائعا أظهر أن مستقبل هذه الرياضة هذه سيظل قائما وجميلا.

- لم أكن مرتاحة. هذه الأيام عندنا عمل كثيف. لهذا هربت نحوك لأرتاح، وأتذكر أني عاشقة، وأن لي جسدا يريدك ويحبك. توقعتك أن تأتي مع إحداهن لتنهي الليلة في مخمل العشق متادوري الحبيب.

- لم يحصل.

- تقولها؟ والله لو حصل، كنت قتلتها وطلبت منك أن تقتلني لأني لا أملك القدرة على التخلص منك.

- ولكنك جئتِ من غير موعد. فوق هذا انتظرتك تلك الليلة لكنك لم تأتِ مع أنك قلتِ لي إنك ستأتين.

- بغلي لم يتركني، واشتكاني لوالدي الطيب. تخيل قال له ابنتك لا تريد أن تنام معي؟ ووالدي عزرني بعنف. عدت له، وحاولت أن أقترب منه، مغمضة العينين، كش جسدي وتقلص وكأنه يذهب نحو مجزرة. تركته يفعل. تألمت حقيقة لأني شعرت كأني كنت في حالة اغتصاب، أو مجرد قحبة. كان مثل خنزير.

إلا هذا، صعب. لا أتحمل أن يلمس جسدي شخص لا يعني لي شيئا. المسألة ليست لحما فقط، ولكنها كيمياء معقدة حبيبي. طبعا أنت لا تحس بهذا، جسدك تعوّد على كل البِشرات الناعمة، وكل العطور. كل ليلة مع واحدة، طبيعي، فنان، ومحبوب ومرغوب.

- لا يا أنجي. لست هكذا أبدا. لي أيضا شروطي في الحياة.

غسل خوسي أورانو وجهه من بقايا الأنفاس والرطوبة والأدخنة، في المطبخ، فقط ليستفيق. تساءل مرة أخرى إذا لم يكن ذلك كله حلما هاربا. أين هي أنجيلينا؟ مجرد صوت سكن دماغه؟ لكن من منحها المنشفة

لتمسح جسدها؟ من رأى يدها وهي تمتد، بوشمها المشجّر، ومعصمها الناعم الذي تطوقه إسورة أمها المصنوعة من لؤلؤ الهند، وكوراي جيجل، كما تقول؟

- أنت تقول في نفسك أن كل ما حدث ليس حقيقيا؟

- بالفعل هذا ما كنت أقوله في أعماقي.

صمت قليلا. أنصت إلى مرش الماء وتخيله وهو ينكسر على جسدها الناعم بكل نتوءاته المغرية، ينزل ويصعد ثم يبدأ يقطر حبة حبة كأنها لؤلؤ صاف، تنكسر عليه الألوان والأضواء التي تتسرب من وراء زجاج البيت. سمع دندنتها بالإسبانية:

ألم أقل لك من قبل إنه صعب عليك تحمّلي؟
سامحني حبيبي، لقد أخطأتُ. الغجر يخطئون أيضا...
يوم أصبتُ بك، لم أتساءل كثيرا، فقد انتميت إليك كليا.
لأول مرة أنتمي لشخص في حياتي. حتى زوجي لم يروّض هبلي.
فقد كنتَ أرضي، وعطر ترابي، ورغباتي المجنونة، وتمردي.
كنتَ وطني الذي لم أرزق به.

- صوتك ساحر.

- ورثته عن المرحومة أمي ماتيلدا. لم أشبع منها يا خوسي، ثم إن موتها غامض. لم يقنعني والدي بحكاية السهو والقطار. أشعر أن من وراء صمته كلما تعلق بحياتها، سرا عميقا. تخيل، أشعر أحيانا أنها انتحرت.

- مجنونة كيف دخلتِ؟ ماذا لو طلبت الشرطة؟

- حتى الشرطة لن تخلصك مني الليلة. طبعا دخلت بهذا.

ثم نزعت مساكا كانت تشد به شعرها الذي تبعثر على ظهرها ووجهها، عندما خرجت من الحمام. فاجأته بجسدها المستقيم كشعاع.

- رائحتك طيبة يا مجنونة. الله ما أجملك.

- أخذت حماما في انتظارك.

- وأنا انتظرتك في ذلك اليوم، بلا جدوى

- انس الأيام التي تمضي فارغة. تعلم حبيبي كيف تنسى الخيبات كلها، فلا حب بدون نسيان. ارم كل شيء في النار وتعال جمرا متقدا، وإلا ستكون مجرد كومة رماد، يبكي عليها العابرون، ثم تبعثرها رياح البحر.

- تخلفت عن الوقت؟

- عن أي وقت تتحدث؟ ألا تعرف أن الغجر ضد الوقت. وأنا جئتك في وقتي الذي اخترته لأحبك كما أشتهي، وليس في وقتك حبيبي، لكي تنساني بسرعة. وإلا سأكون امرأة عادية، وهذا ما أكره. لست أنا من قالت هذا، ولكن أوبرا بيزي. الحب اللحظة الهاربة والحاسمة التي لا يشعر بها إلا العاشق.

tu crois le tenir, il t'évite, tu crois l'éviter, il te tient[1].

- آخذ حماما أنا أيضا.

- لا. ليس الآن. عندما أشبع منك. بعدها نأخذ حماما مشتركا جميلا. أريدك الآن لي. هكذا، بتعبك وعرقك ورائحة بحرك وذكرياتك الأندلسية، بكل تأوهات حبيباتك اللواتي لم يغادرن مخك. أشتهيك بترابك وهبلك. صبرت عليك مدة طويلة. أريد أن أمحو آثار الليلة التي ضربني فيها غارسيا. كنت حزينة لكني شعرت بك أقرب إلي من أنفاسي، بالخصوص عندما نمت على صدرك بقية الليل كله. الآن أنا من يشترط وليس أنت. أريدك أن تعرق أكثر، رقصا وجنونا، لكن معي لأشمك كما لو إنك برتقالة، أو تفاحة، أو حتى بطاطا مخزنة في الأنفاق.

---

1. أوبرا جورج بيزي.
تظن أنك ملكته، فيهرب منك،
تظن أنك تفاديته، فيأسرك.

دخلت الغرفة وعادت بسرعة. كانت تلبس الأحمر والأسود.

ثم أرجعت ديسك فينل 33، كارمن لجورج بيزي من الأول.

- ارقص. خذني فيك. اجعلني أصعد إلى السماء.

ثم سحبت يده بعنف. دار في مكانه بسرعة. تخيل نفسه منذ اللحظة الأولى أنه في كوريدا. في مكان واسع ودائري، لا حدود له. ثم ضمها حتى التصقت به كليا. انسحب فجأة تبعته. أخذها من يدها، ثم رماها بعيدا. دارت في مكانها تبحث عن أي جسم تلتصق به. دارت ثم انزلقت نحوه بسرعة، كأنها ثور الكوريدا. تفادى مرورها. لمس يدها بنعومة ثم تركها تمضي في شكل دائري. تبدو بعيدة قليلا. مد يديه نحوها وهو يقترب منها بحركات محسوبة كأنه يواجه ثورا في حالة فورانه الكبيرة، في لحظة الاستوكادا. وهي تقترب منه بهدوء. دارت حوله بحسب الإيقاعات المتتالية الدقيقة. رفعت لباسها عند ركبتيها، ورفعت إصبعها، ثم كررت مع الصوت العميق والمخنوق الآتي من عمق الأسطوانة.

الحب طفل حر،

لم يعرف أبدا قانونا.

إذا كنت لا تحبني، فأنا أحبك.

وإذا أحببتك فاحذر مني.[1]

- مجنونة. كيف جئتِ؟ كيف تركك غارسيا، زوجك؟ فهو كماشتك وهالوك قلبك وجسدك؟

- انتهى. كنّا على خلاف كلي. كل غضبي منه، ليس غيرة عليه، ولكن يستخف أحيانا بعقلي، وهذا ما لا أتحمله. يقال إنه يتعامل مع الأمن وأصبح مثل المخبر. فيه كل الصفات السيئة إلا أن يكون مخبرا ضدنا، لا أتصور. بل أستبعده. الكثير من الناس رأوه في جبل الأسُود. ماذا يفعل هناك؟

1. L'amour est enfant de Bohême, il n'a jamais, jamais connu de loi; si tu ne m'aimes pas, je t'aime si je t'aime, prends garde à toi!

- ماذا يهرب؟ مخدرات؟

- لا أعتقد. ربما أسلحة.

- ههه. تمزحين. لمن؟

- للثوار. أندباندانتيست[1]

- أنت لستِ جادة.

- لا حبيبي جادة جدا. لا نلعب في مثل هذه الأمور.

- لا أدري من أين جاءتك كلمة أندباندانتيست؟ أول مرة أسمع بها. على كل أنا أكثر من سكران، ولا أفهم معنى هذه الكلمة. أنت تقولين ثوارا وأندباندانتيست ، والسائق الذي أتي بي من حي لاكاليرا ينعتهم بالإرهابيين؟ وربما غير موجودين أصلا، والناس هم من يضخم الأشياء.

تمددت أمامه. كانت ناعمة. مد يده إلى جسدها. أغمض عينيه. شعر بالدوار يكبر وكأن الأرض تدور عكس مدارها. نصف دائرة على نهديها قبل أن يضع الحلمتين الموردتين بين أصابعه ويغط عليهما بنعومة. تغيرت ملامحها وانتفت نظراتها نحو فراغ لذيذ مليء بالألوان. الجسد لم يعد ممتدا. صعد قليلا في الوسط، مخلفا تحته نصف دائرة من الفراغ. تمتم.

- لماذا أنت جميلة إلى هذا الحد؟

- لتحبني لدرجة العبادة. لأنك تمثالي الحي.

- لو تدرين؟

- لا أريد أن أدري أكثر من هذه اللحظة، فهي الشيء الوحيد المؤكد.

ما عداها مجرد احتمالات.

---

1. Indépendantiste. انفصالي

تأمل الجسد المسجى. برأس إصبعه الناعم، رسم دوائر كثيرة. رآها وهي تركض في الفراغات المليئة بالضباب والغيم. لا يعرف من أين جاءت كلمات لوركا التي يحفظها بقلبه؟ **المرأة المسجاة**، تماما في نفس وضعية أنجلينا[1]. أو على الأقل هكذا تخيلها.

كلما لمحتك عارية، استيقظت الأرض فيّ
أرض ناعمة، بلا حوافر الخيل.
بلا قصب، أناقتها صافية.
مغلقة على الآتي، بحدود الغيم.
وأنت عارية، أفهم معنى شهوة المطر
إذ يبحث عن جسد صقيل وهش.

...

بطنك معركة الجذور
شفتاك فجر بلا حدود
وتحت وردة السرير الدافئة
يتأوه الموتي، ينتظرون دورهم.
يتأوه الموتى.

عندما رسم دائرة أخرى على سرتها، التي يحيطها وشم يشبه شمسا محجوزة في دائرة، صعدت أكثر بظهرها، حتى ارتشق نهداها في سماء دافئة. تمتمت... يا الله ما أجمله هذا الإنسان الرقيق... لوركا... يتأوه الموتى في انتظار دورهم... أنتظر دوري حبيبي.

---

1. CASIDA DE LA MUJER TENDIDA
Verte desnuda es recordar la tierra. La tierra lisa, limpia de caballos. La tierra sin un junco, forma pura cerrada al porvenir: confín de plata. Verte desnuda es comprender el ansia de la lluvia que busca débil talle, o la fiebre del mar de inmenso rostro sin encontrar la luz de su mejilla....Tu vientre es una lucha de raíces,tus labios son un alba sin contorno, bajo las rosas tibias de la cama los muertos gimen esperando turno.

تمتم وهو يغيب في رقبتها الناعمة، وأذنها اليسرى ثم اليمنى بلسانه.

- من الميت يا أنجي؟ ومن ينتظر دوره؟

- لا أريد أن أعرف. حذني إليك حبيبي. خذني بلا انتظار. خذني. ممتلئة بجنونك.

15

رفع خوسي أورانو رأسه عن جريدة ليكو دوران[1]، وفكر في لحظة من اللحظات أن يضرب رأسه على الحائط حتى يدميه، أو يفجره نهائيا.

ضرب على الطاولة بعنف كمن يحتج ضد نفسه وجسده.

« - لماذا فعل ذلك؟ لماذا لم تخبرني؟ هل أنا غبي إلى هذه الدرجة؟ ماذا أساوي في عينيها؟»

كانت المفاجأة ثقيلة بوزن الحب الذي يكنه لأنجلينا.

لم يصدق خوسي عينيه. شعر بوجع في القلب. بمرارة تشبه مرارة الخيانة.

شعر كأنها خانته في كبريائه وثقته. غجرية كبقية الغجر؟ لم يقلها لكنه فكر فيها. الوفاء يبدأ من حركة أو كلمة أو حيرة.

أقنع نفسه وهو محني الرأس ينظر إلى صفحة جريدة ليكو- دوران التي تراكمت حروفها فوق بعضها البعض فجأة، ولم يعد قادرا على تفكيكها وفهمها. قلّب بانفعال وبسرعة صفحاتها. توقف بصره مرة أخرى عند الصورة والعنوان: زباطا، مربي ومدرب ثيران الكوريدا المزيف، مهرب أسلحة ومناصر للانفصاليين، في قبضة الأمن والعدالة.. لم يصدق ما رأته عيناه. تأمل الصورة جيدا.

« - هو، زباطا، ولا أحد غيره. هل يعقل؟ أكاد أجن؟ مهرب للأسلحة؟ لابد أن تكون العملية مجرد تصفية حساب ضده، الرجل واع

1. L'Echo d'Oran.

ومثقف وثوري حقيقي وأصيل لا يمكنه أن يقف مع الإرهابيين في نفس فترة تفجير فندق مارتنيز. وشاية مدسوسة ضد الغجر؟ هل الغجر بهذه الوضاعة ليبيعوا بعضهم بعضا بأربعة فرنكات؟»

دار داخل الغرفة كما المجنون الذي لا يعرف أي طريق يسلك. كل شيء تحول إلى ظلام دامس، وأصبح هو أعمى داخل مساحة من الفراغ لا يدري في أي هوة سيسقط؟

« - لماذا صمتت أنجلينا ولم تخبرني؟ استعملتني بغباء؟ الغجري يبقى غجريا في أعماقه مهما حاول التنصل. المال ولا شيء غير المال والتهريب؟ لماذا يا زباطا؟ ماذا كان ينقصك؟ تربية وتدريب الثيران أغنتك، وتقاعدك كبير. لم تكن فقيرا لتبيع الأسلحة لقتل الأبرياء. قنبلة في مقهى فندق مارتيناز أخذت في طريقها عشرة أفراد أبرياء كانوا في لاتيراس يشربون قهوة أو بيرة، بسلام؟ ماذا فعلوا ليلحقهم مصير قاس كهذا؟ ماذا فعلت يا زباطا؟ ثقافة عالية وتنحط إلى هذا الدرك؟

انزلق لسانه. لم يعد قادرا على التحكم في داخله.

" - لا أفهم رب هؤلاء الغجر."

قبل أن يرفع رأسه ولا يرى إلا بياض الحائط. كانت دقات الباب الخفيفة قد تسارعت. أول شيء قام به هو أنه زحلق الصحيفة تحت السرير. من يدري؟ من يدق في هذا الوقت غير الشرطة؟

ثم سمع صوتا كأنه صرخة استجداء

- حبيبي افتح بسرعة. افتح. أنا أنجي.

ركض نحو الباب. فتحه.

ارتمت في حضنه بكل قواها. بينما ظل جامدا كصخرة بركانية ميتة، مرت عليها شهور وسنوات وقرون.

نظرت إلى وجهه البارد:

- حبيبي. أخذوا أبي بتهمة تهريب الأسلحة. أخذوا بابا، هل تسمعني؟ حائطي الذي أسند عليه خوفي وعزلتي وآلامي.

- أريد فقط أن أفهم. اهدئي قليلا واشرحي لي.

حاول أن يهدئ من روعها على الرغم من النار التي كانت تشتعل بداخله، والتي كان من الصعب عليه السيطرة عليها.

- ماذا حدث؟ أنا أيضا أريد أن أفهم يا أنجي.

- كأنك يا خوسي خارج المدار؟ لا تعلم ما يحدث على هذه الأرض

إلا يوميات الثيران. افتح عينيك. العالم منقلب وأنت كأنك تعيش خارج هذه الأرض.

- كنت أقرأ في ليكو وعرفت أن زباطا أخذ إلى السجن.

- خانه الكلب غارسيا بسببي. لم أتوقع أن يفعل هذا. كنت دائما أظن

أن العشرة وأخلاق الغجري تمنعه من ذلك. غارسيا لم يسامحني أني معك، وأنك حبيبي، وأنه لم يعد يعني لي أي شيء في حياتي. خرج منها إلى الأبد. كرهني وكرهته أكثر. هو من وشى بزباطا، أبي حبيبي. هل تعرف ماذا يعني هذا؟ المؤبد أو المقصلة التي أخرجوها إلى الحياة من جديد.

ظل أورانو جامدا في مكانه، لا يعرف كيف يتصرف. وكانت أنجلينا في حالة خوف وضياع. انتابته رغبة صفعها بعنف لتتوقف عن سخريتها به، وعن هذيان لم يعد قادرا على تصديقه.

لم يستطع أن يقول أي كلمة.

– لماذا تحولت إلى صخرة؟ ماذا حدث؟ أنا أحدثك عن المقصلة وأنت تنظر نحو الفراغ بعيون لا ترى شيئا؟ قلت لك إن والدي سيعدم إذا لم أدركه. في أحسن الأحوال المؤبد. قل كلمة يا خوسي، أية كلمة. قل يلعنك؟ قل ما أبخسك؟ اشتمني، العنّي، اقتلني، لكن لا تذبحني بصمتك المشبوه. أنا امرأة من بارود، يمكنني أن أشتعل بلمسة. المسني؟ قل حبيبتي؟ قل قلبي معك؟ اكذب عليّ، أحتاجك أن تكذب علي في مثل هذا الظرف الصعب والقاسي.

بدا لها خوسي باردا كجسم ميت.

شعر بفمه جافا عندما خرجت أولى كلماته ثقيلة مثل الرصاص.

– ماذا أقول؟ ما دعاه إلى كل هذا؟ لا أفهم. ألم يجد مهنة أنبل من تهريب الأسلحة، ولمن؟ للإرهابيين، يا إلهي؟ أين نحن؟ كيف يقف مع قتلة الناس البريئين؟ هل هو في صفنا أم في صف الإرهابيين والقتلة؟ أهله؟ كيف يقبل أن يقتل فرنسيين مثله؟ ماذا ربح؟

فجأة احمر وجه أنجلينا حتى كاد ينفجر.

– اخرس. غبي. لا تنزل لتحت أكثر من هذا، لأني بعدها لن أتحمل. سأكرهك أكثر مما كرهت غارسيا.

– دم ضحايا فندق مارتينيز ما زال ما برد؟ لن يذهب هباء. قد يكون والدك هو من منح العصابة أسلحة القتل. ما المانع مادام يتاجر فيها. يحمل على ظهره أرواحهم حتى يوم موته.

– اخرس أرجوووووك. لا تدفعني للمستحيل. رأسي سينفجر.

– أعرف أن الحقيقة مؤلمة لنا جميعا.

قالها ببرودة وكأنه لم يكن معنيا بما حصل.

– يا إلهي هل هذا هو خوسي أورانو الذي عرفت وأحببت؟ كم تبدو بليدا. لا تتحدث عن شيء لا تعرفه. خليك مع ثيرانك. والدي ليس ثورا

يقدم عنقه للذبح بسهولة. لقد قضى العمر كله يدافع عن إنسانيته. تجربته مع الحيوانات كانت أنجح وأنبل من تجربته مع البشر. اسكت أرجوك، أنت تقتلني بجهلك.

- أعرف أن كلامي مؤلم لأنه الحقيقة.

- أية حقيقة تعرف إلا حقيقة الثور الذي يقضي كل وقته في الظلمة استعدادا لدخول كوريدا الذبح والموت؟

كانت ترتجف. بقيت للحظات تنظر إلى وجهه بصمت، كأنها تحفظ ملامحه للمرة الأخيرة. وقفت ثم بدأت تبتعد عنه بعد أن انتابها إحساس غريب سيطر عليها بقوة، كأنها لا تعرفه. مسحت عينيها. دخلت إلى الحمام. غسلت وجهها بسرعة، ثم عادت لتجلس على الكرسي بصمت يشبه صمت الجنازات، قبالة خوسي.

- ممكن أسألك سؤالا بسيطا وغبيا، قبل أن أخرج؟

- أشبعتني شتما، هل بقي لإذني قيمة؟

- هل أنت حقيقة خوسي الذي أحببته بكل قواي. الرجل الوحيد الذي لم أخنه في حياتي، لأني سكنت فيه وسكنني ويراني في كل ثانية بكل عريي؟ لا أخافه، كلما نمت على ذراعيه شعرت بأني أنام في عمق الجنة. ألم يكن من الأفضل أن تضمني إليك وتمسح على شعري؟ وتسأل عن جرحي وتحاول أن تفهم ما حدث؟ كما يفعل المحب؟ حتى أنت يا خوسي تشبههم في كل شيء؟

شعر بالارتباك. ضاعت منه كلماته. كان جرحه عميقا، لكن وجع أنجلينا كان أفظع.

أحس بشيء غريب في داخله، وبأنه سيفقدها إلى الأبد. اقترب منها، ابتعدت. حاول أن يلمس يدها الموضوعة على خدها بدفء، لكنها رفضت. تحاشت النظر إلى وجهه وعينيه.

- تعرفين يا أنجي كم أحبك، ولا أريد أن يتلطخ اسمك بهذه الصفقة من الأسلحة المهربة لقتل الفرنسيين.

- تشعر أنك فرنسي؟

- نعم. وأنت أيضا لم تنزلي من المريخ. أليست الإدارة الفرنسية هي التي خلصتك من وثيقة الأنتروبوميتريك، وضمنت لك الاستقرار، وجعلت منك مواطنة كاملة؟

- جاهل وأمي حقيقي. تعرف بماذا أحس الآن؟ أتمنى أن أغسل كل ذرة من ذرات قلبي من حبك؟ باستثناء قتل الثيران، ماذا تساوي؟ قرن ثور يدافع عن نفسه بكرامة، أفضل منك. كنت هنا قبل إدارتك الفرنسية. هل نسيت بسرعة أنك مواطن من الدرجة الثانية؟ مجرد كاراكول؟ من يبس أرحام نسائنا؟ طبعا لم تسمع لا بالدكتور جوزيف منجل[1]، ولا برافينزبروك[2]؟ من سلمنا للقتلة لإبادتنا؟ من رمانا بين أيدي أطباء مجرمين ليجربوا علينا غازاتهم التي قتلتنا وقتلت اليهود؟

- هل تقبلين بجرائم الإرهابيين؟

- حدد لي من هو الإرهابي؟ من يقتل الناس يوميا بالآلاف، بالغازات السامة والطائرات والدبابات، أم الذي يدافع عن حقه الأدنى في العيش؟ لا أقبل. أنا ضد القنابل التي تقتل الأبرياء، لكني، لا أشعر بأي انتماء لناسك، ربما لأني لا أساوي الكثير في حساباتهم، مجرد غجرية ضائعة على أرض ليست لها، ولا تريدها. ليس لي ما أدافع عنه سوى قلبي وحبي للناس الذين يشبهونني في بساطتهم. ليس لي الحق حتى في شبر واحد على هذه الأرض لأنام أو أدفن فيه، لماذا تريدني أن أكون شبيهتك؟

وطني العراء،

وملكي كل ما بين الفضاء والأرض،

1. Dr Josef Mengele.
2. Ravensbrück.

وغطائي سماء بلا لون ولا حد،

ألونها كما أشاء، لحظة ما يأمرني قلبي، ويقيني.

ليس هذا كلامي. كلام جدي الأول ريكاردو البيازي الذي رفض أن يكون مودخار[1]، فاختار الهجرة نحو هذه الأرض التي لم يسبقه إليها الغزاة. لأنك سيد قلبي، ومقامك في الأعلى قبل هذه اللحظة، لا أريد أن أراك تنزل أكثر. لا أشبهك، فقري يشبه فقر أهل سوق الكوريدا. لا أشعر أن لي جنسية إلا جنسية من عبّدوا أرض الله بعظامهم. نحن من عجينتين مختلفتين.

كأنه شعر بخطئه. حاول خوسي أن يترزن قليلا.

- لكن والدك يقتل الناس بعمله هذا؟ ألا تدركين خطر ما قام به؟ أكاد لا أصدق ما حدث. كنت أظن زباطا رجل مبادئ. كل ما قاله كان مجرد تسلية، على ما يبدو؟ أو سخرية من سذاجتي.

صمتت قليلا. نظرت إلى وجهه طويلا بصمت.

شعرت بضيق شديد في أنفاسها.

- اسمعني جيدا. من الأفضل أن تصمت. أعتقد أنك كلما أضفت جملة ابتعدتَ أكثر. أبي، إيميليانو مع الحق، وضد القتل. ولا يحق لك أن تحكي عنه أي شيء. أبي تربى على رفض الظلم. ما هي مبادئك أنت يا متادور وهران العظيم؟ أن تقتل الثيران وتنام مع المعجبات كل ليلة؟ وتتلذذ حتى الغثيان من كثرتهن؟ يأتين نحوك لأنك تمنحهن يقين الشهرة. في الصباح يتفاخرن: أنا حبيبة خوسي أورانو، ونمت معه؟ بل هناك من تذهب إلى أبعد لتثبت أنها الأقرب: هل رأيت الخانة الكبيرة تحت سرته؟ لا يهمني ولم أعد معنية بهذا. معنية بنفسي فقط وبوالدي.

- أنت لم تفهميني.

---

1. المدجّن Mudéjar. الموريسكي الذي اختار البقاء في الأندلس، عندما سقطت غرناطة.

- أنت نصف أعمى. ترى كل شيء بعين واحدة؟ ما رأيك في جثث الشباب الذين عرضوهم قدام سوق غارغينتا؟ الخبر موجود في نفس صحيفتك التي لم تر فيها إلا خيانة والدي. انظر جيدا وسترى جثثهم مسطرة عند مدخل سوق غارغينتا. وكتبوا تحتهم ما يريحك.

« **جثث الإرهابيين الذين نفذوا عملية مارتينيز** » ويقال إنها جثث أناس جاؤوا بهم من حواف الحي القصديري، سيدي الهواري، بشكل أعمى، فقتلوهم وسطروهم عند مدخل سوق غارغينتا ليبقوا درسا لمن تسول له نفسه أن يفعل ما فعلوه؟

ثم صفقت بيديها وهي تقوم من مكانها، وهي تقهقه مثل مجنونة.

- برافو كوراثون ميا[1]. من قال لك إنهم إرهابيون. ما رأيك في القرى التي تحرق يوميا والتي رأيتها أنا ووالدي وأصدقائي، ما تزال النيران مشتعلة فيها ربما إلى اللحظة، والحيوانات مقتولة أيضا ولا حركة ولا ريحة بشر، هجروا النساء والأطفال، وأخذوا الرجال صوب جهة مجهولة. ويعلم الله أين تم أخذهم وإلى أي مصير انتهوا؟ ولا حتى أين دفنوا؟ ألا يحركك هذا؟ ولكن... كيف يحركك وأنت لا تراه. بل ترفض أن تراه. سامحني حبيبي، نسيت أنك فرنسي، ولستَ كاراكولا ناعما.

- كفي من السخرية. لا علاقة لهذا بهذا. في دمي أجدادي الأندلسيون. لكني لست في حرب هويات؟ ليست لي إلا جنسية واحدة لا أكثر، هي الفرنسية. كبرت فيها، وأموت فيها.

- من يمنعك؟ متْ، واترك الناس يموتون في هوياتهم. لا هوية لي إلا هوية الحق، الباقي أتركه لك. استمتع به. نعم ليست لي مشكلة هويات. لا وطن لي أصلا لأدافع عن هوية أو حدود؟ أجدادك الأوائل رفضوا قانون كريميو في 1870، قبل أن يُفرض عليهم بالقوة. هل تلومهم لأنهم رفضوه، قبل أن يجبروا عليه؟ هويتهم كانت في الأرض التي عاشوا فيها، ومنحتهم الحياة الكريمة. لماذا سرقوا منهم كل ذلك بقوة قانون أعمى؟

1. برافو يا قلبي.

عليك قبل أن تفتح فمك أن تجيب عن أسئلة الألم التي أيقظتها. لم أعد أعرفك.

- تعرفين بأنني علماني، وعلاقتي بالأديان ضعيفة. كان فيها خير قبل آلاف السنين، اليوم تغير كل شيء. لم تتطور بتطور الإنسان. اختارت التثبت على أرض قاحلة. لكني حزين. أبو صديقتي وحبيبتي والمرأة التي أحببت بجنون، مهرب أسلحة؟ لا أصدق. في أي أرض أنا؟ يؤلمني أن يوصل نفسه لهذه الوضعية الصعبة. لا نستطيع حتى الدفاع عنه.

- ومن طلب منك الدفاع عنه؟ سأدافع عن أبي وحدي حتى الموت. منحني عمره، أمنحه ما ينجيه من المقصلة حتى ولو قدمت رأسي بدله. وسأجد أكبر المحامين هنا، في إسبانيا، في باريس لإنقاذه. لن أسلم في والدي أبدا. سآتي بالنقود من أي مكان، حتى ولو اضطررت إلى السرقة، أو ارتياد الشوارع كما الكثيرات. لي جسد مشتهى، ما يزال يغري الرجال.

- أنجلينا. لا تكوني مجنونة. أنا لم أقل هذا. أنا حزين عليه أيضا.

- أنا مجروحة منك يا خوسي، ومن بؤسك. في النهاية من أحِبُّ لا يختلف كثيرا عن الآخرين في تقييمهم للغجر.

وضع رأسه بين يديه محاولا أن ينسى الصورة. رجل بشوارب زباطية في الأدغال، محاط بكل أنواع الأسلحة الفتاكة وكأنه سيخوض حربا بلا هوادة.

- افهميني. أنا عاجز. رجل يعيش حياة طيبة. متقاعد. في مدينة من أجمل مدن العالم. ماذا يريد من الحياة ليهرب الأسلحة؟ ولماذا تهريب الأسلحة؟ ترسانة؟ منظار. قنابل يدوية. سلاح أتوماتيكي. تعبئات رصاص. أحزمة من رصاص البازوكا. متفجرات. بنادق كثيرة. ألا يعرف بأنها سترتد إلى صدور الناس الذين لا ذنب لهم، وربما عليه هو أيضا، في مدينة متأكد من أنه يحبها مثلنا جميعا؟

- ألا تتوقف؟ يكفي من خزعبلاتك. أنت لم تفهم شيئا. أنت تنظر في الفراغ بعقلية الثيران. تفسر كل شيء بمنطق الزوايا المظلمة غير المحسوبة، لتفادي الضربة القاتلة أو ردة فعل الثور. والدي حبيبي ليس ثورا. إنساااااااان. إنسان بكل معاني الكلمة، لهذا سأرفض، ولن أتركهم ينفذون الإستوكادا الأثيرة عليه. لابد أن تعرف يا خوسي قبل أن أخرج من هنا إلى الأبد: إيميليانو رجل المبادئ وليس ثورا.

قالتها بشكل بارد، وهي تسحب من الحائط، الفولار الأحمر، وتضع على السرير ورقة نقدية من 100 فرنك.

- ماذا تفعلين يا مجنونة؟ أنجي؟

- لا شيء. أسدد ديني قبل الانسحاب، وأسترجع ما لي.

قالت وهي تضع رأسها بين يديها.

- ماذا لو علمت أن أنجلينا مهربة أيضا؟ وأنها تشبه والدها في تعاطفها مع الإرهابيين؟ هل كنت ستغفر لها أم تقتلها؟

صرخ. بلا أدنى تفكير.

- أقتلها.

نظرت إليه بعينيها الغجريتين المائلتين الحادتين. وسحبت سكينها. وضعتها على الطاولة بعنف.

- خذ. افعل ما يفعله الأغبياء الذين لا لغة لهم إلا الموت، مثل الكثيرين عندنا. أدخله عميقا في القلب نهائيا وأنا أنظر في عينيك بلا صراخ ولا ألم. ارضِ كبرياء القاتل فيك. دعني أخلص من ربع حياة لا تساوي جناحي بعوضة. الحياة التي رأيتها معك وحلمت بها، شيء آخر. شيء أصبح بعيدا.

سيل من ماء الغيم.

يتسع، وعندما يفيض يروي الأراضي اليتيمة.
دمنا بحرارة الناس يسري في الحقول،
وضياعنا وطن لا يعرف الخوف.

لا يملك شيئا، فماذا سيخسر؟

- أنجي. حبيبتي، أرجوك. ليس هذا قصدي. أنا أعبر فقط عن دهشتي مما أخفيته عني البارحة.

- هذه ليست دهشة. هذه إهانة. وتعرف ماذا تعني لي الإهانة؟

ثم أخذت السكينة بعنف مرة أخرى، ورشقتها على الطاولة الخشبية، لدرجة أن جرحت كفها. فسال الدم غزيرا.

- أرأيت هذا الدم؟ هو أرخص الدماء. أبناء وبنات الريح. تقتلني، لا أحد يحاسبك. افعل. خلصني مما أراه وأعيشه. مجرد غجرية وفوق هذا مهربة أسلحة؟ ربما تعطى درعا وطنيا كبيرا من مرتبة الشرف، لأنه بفضلك ستعيش الأمة بخير، بعد أن قضيت على الإرهابية أنجلينا، ابنة الإرهابي إيميليانو المدعو زباطا.

- أنا لم أقل هذا.

- أنا أقوله في مكانك، ولا أنتظرك أن تذبحني به. اقتلني لترتاح. هل تعلم أنك الرجل الوحيد الذي لن أقاوم جريمته؟

اقترب منها أكثر. أخذ يدها، نزعتها بعنف. حاول أن يلمسها على خدها الأيسر، ويعتذر منها. نزعت يده بسرعة حتى قبل أن تصل وجهها. كأنها تستعد لمعركة دموية. نظر إلى عينيها لم يستطع أن يتحمل النار التي كانت تشتعل فيهما.

- اقتلني. أنا أطلب منك فعل ذلك، لكن لا تهني، لا تحتقر والدي، لأني وقتها أفقد أعصابي وأتحول إلى ذئبة كريهة.

- أنجلينا. أرجووووك. تعرفين أني أحبك ولن أفعل ذلك؟

- سأخونك مع أي ضابط تافه، فقط لكي تتشجع وتقتلني.

- لن أفعل.

- وقتها سأعرف أنك لم تعد تحبني وسأقتلك أنا.

- أنجي...

- مسني في عيني، لكن والدي لا. أنت لا تعرف شيئا عنه. كان رجلا عظيما. ذهب حتى المكسيك فقط ليقف على قبر زباطا. سجن أكثر من مرة. ترك عمله واشترك في الثورة الإسبانية من عشرين سنة. آمن حقيقة بالثورات الشعبية لا ثورات الصالونات. لا يحب القنابل التي توضع في المقاهي وتقتل العشرات من الأبرياء، لكنه على العكس منك، يرى أيضا بعينه الثانية جرائم الذين سمحوا لأنفسهم بكل شيء، سرقة الأراضي، القتل المجاني، التشريد، قنابل النابالم في الجبال التي رأيناها. على العكس منك، نحن نجوب البلاد طولا وعرضا، ونعرف أنفاس الذين لا تعرفهم. ابق مع ثيرانك حبيبي، ومع عشيقاتك؟ لكن لا تلم من لا تعرفهم.

صمت خوسي للحظات. شرب كأس ماء. سحب الجريدة من تحت السرير ثم اقترب منها:

- اعتبريني جاهلا يا أنجلينا. ماذا يستفيد زباطا من تهريب الأسلحة النارية. هو الآن في السجن وقد يحكم عليه بالإعدام. ماذا سيقول لهم؟ قبل أن يجرح أطلق عليهم النار وسمح لكل الأحمرة المحملة بالأسلحة أن تتوغل في عمق الغابة؟ بينما المحملة بالمواد المهربة كالزيت والحبوب والمخدرات، احتفظ بها معه ليوهمهم أنه مهرب مسالم من أجل لقمة العيش. عندما سألوه أين اخفى الأسلحة، نكر. ما عدا بندقية صيد قديمة، كان يحملها معه، عندما سئل عنها، أجاب، للدفاع عن نفسي في عالم أصبح غابة. ماذا كان يفعل في جبل الأسود؟ قال إنه كان ينتظر من يأخذ منه المواد المهربة من سكان القرى المعلقة على الجبل التي

أ مرقوا كل أراضيها، وكان يزود أيضا المقيمين في كنيسة سانتا كروث، ما يحتاجون إليه من حاجات غذائية كما تعود أن يفعل مرة في الأسبوع. قالوا له إن أحد الغجر المقربين أبلغ عنه، غارسيا. قال لا أعرف عمن تتحدثون. أروه صورته. هز رأسه وأجاب: أعرفه. مغن فاشل، وراقص فاشل، وزوج فاشل في فرقتنا. أعرفه طبعا. إلى الآن لا أفهم فعلته. تهريب أسلحة؟

- يبدو أنك قرأت ليكو دوران العمياء، وصدقتها. اقرأ تحت. انزل عينيك قليلا وأنظر إلى الأجساد الممددة، كأنها مجرد أكياس قمامة. لا تر بعين واحدة. المهم أنهم لم يقبضوا معه على شيء. سكان الدير، وكنيسة سانتا كروث، شهدوا لصالحه.

- لكني منزعج، بل غاضب منه لأني أحبه، وأشعر كأنه خدعني في ثقتي فيه.

- اسمعني جيدا إذن. وحتى لا تبقى في الوهم. والدي مثل زباطا. مؤمن بالحق حتى العظم. يشتري الأسلحة لجيش التحرير. ما يسمونهم الإنديبندنتيست. الانفصاليين. ويسمهم والدي بالثوار. ليس مهربا من أجل المال. هو أكثر الناس هزءا بالمال. فعل دوما ما اختاره في حياته. ولكنه يُشغِّل الكثير من الغجر معه، ليمنعهم من السرقة. يقول لهم دائما: أريد للغجر الكثير من الحرية، ولكن قدرا أجمل. تآلفوا مع الحياة دون أن تخسروا أصولكم.

- هل أنا في حلم مجنون؟ تقولينها ببرودة دم؟ أنت تسخرين مني.

- خذها كما تشاء.

- هل أنت واعية؟ عصابة تقتل الناس وتذبح المزارعين. وتحرق الحقول. وتضع القنابل في المقاهي؟ أين مخك يا أنجي؟ من وضع القنبلة في سوق الكميل، الشهر الماضي؟

- من وضع القنبلة؟ أنت تعرف ما دمت مداوما على ليكو دوران؟ معتوه كان يريد النقود التي وُعِد بها، وعندما لم يعطوه ما طلبه، نفذ تهديده. القنبلة لم تقتل أحدا، لأنها لم تنفجر. أخبر الشرطة بكل تفاصيل العملية. أخذوه لليلة تعذيب وخرج مجنونا. لكن التهمة ظلت معلقة على الإرهابيين المتخلفين البدائيين. الكثير من الجرائد نشرت الحقيقة إلا جريدتك اكتفت بذكر اسم المعتوه الذي لم يكن عربيا ولا قبائليا. كان فرنسيا حرا مثلك. من اسمه: شارل كابريل.

- لا أفهم كيف انقلبتِ باتجاه القتلة وضد شعبك؟

- أنت مخطئ؟ لا شعب لي.. أنا سيدة بلا شعب. أقطع الفيافي والأراضي. ألتقي بهؤلاء وأترك أولئك لمصائرهم. ثم أعبر باتجاه الجبال وأكبر تحت سماء أخرى مع شعب فيه مني وفيّ منه. لا يحرجني ذلك. في النهاية نحب الحياة جميعا. جزء ممن تسميهم إرهابيين هم شعبي. الصدفة الطائشة شاءت أن أكون فرنسية، وجزء آخر بقي في أندلس سرقوها، والباقي الأعظم هنا. وأنت كم فيك من مواطنة لهذه الأرض التي لم تكن خالية؟ اسأل نفسك قليلا. أرضنا التربة التي تمنحنا الحياة الكريمة ولا تعلمنا الضغينة. تلك تربتنا الكريمة. أحبك. وأحب الكوريدا بفضلك، لكن العالم ليس ثيرانا فقط يا خوسي، وإيستوكادا، وكوريدا، العالم أيضا بشر يموتون كما النمل في كل ثانية ظلما وقهرا.

- لماذا لم تخبريني؟ أراك بشكل شبه يومي، فكيف خدعتني بصمتك؟ لماذا كسرتِ كل شيء؟

- لأقول لك ماذا؟ إن والدي يتعاون مع الإرهابيين والانفصاليين؟ كنت أريد أن أنسى. أن أتوازن. ألا أرمي نفسي في التهلكة. أن لا أخسرك. واليوم جئتك لأستنجد بك لا أن أقف أمام محقق عسكري من درجة حقيرة. أنت حياتك هادئة. وأنا أدخلت عليها فوضاي الكبيرة. فوضى

الغجر الذين لا مساحة لهم إلا قلوبهم. من الأفضل أن أنسحب وأتركك لحياتك كما سطرتها أنت لنفسك تحت أضواء ليست لي ولست لها. يستعصي عليّ ان أكون شبيهتك.

- ومن طلب منك ذلك؟

- اقتلني إذن بسكين، أو بنسياني السريع.

- أريد فقط أن أفهم.

- لا يمكنك أن تفهم إلا إذا نزعت جلدك. وأنت لست مستعدا لذلك. لقد حان الوقت، وعليّ أن أركض. لي موعد مع المحامي. لابد أن أخفف عن والدي. هناك حملة جديدة للتقتيل الجماعي. بدأوا يتهيؤون لها، لإعدام الثوار. أخرجوا المقصلة من جديد من غمدها لقطع رؤوس من ليسوا معهم. قد أكون من بينهم.

- ابقي. لا تذهبي. أرجوك. اتركيني أتدبر الأمر لإخراجه من هذه الورطة. هل أنت متورطة مع والدك؟

- هههه. لن تتغير. أرأيت؟ لن تفهمني حبيبي؟ تسألني عن التورط؟ كأنك لم تفهم شيئا مما جئتك به. أتركك.

- لا، ابقي قليلا، أرجوك.

- أحبك. الله غالب، لا أستطيع شيئا، لكن طريقنا المشترك يتوقف هنا. تمنيت، لو استطعت أن أمحوك في ثانية، لما ترددت الآن. حالة؟ هههه

- لماذا تضحكين؟

- تذكرت خمنيث. هذا الرجل الوفي الذي يحبك بقوة. قال لي أمامك أثناء العشاء في لاكاليرا: احذري هذا الغبي، ما يزال يظن أن العالم ثيران وكوريدا مغلقة على نفسها، وما يزال يحلم بمواطنة عادلة، وأن كل من في غابة الأسُود، وحوش وضباع وذئاب. كان يمزح، لكنه كان محقا وجميلا.

- مجنون. يقول أي شيء في حالة سكر.

- سكران ويعرف الطريق جيدا. وقال أيضا. وهذا لازم تحفظه منه. انا أقوله لك اليوم بلساني وبلساني: «**وهل أنت في نظرهم أكثر من كاراكول[1]؟ يحمل بيته وأغراضه على ظهره. كنتم هنا قبلهم، هل سمح لكم ذلك بأن تصبحوا مواطنين كما البقية؟ لا يا حبيبي الكاراكول، يبقى كاراكولا، حتى ولو ارتدي أحلى الألبسة التي تنمق جسد المنادور.**» ما عليهش. من الأفضل أن أخرج. من هذه اللحظة سأصبح أكثر قبحا.

قامت. فتحتِ الباب. لم تلتفت. ولكنها قبل أن تصفع الباب وراءها بعنف للمرة الأخيرة، قالت.

- هل سألت عن الرجل الذي جاء من العاصمة، سيفاكس إيدير والسيدة التي رافقته؟ غامر بحياته كلها، وجاء ليحضر المقابلة ويراك؟ جاء معنا هو الآن معرض للقتل، وهو صديق صديقك الذي لا تعرف عنه شيئا. ربما كان سيفاكس إرهابيا؟ اسأل الضابط الذي يحرس الكوريدا، سيعطيك ما تريد، ويمكنك ان تعلمه بما دار بينا. قل له إن زباطا مهرب مورّط مع الثوار، وإنه مورّد أسلحة للانفصاليين، بشهادة ابنته.

شعر كأن كلامه لم يصلها، وأن خوفه عليها كان كلاما بلا قيمة.

انغلق الباب بعنف وساد الصمت كليا.

بقي خوسي جامدا في مكانه.

---

1. الحلزون باللغة الإسبانية.

16

رنّ التليفون في الزاوية التي كانت تظللها باقة الورد الأحمر التي جاءت بها أنجلينا آخر مرة. ذبلت قليلا، ولكنه ساعدها بالملح والسكر حتى تستمر أكثر.

ركض خوسي صوبه، لكن التليفون توقف فجأة.

شعر بانقباض شديد في معدته.

مشى خطوتين في البيت، شعر بفراغ كبير.

فجأة انطفأت حركة أنجلينا، في البيت ولكن أيضا في السوق. لم يعد صوتها يسمع ولا سخريتها، ولا حتى عطرها الحاد الذي تصنعه من دبس الرمان، والمراهم الإفريقية، وعطر البنفسج البري، وخلطات لا أحد غيرها يعرفها. تصنعه بيديها برفقة صديقاتها من الغجريات ويبعنه للعم هارون نعوم، اليهودي الذي يأتي من الدرب حتى الكميل، مرة في الأسبوع ليأخذه للبيع. جزء منه يبيعه للدكاكين القريبة التي يعتبرها مورده الأساسي، في أشياء كثيرة يصنعها الغجر، مثل الأطباق، والأدوات الفخارية، والزرابي الغجرية المدقوقة والرخيصة لأنها مصنوعة من الوبر أو الصوف الثانوي. بالنسبة للأنواع الأنيقة والغالية، يطلبها هارون بشروطه ورسوماته فيدفع ثلث القسط، وعندما تصل الزربية إلى نصفها يدفع الثلث الثاني وعندما تنتهي السيدة من إنجاز عملها، يتم الباقي ويأخذ السجاد الكبير الذي يوضع في البنايات الكبيرة والقصور القديمة. من هذه الناحية الكل يقدر هارون نعوم، لكنهم لا يثقون في ابنه كوهين

نعوم الذي لا يدفع أبدا القسط الثالث الذي هو الأكبر. يتحجج بمختلف الحجج: للأسف جماعة القصر لم يدفعوا لي... الرجل غني لكني مازلت أركض وراءه مثل الشحاذ... أغنياء لكن جشعون. حتى الغجر أصبحوا يتعاملون معه بنفس أخلاقه وحيله. تدفع الكل تأخذ السجاد، لا تدفع، سيعرض في سوق الكميل، وفي الدرب، وفي شارع جوفري، في غرغينتا، وعند مداخل الكوريدا لبيعه أضعاف سعره. هناك من يريده. فيضطر إلى القبول وهو يزأر بغضب: **اللي لعن الغجر إلى الأبد لم يكن مخطئا.**

أسبوعان مرّا على غياب أنجلينا، دون أن تترك وراءها أي أثر. ركض خوسي في كل الاتجاهات بحثا عنها، لكن عبثا. لم يعثر لها على أي أثر. لم يكن يعرف أنه متعلق بها إلى ذلك الحد. فقد تركت وراءها فجوة كبيرة في البيت. حتى في السوق، بحث عنها كثيرا دون جدوى. لم يصادفها أو يصادف أحدا من فرقتها. باستثناء النساء اللواتي يبعن السجادات الصغيرة للمصلين والوسائد المطرزة لعشاق الكوريدا ليجلسوا عليها. حينما سألهن، لم يجد أي جواب عندهن. حتى ميغيل سانتوس الذي رآه في مقهى يعزف على البانجو، ويرقص ويغني، هو وزمردة وزوجها، ومعهم قرد لا يسمع إلا لنفسه كأنه أطرش، غير مدرب بالشكل الكافي، مما كان يثير الضحك لدى الحاضرين، لأنه كان يفعل ما يشاء. حتى أنه إنه كثيرا ما أفسد عزف سانتوس بأن يسرق منه البانجو.

حاول ميغيل أن يدخله إلى حلبة الرقص، لكن خوسي رفض. قال له بأنه غير مهيأ لذلك. تجرأ خوسي وسأله، عندما انتهى من رقصته وتجميع النقود.

«- أنا خوسي أورانو، لا أدري إذا كنت تتذكرني. التقينا....

- يكفي يا صديقي. من ترقص معه يصبح صديقا أبديا لك. من لا يعرفك؟ ستسألني عن أنجلينا؟

- تماما. أنا منشغل عليها.

- زوجها السابق غارسيا، كلب حقيقي. دمر الفرقة بكاملها. فقد ورط والدها في قضية لا علاقة له بها. لم يكن مهيأ لها على الأقل. غارسيا حقير بشكل حقيقي، بل وعميل للشرطة، هذا ما يقوله جميع الغجر الذين قاطعوه نهائيا.

- أعتقد أن التهريب هو ما دمر والدها. هل كان مضطرا إلى ذلك؟ تهريب الأسلحة؟ على كل...

- يا سيد خوسي أنت لا تعرف من الأمر إلا الظاهر. غارسيا حاقد على إيميليانو حقدا كبيرا. التهريب شيء آخر، وهو مهنتنا الوحيدة المتبقية لنا للعيش لكيلا نتحول إلى قتلة وسرّاق.

- ليس أنا من يقول هذا. على كل هو متهم بالمس بأمن الدولة وتهريب الأسلحة، وعقوبته الإعدام. وضع نفسه وابنته، بل والغجر قاطبة، في وضعية لا يحسدون عليها.

- لا تقل هذا الكلام يا خوسي، أنت لا تعرف شيئا. أنجلينا، امرأة شجاعة. تواجه قدرها بكرامة. لقد أوقفت الفرقة ومنحت كل مناولها لصناعة الصوف وآلياتها، والعطور، للنساء وكانت قد علمتهم الحرفة، التي أخذتها من أمها ومن جدتها ومن المهاجرين الأندلسيين. انضمت إلى فريق الدفاع عن والدها. لا أحد رآها منذ أن قررت التكفل بالدفاع عنه. واضطررنا أن نشتغل كل بطريقته وإمكاناته، في انتظار عودتها. وجمعنا لها ما استطعنا من مال. يتامى بدونها.. كما ترى يا صديقي. نفعل ما نستطيعه. نحن شعب لا يتكل لا على الدولة ولا أي شيء.

- هل هناك إمكانية للاتصال بها.

- لا أحد يعرف عنها شيئا. اجتمعنا قبل مغادرتها، وقالت إنها ستتكفل بوضعية والدها، ولنا كل الحرية للعمل كما نريد. وسنعاود لم شمل فرقة

الغجر عندما يستتبّ الأمر. بعدها كل اتصالاتها انقطعت. بيتها العائلي مغلق. لا ندري أين هي. قالت لا تبحثوا عني، عندما أعود أعرف اين أجدكم.

– شكرا عزيزي. سأتدبر أمري. ممتنّ. طلب صغير. هل يمكنك أن تمر عليّ في الكوريدا، لأمنحك قسطا من المال من أجل والدها؟

– من أجل هذا سأمر.

– لا تخبرها أرجوك عن مصدر المال. كرامتها كبيرة، وعنادها مدمر. هي مساعدة لدفع المحامي إلى العمل أكثر.

– بعد الظهر أكون موجودا. أترك لك كل شيء في حقيبة، باسمك، مع مادري مارتا.

– أعرفها. لا مشكلة.

الزمن يمر ثقيلا، والخوف يكبر.

رن التليفون ثانية.

ركض خوسي بلا انتظار. كان متيقنا من أنها أنجلينا. لكن الصوت الذكوري الخشن ردعه. وجمده في مكانه.

– سيد خوسي أورانو؟

– نعم. أنا هو. تفضل.

– مركز الشرطة بالدائرة الوسطى لمدينة وهران. أنت متهم بالاعتداء جسديا على شخص اسمه غارسيا بيكينيو. لك أن تأتي وحدك أو برفقة محاميك.

– لا أفهم. ربما أخطأتم؟ من هذا الشخص؟

– لا اعرف. مكلف بتبليغك فقط من الدائرة الأمنية. يقول إنك اعتديت عليه، وسرقت زوجته وابنه. إذا لم تستجب في ٢٤ ساعة بعد

تلقي الدعوة باليد، سيحول ملفك إلى العدالة ووكيل الدولة في محكمة وهران الرئيسية.

- طيب... شكرا. فهمت سيدي. متى أمر عليكم؟

- عندما تتلقى الدعوة لذلك. تصلكم اليوم، بالكثير غدا.

تخيل خوسي كل شيء إلا أن يقف وجها لوجه أمام غارسيا، في مخفر الشرطة؟

عندما وصل إلى المركز، كان مرفقا بمحاميه دافيد غونثالو. لم يفهم عندما طلب منه ضابط الشرطة أن يجلس وألا يتحدث كثيرا. وأن يكتفي بكتابة إفادته.

كان في كلام الشرطي نوع من الضغينة المخبأة في الأوامر.

- يمكن أن تكون ألطف من هذا؟

تدخل دافيد غونثالو موجها كلامه للشرطي ببرودة.

- لا أتعلم الأخلاق منك.

- لماذا كل هذا الانفعال؟ لا يوجد أي مبرر. موكلي طلب للإفادة وهو هنا لذلك، ولا يوجد أمر باعتقاله على ما أظن.

- لولا هذه الشكوى الخرا، لكنت الان مع زوجتي وابنتي في بونا الجميلة. خربت عليّ كل شيء. كلما حدث مشكل، لابد أن يكون وراءه عربي، أو غجري، أو إسباني، هذه حقيقة. تعبنا. لم نعد في أرضنا ووطننا الذي صنعناه بأظافرنا وآلامنا. صراحة فوق طاقة التحمل.

- ألا يمكن سحب هذا الكلام؟ هذه عنصرية معلنة.

- اسأل وهران كلها إذا وجدت من يحب العرب، أو الغجر، أو الإسبان، أنا أقدم رأسي للمقصلة.

– هذه وهران التي تعرفها أنت، المسيجة بالمسبقات، قال دافيد. ليست وهران الواسعة والملونة التي نصادفها كل صباح ونحن نتوجه إلى العمل، أو في الأسواق. الذي لا يتحمل شمس هذه المدينة وألوانها، ما عليه إلا المغادرة.

كان أورانو صامتا ومشدوها في كلام الشرطي؟ يتتبع محاورته العنصرية مع دافيد غونثالو، قبل أن يعيدهما إلى قضيته التي دعي من أجلها.

– لكن هل لي أن أعرف ماذا حدث بالضبط؟

– هناك شكوى مقدمة ضدك من السيد غارسيا بيكينيو، يقول إنك أخذت زوجته بالقوة، وأنك أهنته واعتديت عليه بالسلاح الأبيض. يمكنك أن تقبل بهذا أو ترد عليه. شأنك. وظيفتي أن أشرف على إفادتك وأنك وقعتها، بعدها سترى كل شيء مع وكيل الدولة.

هز خوسي رأسه طويلا، مستغربا من كل الفصل الذي كان يعيشه، وهو آخر ما كان يمكن أن يتوقعه.

– هذا جنون حقيقي، أكبر من الكذب.

– سيد خوسي أورانو أعرف أنك متادور معروف في وهران، ومحبوك كثر، لكنه ليس شأني، أنا هنا لاستقبال إفادتك كما فعلت مع غريمك، بعدها القضاء هو الذي يفصل في الخلاف. ربما كنت في حالة سكر، فاعتديت عليه، ولا تتذكر؟ هو يصر على أنك كنت فاقدا لعقلك، وأنك جرحته في وجهه بسكين حادة.

– في أي وقت اعتديت على هذا المجنون؟

– قبل يومين على الساعة الواحدة. ليس بعيدا عن الكوريدا.

– في ذلك الوقت بالضبط، كنت في المارشي أبحث عن أنجلينا الضائعة إلى اليوم. والتقيت ببعض أعضاء فرقتها. ويمكنهم أن يشهدوا. هذا لا يشبهني يا سيدي.

- اذكر كل هذا في إفادتك بالتفصيل.

تدخل المحامي مساعدا خوسي على كتابة إفادته بشكل جيد.

- طبعا لا علاقة لي بهذا الشخص. أصلا لم أره إلا ثلاث مرات، أعتقد، لا أكثر. لا شيء يجمعني به أبدا.

- على كل سترى ذلك مع وكيل الدولة.

- حقيقي مجنون.

قال خوسي أورانو بدهشة وهو يحاول أن يتعقل قليلا.

كانت حيرته كبيرة. هو لم يره إلا مرات قليلة ولا علاقة له به. لماذا يتهمه هو تحديدا؟ ألم تختر أنجلينا طريقها كما شاءته هي؟

- لم أسرق منه زوجته. هي ليست مراهقة.

- تعرف حكاية الغجر... لا رب لهم ولا نظام.

قال الشرطي بشكل ساخر.

- لا يمنعها ذلك من أن تكون امرأة كبيرة. قال خوسي أورانو. لا علاقة لها بهذا الوغد الذي لم يعرف أن يحافظ عليها. فقد غادرته طوعا ولم تعد زوجته. وقد افترقا منذ مدة طويلة.

- على كل أنت ممنوع من مغادرة المدينة، وحتى أرض الوطن، حتى تتم تصفية هذه المشكلة. اترك إفادتك ستوجه إلى الجهة المسؤولة التي ستتصل بك وبمحاميك. يمكنك أن تذهب.

كان رأسه ثقيلا ويكاد ينفجر عندما غادر دائرة الشرطة المركزية متجها نحو غارغينتا.

في الخارج، كانت الحركة كبيرة. عندما دعاه المحامي أن يذهب معه نحو أقرب مقهى ليتما الحديث، اعتذر.

- أشعر بضيق كبير عزيزي دافيد غونثالو. تخيل، فوق ظلم غارسيا المجنون، العنصرية المجانية التي تكشر بأسنان صفراء.

- الناس هكذا يا خوسي. العالم، في هذه النقطة لم يتغير إلا قليلا.

منذ أن بدأت العمليات الإرهابية، صاروا يخافون من كل ما ليس فرنسيا أصليا؟

- أنا لا أفهم ما معنى الفرنسي الأصلي.

- لو كنت قادما من أية مدينة فرنسية لتغيرت النظرة إليك؟ ما بالك أن تكون عربيا أو غجريا؟

- نعم. أنا ولدت بوهران وكبرت فيها. وهران ليست إسبانية، فرنسية بامتياز. ربما كانت في الماضي، لكن لا يمكن لهذا الماضي أن يبقى خالدا أبدا. لا يمكن لعظام نخرة أن تسير عالما جديدا.

- لغتهم ترجعك إلى أصلك الأول. يخلقون منك عدوا لنفسك، حتى ولو كنت ترفض بكل ما تملك من قوة.

- إذن حميدا كان محقا؟

- من حميدا؟

- صديقي حميدا زبانا. عفوا. أنا كنت في مكان آخر. حميدا قال نفس كلامك ولمته عليه، وأجدني الآن موافقا مع ما قاله.

- الحياة هي التي تصنع الإنسان يا خوسي أورانو.

- على كل البشر هكذا. قريب من غارغينتا. أريد أن أمشي قليلا.

اشتغلت معه في أتولييه غارغينتا الحرفية. وهو رجل جميل وطيب، ربما كان ما يزال هنا. او على الأقل أسأل عنه وأسلمه دعوة الحضور لمصارعة نوفمبر القادم.

- طيب، لا مشكلة عزيزي. وهو كذلك، نبقى على اتصال.

واصل ديفيد غونثالو طريقه نحو موقف سيارته حيث أرسى عربته، بينما تدحرج خوسي في الشارع الواسع المؤدي إلى الساحة، ثم سوق غارغينتا الذي يختفي نصفه تحت الأرض.

في لحظة من اللحظات انتابته الرغبة بأن يسير باتجاه سوق لاباستي، ليست بعيدة. يقطع فقط شارع الجنرال لوكليرك[1]، حتى منتصفه ثم يميل شمالا، سيجده بسرعة. لا يسأل أحدا حتى يصادفه وهو يتناقش مع بائع الخضر أو مصلح المفاتيح، أو الخردوات.

فجأة انتابه وجه أنجلينا المنكسر.

" - ماذا لو كانت أنجي صادقة في كل ما قالته؟ لا يمكن للعالم أن يكون سيئا إلى هذه الدرجة؟ "

لا يعرف ما الذي قاده إلى هذا المكان سوى ذكرى بعيدة، أو هربا من عنصرية مقيتة شمها في الشرطي، أو بكل بساطة يريد أن يعبر الشوارع بشيء من الحرية فقط.

فجأة بدت له غارغينتا ببنائها الهش، وسطحها المزدوج العالي، على غير عادتها. صغيرة قليلا، وخالية من حركتها القديمة.

الجو الناعم يضاعف الرغبة اللامحدودة في السير كثيرا، حتى ولو كان ذلك باتجاه الفراغ، لا يهم.

أحنى رأسه قليلا، ثم سار باتجاه غارغينتا.

تأمل الساعة التي تقف باستقامة في ساحة غارغينتا. اقترب منها أكثر. ضبط ساعته عليها. فهي لا تخطئ أبدا، وكأن هناك يدا تراقبها في كل ثانية. يمتد وراءها سوق غارغينتا بكل ثقله، بهندسة هي أقرب إلى المعمار

1. Rue Général Leclerc. Oran.

الصيني، بسطحيها، العريض والفوقي الصغير. يقال إن اسمها هو تحريف إسباني لاسمها القديم: **خنق النطاح**، أولى معارك الأمير، في نواحي وهران.

لا شيء تغير في البناية، لكن بدا له كأنه يكتشفها للمرة الأولى. قضى فيها فترة سنة ونصف وهو يتدرب برفقة حميميد، كل في تخصصه وخياراته.

دخل من الجهة الخلفية.

دق على الباب الخارجي الذي يؤدي إلى الطابق التحتي. فتح له موظف شاب بشوش الوجه. عرفه؟

- واووووو سيد خوسي أورانو.

- نعم.

- أي ريح قادتك نحونا؟ شرفتنا بزيارتك. ينادونني هنا نيمو.

تصغير نعيم. نتابعك بحب يا سيدي، وننتظر مقابلة نوفمبر بفارغ الصبر. لا أعتقد أن الكوريدا تكفي. أنت تحمل حب الإسبان والغجر والعرب والأوروبيين، الذين يحبون هذه الرياضة. كلهم يتابعونك عن قرب. أنت فخر هذه المدينة التي تسعد أنها أنجبت أمثالك.

- شكرا عزيزي نعيم. أنا قصدت المكان لغرض محدد. أنا أبحث

عن صديق عربي كان هنا. عمل معي في نفس هذا المحل. حميمد. أحمد زبانا أو زهانا.

- كان رجلا محبوبا، لكنه غادر منذ زمن بعيد. بعض الألسنة تقول

إنه أصبح إرهابيا، والله أعلم.

- بيننا زمن بعيد، وفقدت كل المسالك المؤدية إليه.

- لا أعرف، ولكن يمكننا أن نسأل عنه تحت. في مكتب السيد كوتشيو. مدير المدرسة.

نزلا تحت. كانت أصوات الآلات قوية وتصم الآذان. لا يسمع إلا ضجيج الحديد وهو ينشر في تآكل واضح لأسنان المناشير. هناك غزغزة صعب تحملها. تدخل في تفاصيل الجسد كلسعة برد حادة.

- هذا مكتب كونشيو. ندق عليه.

دق نعيم بشكل خفيف، حتى لا يزعجه في عمله. ثم فتح الباب.

أدخل في البداية رأسه قبل أن يتوغل بكامل جسده، متبوعا بخوسي أورانو.

وقف باستقامة أمام كوتشيو.

- لابد أنك تعرف السيد خوسي أورانو سينيور كوتشيو.

- لا للأسف. لم يحصل لي الشرف يا نيمو.

شعر نعيم ببعض الإحراج، لكن خوسي سهل عليه الوضع.

- لماذا تريد يا نعيم من كل الناس أن يحبوا الكوريدا. السيد كوتشيو ربما كان من المناهضين لها كما الآلاف. عادي.

- معك حق، قال كوتشيو. أنا لا أحبها على الرغم من أصولي الكتالانية. هذه مسائل تربوية فقط لا علاقة لها لا بالمتادور ولا بالثيران ووضعهم اللإنساني في حلبات المصارعة.

- الكتلانيون مولعون بهذه الرياضة، قال نعيم.

- أنا لا أحب هذه الرياضة الدموية. شكرا نيمو، يمكنك أن تنسحب، وتعود للحراسة، سأتكفل بالضيف، وأرى حاجته. شكرا. احرص جيدا، لا ندري من أين تأتي الشرور بعد التفجيرات الأخيرة. شيء في هذه البلاد يسير على رأسه.

انسحب نيمو مطأطأ الرأس دون أن يعلق. تمتم في أذن خوسي قبل ان يغادر: أنتظرك في الخارج.

ثم خرج على رؤوس أصابعه، دون أن ينسى أن يغلق الباب وراءه بهدوء، كأنه كان يمشي على البيض.

قال خوسي وهو يحاول أن يجد لغته المقنعة.

- ربما جئت في غير الوقت المناسب، سينيو كوتشيو. أنا أسأل عن صديق قديم عملنا هنا معا. مجرد ذكرى. كنت قريبا من المكان، قلت لمَ لا أراه وأسلم عليه، والمناسبة أسلم له دعوته لحضور كوريدا شهر نوفمبر؟ أحمد زهانا، أو زبانا.

- تشرفنا بك. مرحبا. سمعت باسمه. هو لم يعد هنا، لكن يمكن أن نوجهك نحوه. هو نفسه ساكن سان لوسيان؟

- بالضبط يا سيدي هو. اسمه زهانا، زبانا، احميدا، كلها أسماؤه المتعددة، لا أعرف بأي اسم مسجل لديكم. تدربنا معا في نفس هذا المكان. كان يتدرب على اللحامة والكهرباء.

- لحظة، قال كوتشيو. لنا مركز آخر قريب من هنا. ربما نقل إليه.

هل التقيتما كثيرا بعد تركك لمركز غارغينتا التعليمي؟

- بشكل جد محدود. نسيت أن آخذ منه العنوان والتليفون، لأن وهران ليست نيويورك. كان يحب الكوريدا وكرة القدم.

- سنجده، وبأسرع مما تتخيل.

ثم تناول سماعة التليفون.

- نعم... هنا عندي من يسأل عنه... يقول إنه عمل معه. أوكي. هو في القسم الثاني من الورشة. شكرا. ارحتموني. هو ضيف عزيز، وأرجو أن تقوموا به. نعم خوسي أورانو. متادور وهران العظيم.

بعد لحظة صمت مسح فيها على وجهه المتعرق. التفت نحو خوسي أورانو بابتسامة بدت ثقيلة على وجه كوتشيو.

- وجدناه. في ورشتنا الثانية. انتظر سيأتي من يأخذك عنده. تريد قهوة أو شايا؟

- شكرا. لا شيء.

لم ينتظر طويلا. بعد لحظات دخل رجلان بمعطفين طويلين، أحدهما بني، والثاني أسود، ونظارات سوداء تخفي العيون والجزء العلوي من وجهيهما العريضين.

- تريد زبانا أليس كذلك؟

- نعم. لا أعتقد أن شخصا آخر يحمل نفس الاسم في نفس الورشة.

عذرا على إتعابكما. المسالة بسيطة، إذا في ذلك صعوبات، يمكنني أن أعود في يوم آخر.

- واجبنا يا سيد خوسي أورانو. واجبنا الوطني أن نقودك نحوه. هو بالورشة الثانية. اتبعنا. نقودك عنده.

لم يفهم جيدا طريقتهما الباردة في التعامل، لكنه انصاع لهما.

بينما علت ابتسامة خبيثة محيا كوتشيو الذي نكس رأسه وعاد إلى قراءة جريدته اليومية.

سبقاه. طلبا منه أن يتبعهما. ركب الثلاثة في السيارة الصفراء، كاتريل R4 L، الخاصة بعمال البريد عادة، التي انطلقت بسرعة جنونية باتجاه شاطونوف، حيث توقفت ونزل منها الجميع بما فيهم السائق، ودخلوا إلى عمق البناية الرمادية الغريبة.

سمع خوسي أحد الرجلين يقول بصوت خافت، للشاب الجالس وراء المكتب:

- جون. الكاراكول[1] معنا. أخبر الكولونيل فوريستيي.

ضحك في أعماقه متذكرا ما قالته أنجلينا.

" - وهل أنت في نظرهم أكثر من كاراكول؟ يحمل بيته وأغراضه على ظهره. كنتم هنا قبلهم وفي زمانهم، هل سمح لكم ذلك بأن تصبحوا مواطنين كما البقية؟ لا يا حبيبي الكاراكول، يبقى كاراكول، حتى ولو ارتدي أحلى الألبسة التي تنمق جسد المتادور."

تساءل في أعماقه، إذا كان قد تخطى شرطية أجداده الأوائل عندما حلت المجاعة بسواحلهم. فقد كان الزحف الإسباني على السواحل الجزائرية كبيرا، كما كانت تروي جدته ويسخر منها بتكرار كلماته الساخرة: مي أبويلا يا نو ريخي[2] قبل أن تؤكد له كتب التاريخ أن المخطئ الأوحد كان هو. كانت أغلبية العائلات الإسبانية تأتي من أليكانت أو من أندلسيا. كل ما فعله حراس السواحل الفرنسيون، هو أنهم منعوا السفن القادمة من الموانئ الإسبانية من الرسو. كانوا يتسلحون ويحرسون البحر، ويطلقون النار على كل من يريد الدخول بالقوة، الاقتحام. كان المهاجرون المساكين، الهاربون من المجاعة، يأتون بعائلاتهم وبكل ممتلكاتهم، يحملون على ظهورهم، أفرشة، وسادات، آلات طهي، فؤوس، وبعض الأواني المطبخية، تماما مثل الحلازين، التي تحمل بيوتها وكل ما تحتاجه، على ظهورها.

تفحص جون زائره الجديد، ثم توغل في مكتب فوريستيي، بينما ظل خوسي واقفا بين الرجلين مشدوها فيما كان يراه من صور عسكرية على الحائط، ومجسمات صغيرة، وصورة كبيرة لنابليون وهو يهدد بإبهامه.

غريب. كل من يواجه الصورة، يظن أنه هو المقصود بالتهديد بالسبّابة الموجهة نحوه بعنف.

---

1. Caracol الحلزون. التسمية التي كانت تطلق على المهاجرين الإسبان إلى وهران.
2. جدتي فقدت عقلها Mi abuela ya no rige

17

نظر الكولونيل فوريستيي طويلا إلى محيا خوسي أورانو، كأنه كان يريد أن يعرف ما يخفيه من وراء ملامحه الطفولية. شيء غامض انتابه، لا يعرف سره. من هم الذين رافقوه، كأنهم اختطفوه. لماذا فعلوا ذلك؟ لم ينطقوا طوال الطريق. ينظرون إليه بدهشة كأنهم مستغربون من استسلامه، ثم يغيبون في الفراغ كأنهم كانوا خارج المكان.

كانت وهران كلها تمر أمام نظره مسرعة كأن شيئا يطاردها، أو كأنها كانت تهرب من شيء يخيفها. هل فعل شيئا سيئا عندما استفسر عن صديق قديم غاب كل هذا الزمن؟

مد الكولونيل فوريستيي يده لخوسي أورانو. ثم أشّر له بالجلوس.

- تفضل سيد خوسي أورانو. كيف أحوال الكوريدا في وهران. يبدو أن هناك الكثير من المعارضين لها؟ يون يرون فيها رياضة دموية. معك الكولونيل فوريستيي.

- من حقهم. لابد أن يوجد من يكرهها، وإلا سيكون العالم مسطحا. لكن...

- أنا أيضا أحب هذه الرياضة ولم أضيع منازلة واحدة من منازلاتك بما فيها الأخيرة. لم تعجبني الإستوكادا، لكن أدى ما عليها. كان عليه أن يهجم وإلا كان رئيس الكوريدا يرفع العلم الأبيض إيذانا بتوقيف المقابلة، وهذا مضر للمتادور.

- صحيح أنطونيو طوّل قليلا. لكنه كان يستجيب لـ ولا الجمهور وهذا يعني أن المنازلة ليست مملة، ويسمح للمتادور بأن يستمر في مصارعته. هذا هو القانون وعلى الرئيس أن يحترم هذه الخيارات، ولا يمكنه أن يوقف المصارعة، أو ينذر المتادور.

- كلامك صحيح تماما.

- ولكن يا سيدي...

- اعرف. أنت تتساءل ما هذا المكان الذي ساقوك إليه؟

صمت فوريستيي قليلا، كأنه يفكر من أين يبدأ، بينما رفع خوسي رأسه قليلا باتجاه الرسومات والحفريات والنقوش التي تملأ الاسقف والحيطان. وتلك النظرة الحادة لنابليون وهو يوجه إصبع الاتهام لكل من يتفرس في الصورة.

- كأني في مكان عسكري وليس مصنعا أو مكانا للعمل. هل قمت بشيء غير قانوني؟ أنا طلبت أن أرى صديقي أحمد زبانا، فوجدتني مع كولونيل؟ هل ترى الأمر عاديا يا سيدي؟

ابتسم فوريستيي كأنه كان يعرف سلفا ردة فعل الكولونيل.

- معك حق. لست الأوحد. كل من يزور هذا المكان، يصاب بهذه الدهشة. لا. هذا أيضا مكان عمل. أنت مع مدير المباحث والأمن المدني. لابد أنك خمنت أني عسكري بلباسي. سأشرح لك القصة سيد خوسي أورانو.

كأنه لم يسمعه.

نظر خوسي يمينا وشمالا كمن يريد أن يعرف المكان الذي هو فيه، بنفسه. هل هي الصدفة التي قادته نحو هذا الفضاء الغريب، أم هو الخطأ؟ ثم ما علاقة زبانا بهذا المكان؟ ما سر تلك الصور المعلقة لضباط كبار شاركوا في حرب 1870، ضد بروسيا، التي اعتبرها البروسيون حرب

انتقام ضد هزيمتهم في معركة يينا[1] ضد الإمبراطورية الفرنسية في 1806. صور ولوحات عن الحرب العالمية الأولى والثانية؟ وصور لتطور الترسانة العسكرية الفرنسية؟ ثم ما علاقة كل ذلك، بهذا المكان المبهم؟

– لا تندهش. أنت في مكان عسكري لا تعرفه، لكنه يعرف كل الناس الذين يزورونه.

– لم أفهم يا سيدي. أنا أبحث عن صديق قديم. لما رأيت نفسي قريبا من سوق غارغينتا، تملكتني رغبة السؤال عنه فقط. درسنا معا في قبو السوق حيث توجد مدرسة مختلف المهن. كان في نيتي أن أراه، وبالمناسبة أقدم له دعوة لحضور الكوريدا الأخيرة للموسم، في الخريف القادم. القصة بسيطة وربما مضحكة؟

– لا شيء مضحك يا عزيزي هنا. كل ذرة تتحرك في المكان الذي حدد لها سلفا. لا شيء يترك للصدفة أبدا. نحن والصدفة اثنان.

في اللحظة نفسها، دخل رجل بزي عسكري أيضا، يحمل صينية قسنطينية، بها قهوة وشاي وجيدور وماء.

– قهوة؟ شاي أو عصير جيدور؟ قال الكولونيل فوريستتي.

– كأس ماء تكفيني يا سيدي. لا أشرب لا شاي ولا قهوة ولا جيدور.

شرب كأس الماء، ملتفتا بحيرة، باتجاه الأمكنة، أو باتجاه الموظفين الذين يمرون عليه بسرعة وبلا كلام، يهمسون في أذني فوريستتي ثم يغادرون المكان.

– حقيقي لا أفهم ما يحدث لي في هذا المكان؟

– قد لا يكون المكان أليفا. أتفهم هذا. على كل شكرا لهذا الخطأ في التقييم. أنا فخور بك. وسأحضر منازلتك في شهر نوفمبر. كل الناس

1. Iena.

يحكون عن هذا اللقاء الذي سيكون شيقا. قبل يومين كنت أقرأ في ليكو دوران، شيئا من هذا القبيل، أنك ستتوقف بعد هذه المقابلة، وستكتفي بتربية الصغار حفاظا على هذه الرياضة.

– حتى لو توقفت في وهران، فهم يستطيعون ممارستها في إسبانيا أو في أمريكا اللاتينية، مثل المكسيك.

أجاب بشكل آلي. كان خوسي ما يزال تحت الدهشة. لم تقنعه سلاسة فوريستيي، حتى تلك اللحظة لا شيء يبرر وجوده في مكان شبه عسكري، وكأنه تعرض لعملية اختطاف مبرمجة ضده، شاءت الصدفة أن تكون غارغينتا هي مكان التنفيذ، وإلا كان يمكن أن يحدث ذلك في أي مكان آخر؟

– كولونيل فوريستتي أنا أريد فقط أن أفهم أين أنا؟ شيء في دماغي يقف عاجزا. دخلت من أجل صديق، لأراه وأسلمه بطاقة الدعوة لحضور مقابلتي في كوريدا وهران. انظر ما تزال في جيبي... أجد نفسي في بناية عسكرية؟

أخرج البطاقة. قدمها له.

تفحصها فوريستيي طويلا، بعينيه الصغيرتين والحادتين كعيني ديك، ثم أعادها له.

– من المؤكد فيه خطأ ما حصل بدون قصد. يجب أن تصلحوا الخطأ يا سيدي الكولونيل، أنا لست مجرما، أنا أبحث فقط عن صديق شاءت الصدف ألا أراه منذ سنوات؟ وإلا سأطلب محامي. نحن في دولة قانون.

– لم نصل إلى هذا. لا يوجد أي خطأ، والشخصان اللذان رافقاك هما من الأمن العسكري. مهنتهما، حماية البلاد من الإرهاب الذي لا يعرف من الحياة سوى التخريب والتقتيل المجاني.

– طيب جيد، لكن أنا ما علاقتي بهذا كله؟

- سأشرح لك.

- حقيقة لا أفهم. من البحث عن صديق عادي، تدربنا معا في مدرسة الحرف والمهن في قبو غارغينتا، إلى شيء غامض وكأني أنا من يضع القنابل في المقاهي والأسواق. كان زبانا لاعبا محترفا، يحب الرياضة. لاعب كرة قدم في جمعية وهران. وكان توجهي نحو الكوريدا، لأني كنت أتدرب عليها بسبب ميراث جدي الذي أدخلني فيها بدون قصد مسبق.

- أفهمك. من حظك أني هنا، لو غيري كان أتعبك بلا مبرر. لا يوجد إشكال سأشرح لك. ستغادر بعد قليل معززا مكرما.

- على كل هذا اليوم بائس. قبل قليل خرجت من القضاء بتهمة الاعتداء على شخص لا أعرفه، ولا علاقة لي به، طبعا كذب في كذب. وأجدني الآن في مركز عسكري بامتياز.

- الرجل لم يظلمك كثيرا، الظاهر أنك سرقت زوجته؟

اندهش خوسي من ردة فعل الكولونيل:

- كيف عرفت يا سيدي؟ أنا خرجت قبل قليل من مركز الشرطة؟ أنا لم أسرق شيئا. هي تركته قبل تعرفي عليها؟

- ألم أقل لك إنك في مركز المباحث والأمن المدني. ممكن تسمعني قليلا لتفهم ما حدث لك؟ واجبي أن أشرح لك.

- هل تصدق يا كولونيل، أشعر بنفسي مجرما؟

- لا. لا يخفى عليك أن البلاد تعيش وضعا خاصا بعد موجة التفجيرات التي أودت بحياة 27 شخصا في وهران وحدها، في ظرف شهور قليلة. الحمد لله أن أغلب الضحايا، هم من المتعاونين المسلمين معنا وليسوا فرنسيين. لا أدري كيف افتضح أمرهم؟

- لكنهم تعاونوا معكم، كان يفترض أن تحموهم.

- تلك قصة أخرى. نحاول أن نحمي كل الناس، لكن حماية الفرنسي تسبق كل شيء. نحن نمثل سلطة، وهذه هي قوانينها وشروطها.

- وأنا وسط كل هذا؟ ما دخلي؟

- وهذا ما أشرحه لك. إذا أحببت أن تسمعني. الشخص الذي تبحث عنه، زبانا، مطلوب من الجهات الأمنية المختصة. وكل من يسأل عنه يقاد تلقائيا إلى المركز أو فروعه، لمعرفة المتعاونين معه وماذا يخفون، واستباق أعمالهم الإجرامية. بهذه الطريقة، استطعنا أن نفكك خلايا عديدة، ونتفادى حمامات الدم.

- زبانا رجل طيب وعاقل. كنت خائفا أن يلومني أني ما أخبرته بمصارعة الخريف القادم، مثلما حدث معي، قبل سنوات طبعا.

حك الكولونيل فوريستي على رأسه، كأن خوسي لم يفهم شيئا.

- أنا أفهمك يا عزيزي خوسي، لكن الموضوع أعقد مما تتصور. تعال معي، وهكذا ترى كل شيء بأم عينيك. وإذا استطعت أن تفيدنا بأي شيء، سنكون سعداء.

- هل هو هنا؟

- سترى. اصبر قليلا.

دخلا إلى قاعة صغيرة تؤدي الى قاعة مغلقة تشبه الستوديو، كما في الإذاعات. ضغط على زر الميكروفون. طلب الموظفة.

- فرانسواز بوني. أطلقي لي الوثيقة رقم 666

- حاضرة كولونيل. لحظة.

ثم التفت نحو خوسي، بينما ظهر على الشاشة الواسعة وجه زبانا. كان يتسع أكثر فأكثر بالتصوير البطيء حتى ملأها كليا.

انتفض خوسي في مكانه، لكنه فضل الصمت قبل أن يسأله الكولونيل فوريستيي.

- أكيد عرفته؟

- طبعا. هذا هو حميدا يا سيدي.

- زبانا، أو زهانا، قصدك.

- نعم. بالضبط.

-استمع له جيدا. تمعن فيما يقوله، حتى تفهم الشخص كما هو لا كما تريد أن تراه بقلبك الطيب.

ثم انفتحت الكاميرا على وجه زبانا وهو في المحكمة يقف أمام مجموعة قضاة عسكريين. طلب منه القاضي أن يقدم نفسه:

" - من أنت بالضبط. أعلن عن هويتك ليتعرف عليك جميع من هم في القاعة، وخارجها. تقليد معمول به في كل المحاكم.

- انا أحمد زهانا. الملقب بأحمد زبانا. احميدا لدى المقربين.

- كل هذا العدد من الأسماء.

- نفعل ما فعلتموه في الحرب العالمية الثانية. الأسماء المستعارة حماية للشخص دائما.

الصورة شديدة الوضوح. لم تعد بالأسود والأبيض. ألوانها باهتة لكنها جميلة. كان زبانا يقف باستقامة رغم الجرح الذي كان المصور يظهره من حين لآخر.

- تفضل سيد زبانا. واصل. إننا نسمعك. كلمنا عن رحلتك الحياتية نريد أن نتعرف عليك.

- أنا أحمد زهانا المدعو زبانا أو احميدا. لم أفعل شيئا سوى حبي لوطني. لا أنكر شيئا مما حدث. ومساري أتحمله كاملا. بعد شهادة

السرتافيكا، سجلت في مدرسة التكوين المهني في مدرسة تكوين الحِرَف. نعم كنت من الذين أشعلوا نار المقاومة في منطقتنا، لأنكم لم تتركوا لنا أي خيار آخر غير هذا. نعم تسببت في موت حارس الغابة فرانسوا بروم[1]. لم نكن نقصد قتله، ولكنه أطلق علينا وابلا من النيران عندما دخلنا إلى بيته. كان مسلحا وكنا نريد سلاحه فقط. فاضطررنا، بين ليلتي 31 أكتوبر، وأول نوفمبر، إلى تصفيته وأخذ سلاحه. يبدو الأمر لكم إجراميا. لكن أردناكم فقط أن تدركوا قليلا ما معنى أن تيتموا إنسانا وهو ما يزال طفلا. مدرسة التكوين المهني المتعدد، كانت تقع في الطابق التحتي لسوق غارغينتا. كنا نتعلم فيها إصلاح أجهزة التسخين، الكهرباء والتلحيم الذي اخترته، قبل أن أعمل في مصنع الاسمنت لاكادو[2] في سان لوسيان. أحب كرة القدم وفريق جمعية وهران، وحضور حلبات مصارعة الثيران. من الناحية العسكرية أنا مسؤول عن منطقة سان لوسيان ولا أحد غيري. ألقي عليّ القبض أول مرة في مدينتي لأني التحقت بحزب انتصار الحريات الديمقراطية، وسجنت في 2 مايو 1950. ليست الثورة هي من أيقظ شعوري الوطني، لأنها لم تكن قد قامت بعد كما هي اليوم، لكن ظلمكم الأعمى. ثلاث سنوات سجنا، ثلاث سنوات منعت فيها من الإقامة في مدينتي، بلا سبب وجيه.

– وهل احترمت قرارات المنع؟

– طبعا لا؟ أنت تسخر يا سيدي. القرار مجحف. هذا اسمه القضاء الاستعماري. لم أحترمه، ولن أحترمه طبعا. ظلت علاقتي بمدينتي قائمة سريا. دربت عناصر كثيرة على حرب العصابات لأنها طريقنا إلى التحرر، وصناعة القنابل في غار بوجليدة[3] حيث هجموا علينا، وتلقيت رصاصتين وتم سجني في 8 نوفمبر 1954. ثم قادوني إلى سجن وهران

1. François Braun. Garde forestier.
2. De la Cado.
3. La grotte des chauves-souris.

قبل محاكمتي في 4 مايو 1955، والآن يقولون إنهم سينقلونني في 19 جوان 1956 إلى سجن سركاجي، لأمثل أمام قضاة جدد لتفحص الحكم الذي ستقره محكمة وهران. ولن يكون إلا الإعدام، وإلا لن يكون قضاء استعماريا؟

- هل أنت خائف من الموت.

- لماذا أخاف؟ لم أجرم في حق أحد. أنا أدافع عن أرضي كما فعلتم أمام البروسيين والألمان. انتصرتم عليها، وبعد سبعين سنة، هزمتكم. الباقي، أنا أوكل أمره لله.

- هل أنت نادم.

- على شيء واحد، مقتل حارس الغابة فرانسوا بروم. لم يكن في نيتنا قتله. ولا نيتي أنا بالذات. وأقنعت رفاقي بعدم التعدي عليه وعلى عائلته. كنا نعرفه، وكان يعرفنا أيضا. صلحت له الكهرباء في بيته العديد من المرات. للأسف. ما عدا ذلك، أنا أحرر بلادي من المستعمر، وكل ما أقوم به، هذا مبرره الوحيد.

لم يفهم خوسي أورانو ما كان يسمعه. لم يصدق بسهولة. اندهش من كلامه، حتى بدا له كأنه أمامه، يسمعه ويناقشه، كما لاكاليرا، على حافة البحر، ليلة قبل العملية التي قام بها.

لم يبد خوسي أية ملاحظة، وهو يتأمل حركة الصور المتلاحقة. كان حزينا. شعر بشيء مر في فمه وحلقه.

رأى القاضي وهو يتشاور مع القضاة المحيطين به. ثم نطق بالحكم بعد أن عرض كل الحيثيات الخاصة بالعمل العسكري، والقتل العمدي، والتنظيم السري في شكل مجموعة أشرار لتخريب الدولة، والعمل الإرهابي، والدخول إلى البيوت الآمنة وقتل أصحابها.

- بناء على الحيثيات المقدمة واعتراف الجاني المسمى زبانا بكل جرائمه المنسوبة إليه. فقد تم تثبيت العقوبة القصوى، الإعدام، وسيتم بعث الجاني إلى سجن سركاجي - بربروس، حيث يثبت الحكم، وينال عقابه الذي يستحقه.

فجأة تصلب لسان خوسي أورانو. لم يستطع أن يضيف أية كلمة.

التفت الكولونيل فوريستيي نحوه. كان غائبا، حتى ربت على كتفه بلطف ليوقظه من حيرته.

- أقدر الألم الذي تشعر به، ومقدار خيبتك، وصدمتك. هل اقتنعت الآن؟ أنا على يقين أنك لم تكن تعرف هذا الوجه الإجرامي، فهم لا يظهرون إلا الوجه السمح. نعرف طبعا أنك تعلمت معه في نفس المكان في غارغينتا. الملف الذي وصلني فيه كل المعلومات. ثم أنت فرنسي، أوروبي، تحب بلدك وارضك. لا يمكنك أن تضع يدك في يد مجرم من هذا النوع. إرهابي وكان وراء موت الكثيرين. عقوبة الإعدام هي أقل ما يمكن فعله.

- رأيت كل شيء يا سيدي. أنا حزين عليه. كل ملامحه كانت تظهره رجلا طيبا، ومكافحا، ومحبا للخير.

- كلها وسائل للتغرير بالناس. تخيل لو أقنعوك بجرائمهم، كم كنت ستجر وراءك من ناس؟ التركيز عليك أمر طبيعي. أنت أيقونة وهرانية يا خوسي، والناس يحتاجون إلى ذلك.

كانت بطاقة الدعوة ما تزال في يده. لا يدري كيف مزقها قطعا قطعا، ورماها في سلة النفايات عند رجليه.

- لهذا لا تستغرب أن الشرطة تأتي بك إلى هنا. حجم الكارثة كبير جدا. نخاف عليك مثلما على المدينة والبلاد.

- الان فهمت لكني مستغرب. بقيت معه مدة لا بأس بها. تعشينا معا ليلة قبل قيامه بالعملية، بعد كوريدا وهران التي نشطتها مع ثلاثة من أصدقائي.

- سهرتم في لاكاليرا.

- نعم سيدي. على البحر. هو حينا الطبيعي.

- الأفاعي تقتل بصمت. سمها سلاحها.

- لا أفهم. حقيقة لا أفهم. كيف يتغير الناس بهذه السهولة؟

- لن نبقيك هنا. نتمنى لك منازلة ناجحة. لو أجد وقتا سأحضر. وقع لي فقط على التقرير.

- أي تقرير؟

- تجده عند فرانسواز بوني. فيه كلامك ونقاشنا حتى لا يسجل شيء ضدك. فأنت لا تعرف وجهه الخفي. هل لديك ما تضيفه؟

- لا شي سوى استغرابي.

قدمت له السكرتيرة الوثيقة ليوقع عليها. قرأها بسرعة. كان يريد أن يسجل كلمة ثبت اختطافه من غارغينتا، وأنه لم يحضر من تلقاء نفسه. ولكنه كان يعرف أيضا أن ذلك سيستغرق وقتا طويلا، وهو يريد المغادرة بأسرع ما يمكن. المهم سجلت الوثيقة أنه كان يبحث عن زبانا لدعوته لحضور منازلة مصارعة الثيران في الخريف المقبل، وأنهما درسا معا.

وقع الكولونيل فوريستيي من جهته. منحته السكرتيرة النسخة الكاربونية، بينما احتفظت في المكتب، بالنسخة الأصلية.

- هل يسمح سيدي الكولونيل بالانصراف؟

- أنت حر. إذا احتجت إلى أي شيء، تعرف أين تجدني.

غادر المكان بسرعة وهو ما يزال تحت صدمة ما حدث.

في الخارج، كانت وهران تتنفس هواء بحريا جميلا، ورائحة مسك الليل الإشبيلي، في الأحياء الجميلة. حركة الناس عادية، كأن لا شيء يحدث على سطحها. تمنى أن يركض بسرعة نحو الكوريدا بأقصى سرعة، مكانه الوحيد لنسيان الحمم التي كانت تغلي داخله. يركض ويركض بلا توقف، حتى يمحو كل الصور التي رآها وعاشها، ولا يبقي في ذهنه إلا صورة زبانا وهو في غارغينتا، يحكي له عن فرانسواز، أخت حارس الغابة، فرانسوا بروم، التي كانت تحبه، وكانا يلتقيان على السطح، وكثيرا ما ناما هناك على نور القمر في ليالي وهران الناعمة. لكن عندما علم أخوها بحبهما، عاقبها بإرسالها إلى فرنسا، وهو يصرخ في وجهها: العار كل العار أن ترتبط بنت اللورد[1] الدينية المقدسة، بعربي؟ أوصلت له صرخة أخيها قبل أن تغادر مدينتها الصغيرة. اقترحت عليه الهروب برفقتها، لكنه خاف على والديه. بكت طويلا في ليلتها الأخيرة برفقته على السطح، ومن يومها لم يرها، فتركت في قلبه جرحا عميقا، لم يشف منه أبدا.

شعر بمغص مؤلم جدا في بطنه.

توقف عند حائط سميك، يفصل حديقة أحد البيوتات الكبيرة عن الشارع العام. انحنى قليلا في الزاوية، بعيدا عن الأنظار، أدخل أصبعه في فمه وتقيأ طويلا. وجد بعدها بعضا من الراحة.

ثم مشى مغمض العينين لا يدري إلى أين.

فكر أن يستقل سيارة أجرة، لكنه سرعان ما وجد نفسه يركض، يركض باتجاه الطرف الجنوب الغربي من المدينة، باتجاه حلبات مصارعة الثيران.

كوريدا وهران.

---

1. Lourdes.

18

نزع الورقة من الرزنامة القديمة.

قبل أن يرميها في سلة النفايات، تحت مكتبه، قرأ ما كتب في ظهرها. لأول مرة يفعل ذلك. يعتبرها كلها أوهاما وخزعبلات. هربت منه ابتسامة لم يستطع أن يتفاداها.

" اشرب جيدور وابتسم، فأنت في وهران. ألا تعلم أنها مدينة الصدف الجميلة التي تحميك من مخاطر الدنيا. قل شكرا جيدور. شكرا وهران، وامض إلى سبيلك."

ألصقها على الحائط، بحيث كلما جلس إلى مكتبه، يراها.

رن التليفون. ركض نحو السماعة:

- خوسي حبيبي. لا تنس موعدنا اليوم على العشاء.
- هههه قلت ثلاث مرات. ما تزال الذاكرة حية هههه.
- يا حبيبي أنت عقلك مع الثيران صبحا مساء، فكيف تتذكر

لاكاليرا المساكين الذين سلموا حياتهم كلها عند بوابات البحر، يفعل بها ما يشاء.

- خمنيث. لا تقل أي كلام. ستدفننا جميعا بعضلاتك القوية

وصحتك، ونموذجية طعامك. أنا فعلا ضائع مع أنجلينا. كما ذكرت لك البارحة. كنت أحمق حقيقة. لم أعرف كيف أحافظ عليها.

- إذا كنت لا تعرف قيمة الحرية، فأنت ستخسرها حتى لو وجدتها مرة أخرى.

- على كل نتحدث في الموضوع ليلا. سيكون لقاء جميلا.

اشتقت لاكاليرا. كل وقتي أخذه البحث اليائس عنها.

- اسمع يا خوسي، لا تبحث عن امرأة جرحتها بغبائك. إذا كانت تحبك، وقلبها كبير، ستعود لك. وحتى لا تخسرها ثانية، قبّل قدميها كما الهنود، وأصابعها كما الصينيين، ورأسها كما العرب، واعتذر لها ولا تحاول أن تجد مبررات لحماقاتك، لأنها ستتركك ثانية. وهذه المرة إلى الأبد. الحب أن تملك القدرة على امتصاص الخطأ ليس بتبريره، ولكن بالاعتراف به بشجاعة، والاعتذار لمن آذيته، خارج سخافات الكبرياء.

كم يبدو الزمن طويلا وموحشا في غيابها.

همس في الفراغ. زمن طويل مر على غياب أنجلينا. أكثر من شهر. ولا شيء في الأفق. حتى محاولة زيارة الأماكن التي تصور نفسه يجدها فيها، لم تثمر عن شيء. الوحيد الذي رآه هو غارسيا، الذي حاول أن يتفاداه ولكنه قطع عليه الطريق، كان مع مجموعة من الغجر. لم تكن في عيونهم أية رحمة.

- سرقتَ أنجلينا وأخفيتها؟ أكثر من ذلك سرقت ابني.

- لو كنت أعرف أين هي ما ركضت كل هذا الوقت بحثا عنها. أما عن ابنك، تلك مسالة أخرى، لا شأن لي بها. عليك أن تسأل الطبيب. عدم الإنجاب ليس جريمة. الأولاد ليسوا هي السعادة كلها، كان يمكن لأنجلينا أن تكتفي بحبك.

- ولكنك سرقتهما مني. كيف عرفت أني لا أنجب؟

- اسأل أي واحد ممن يرافقونك؟ أنا لا أشتمك بهذا، كان يمكن لأي منا أن يوجد في وضعك. نحن لا نختار أقدارنا يا غارسيا. لكنه سلطان الطبيعة. كان بإمكانك أن تعوضه بالكثير من الحب بدل أن تشن حربا عليّ وعلى أنجلينا.

- عندما نجدها ستعرف ماذا ينتظرها. في عالمنا الغجري غير مغفور للمرأة أن تترك زوجها. يمكنها أن تزلق هنا أو هناك مسموح، لكن ترك الزوج قانونه الذبح، ولا أحد يدافع عنها حتى والدها، مهرب الأسلحة، لن يستطيع.

- مهرب أسلحة؟ هذا أمر جديد عليّ؟

كان يريد أن يقول له شيئا آخر، لكنه اكتفى بتلك الملاحظة.

خاف أن يفقده أعصابه ولا يتحكم في نفسه.

صمت قليلا، ثم اضاف:

- هناك قانون. هي فكت كل ما يجمعها بك. يفترض أن تتركها وشأنها. فهي في النهاية حرة، مثلما أنت حر.

- تعرف كان من المفروض أن أذبحك أنت أيضا، وأخصيك كما أخصي الأحصنة والبغال. ألا تعرف أن اسمي الثاني، غارسيا كاستراثيون؟ هذه كانت مهنتي من قبل، في أسواق وهران الشعبية وفي رحلاتنا الغجرية. ويبدو أني سأعود لها.

- سمعت بموهبتك. معك حق. تنتقم من الأحصنة والبغال.

- حرفة وليست لعبة، بأصولها ومخاطرها. وهل ما تفعله أنت مع الثيران قليل؟

وكأنه فهمه متأخرا، استل سكينه من خاصره، ثم أعاده إلى مكانه حينما هدأه أصدقاؤه الذين كانوا يحوطونه.

- مجنون على الكوريدا. أتركك حيا لأني أريد أن أحضر منازلتك.

وبعدها سأرى ما سأفعله بك. قد أقتلك إذا لم يسبقني إليك ثور مجنون وقوي.

- هههههه

ضحك خوسي أورانو. في أي عالم نحن، وهران لم تعد وهران. تمتم. أحنى رأسه ثم واصل مشيته نحو التدريبات.

انسحب غارسيا من طريقه، تتبعه مجموعته. أراد خوسي أورانو أن يسأله إذا رأى أنجلينا، لكن سؤاله بدا بعيدا عن أي منطق، ويتحول في منطق غارسيا وعقده، إلى حالة استفزازية.

ذهنه لم يكن معه مطلقا.

لقد قضى خوسي الفترة الصباحية كلها في التدريبات لدرجة أن أنهك نفسه. نسي ما كان يؤذيه. لم يكن يريد أن يفكر في أي شيء آخر باستثناء اللعب مع الأطفال، مع ثيران صغيرة. هي أجمل دروسه في حب الرياضة والمصارعة. ولا يخفي عنهم المصاعب، والثقافة، والمشكلات الأخلاقية المترتبة عن هذه الرياضة. كلهم يعرفون تاريخ منازلته الأخيرة للموسم في شهر نوفمبر القادم، وبعضهم حضر برفقته، لقاء الكاتدرائية، وكون نظرة عن اللعبة من خلال ما سمعه، لكن التصفيقات الحادة التي كانت تقطع كلمة خوسي أورانو، جعلتهم يميلون نحوه.

امتد النقاش نحو هذا الموضوع طويلا. وكان سعيدا أن يسمع آراءهم. استغرب من الطفلة كوراثون التي أعطته درسا لم يكن ينتظره بالخصوص منها. تحب هذه الرياضة:

- كلكم تتحدثون وكأن هذه الرياضة لا يمارسها إلا الرجال.

أتساءل ماذا أفعل هنا في النهاية؟

- عقلية ذكورية مترسخة في اللاشعور، تحتاج إلى تقويم.
- مع أني تابعت ورأيت أن هناك متادورات في إسبانيا أو في العالم الإسباني، في أمريكا الجنوبية، خيتانا رزيتا، باكاري مايا، دنيا ألونصو، ريتا بالاثيوس. كلهن قدمن منازلات قوية، ولا أحد يتحدث عنهن.

ضحك أصدقاؤها، ولكنها أسكتتهم:

- رياضة تحتاج إلى الكثير من القوة.
- لا تحتاج إلى القوة بقدر ما تحتاج إلى قليل من الذكاء والأناقة والتحكم في الجسد، وسرعة البديهة.

لأول مرة يسمع منها هذا الكلام القوي. كانت دوما تبدو صامتة ولا تتحدث إلا قليلا.

وأحيانا لا تتحدث.

- أستاذ خوسي، تمنيت وأنت تحكي مدافعا عن الكوريدا، أن تذكر دور النساء أيضا في هذه الرياضة. لسن كثيرات، لكن حضورهن كان كبيرا.
- معك حق كوراثون. متفق معك كليا.

شعر كأن كل شيء يضيق من حوله ولم تعد له أية وسيلة للمقاومة. كان كلامها حقيقيا وصارما ودرسا تعليميا. وعلى الرغم من أنه كان مثقلا بشيء يضغط على صدره مثل الرصاص إلا أنه شعر بصدق كوراثون.

- حبيبتي كوراثون. أعتذر. كنت فقط منشغلا بالحملة المنظمة هذه الرياضة، ولم تكن تدخلاتي موفقة من الناحية التي ذكرتها، لأني نسيت أن أذكر الحالة النسوية.

انفتحت أساريرها عن آخرها وهي تسمع خوسي يتحدث بتلك الطريقة الجميلة التي استرجعت بها ثقتها.

- حتى لو أوقفوا الكوريدا في وهران، سأذهب إلى إشبيليا مثلك، أو إلى مكسيكو كما فعل الكثيرون.

- برافو كوراثون. الإصرار جزء من الدفاع عن الحقيقة.

المساء كان جميلا. خصصه خوسي للعمل التطبيقي. وهي اللحظة التي يشتهيها التلاميذ جميعهم، لأنها تخرجهم من الرسومات والتخطيطات حول الوضعيات التي يجب أن يتخذها المتادور، والحركات غير المرتقبة للثيران، والتي قد تكون قاتلة أو تتسبب في جرح المتادور وإخفاقه.

عندما دخل المتدربون الأطفال والأحداث، إلى المعلب وأطلقت الثيران الصغيرة كانوا يركضون وراءها كأنهم كانوا يلعبون معها. كانت كوراثون أكثر الأطفال حماسا وتنظيما في حركاتها. فقد اختارت ثورا واحدا وركضت وراءه، حتى قبضت عليه من ذيله ولم تتركه، حتى حينما جرجرها تحت رقابة خوسي أورانو الذي ظل يراقب سرعة الثور الصغير.

- اخترتِ الأصعب.

- اخترته لأنه كان الأكثر نشاطا. كان يريد أن ينطح حتى لو لم ينبت قرناه. الباقي يحبون الركض لا أكثر.

عندما تعبوا، طلب منهم أن يرتاحوا في المدرجات، ويشربوا الماء وعصير البرتقال. ليبدأ الجزء الثالث من الدرس.

عندما أصبح الجميع في المدرجات برفقة أهاليهم. بدأ التدريب الحي الذي يمارسه خوسي أورانو مرة في الشهر.

عزفت باسو دوبلي، طلب من مربي الثيران الصغيرة الذي كثيرا ما يحضر مع ثيرانه، أن يأتيه بالثور المتوسط فريدي. ويطلقه في الساحة.

بدأ فريدي الذي يُهيأ للكوريدا يركض في الساحة. دخل شاب فوق حصانه. عرفه الأطفال فصرخوا جميعا بصوت واحد:

- كاميوووووووووووووووووووووو

كان يحمل عمودا طويلا، بينما يقف خوسي في مركز قريبا من الفجوة تحت الأرضية التي توصل صوته مضخما إلى جمهور الأطفال الذين كانوا ينتظرون بدء المصارعة وقلبهم على صديقهم كاميو الذي يكبرهم بسنوات، والتحق بالتدريبات قبلهم أيضا.

كان الثور الصغير المربى على المعارك يحاول أن يسقط المتادور الذي كان يهشة بالعمود الطويل، أو الحصان.

توجه أورانو للأطفال:

- تعرفون. هناك ثلاث مراحل حيوية في الكوريدا. لا يمكن أن تقوم بدونها. في أي مرحلة نحن الآن.

صاح الصغار في المدرجات، بصوت جماعي:

- انتبهوا جيدا. المرحلة الأولى. الترسيو الأول.[1] تيرسيو دي فاراس أو سويرتي دي فاراس[2].

- برافو. ماذا علينا أن نفعل؟

- دخول البيكادور. كاميو. صاح الأطفال وبعض الأولياء الذين كانوا يلتحقون بأبنائهم تباعا.

- عادة تتم عملية البيكادور برمح، وعلى رأسه قطعة معدنية حادة لاختبار مدى استعداد الثور للمعركة وقابليته للصراع، أو إن كان متعبا وغير مؤهل لذلك. يجرح بها الثور بين كتفيه. نحن هنا نعمل بالعمود حتى لا نؤذي الثور الصغير.

1. Tercio 1.
2. Tercio de Varas, Tercio suerté.

كان الثور وكأنه في حالة استراحة ولعب.

ظل الثور يضرب واقيات الحصان، وكاميو يدفعه إلى الوراء بعموده، محافظا على توازنه تحت الصرخات المتتالية للأطفال. وعندما انتهى بنجاح، خرج من الملعب.

ثم التفت خوسي أورانو نحو الجمهور الصغير من جديد.

- والمرحلة الثانية، كيف نسميها؟

- تيرسيو دي بوندريوس[1].

- نمر عليها بشكل خفيف، ونترك تفاصيلها للمرة القادمة. لكن يجب أن تعرفوا أنه في هذه المرحلة يتم غرس ثلاث ثنائيات من السهام الصغيرة الملونة في ظهر الثور. وهي توضح مدى قدرة المتادور على تحاشي قرني الثور، واستعداده للمجابهة. ويستطيع المتادور أن يطلب من الرئيس أن ينقص من عدد السهام الصغيرة.

صفق بيديه. جاءه المتعاونون من التلاميذ، بسهمين صغيرين ملونين.

- العملية تتم بهذه الطريقة. في المرة القادمة سأظهر لكم كل الطرائق لذلك وكيف يتم تفادي قرني الثور.

نظر إلى الثور الذي تفحصه من بعيد، بدون موليتا. ثم انطلق باتجاهه في خط مستقيم. عندما وصل غرس السهمين الصغيرين في ظهره، ثم بحركة بهلوانية قفز بعيدا عنه، تحت تصفيقات الجمهور الصغير.

- أووووووولّي.

ثم اقترب من الثور قليلا. مسد على جبهته، ثم طبع عليها قبلة. فجأة هدأ الثور الصغير.

---

1. Tercio de Banderillos.

- وما هي المرحلة الأخيرة؟

- الترسيو الثالث، صاح الأطفال.

- ترسيو دي موليتا أو فاينا[1].

قام ببعض الحركات بالموليتا، ذات الخارج البنفسجي والداخل الأصفر. كان اللعب مع الثور جميلا وأنيقا، تحت تصفيقات الأطفال. في النهاية أخذ قطعة خشب صغيرة حلت محل السيف.

- تنتهي الموليتا إجباري بالإستوكادا. ماذا يأتي بعدها؟

- ديسكابيلو[2].

- تدخل العربات التي تجرها البغال التي تنقل الثور خارج الحلبة، بعد الإستوكادا، وبعد البوانتيا[3]. أي ضربة السكين التي توقف آلام الثور، حتى لا يتعذب، وتؤكد موته النهائي.

كان الأطفال سعداء بما كانوا يرونه أمامهم، بينما نسي هو صباحه الثقيل الذي لم يكن كما أراده.

- الآن يمكنكم الخروج بنظام. يرافقكم الحارس حتى الخارج.

موعدنا الأسبوع القادم.

شعر برماد ثقيل قد نزل قليلا من على كاهله.

ابتعاد أنجلينا وغيابها الذي طال عذبه كثيرا ولم يكن يملك له أي حل. ما أعطاه بعض الأمل هو أنه كلما أظلمت الدنيا في عينيه، تذكر كلام خمنيث، وما قاله له: **لا تبحث عن امرأة جرحتها بغبائك. إذا كانت تحبك، وقلبها كبير، ستعود لك. وحتى لا تخسرها ثانية، قبّل قدميها كما الهنود، وأصابعها كما يفعل الصينيون، ورأسها كما العرب، واعتذر لها**

1. Tercio de Moleta. Faena.
2. Descabello.
3. Puntilla.

ولا تحاول أن تجد مبررات لحماقاتك، لأنها ستتركك ثانية، وهذه المرة إلى الأبد. الحب أن تملك القدرة على امتصاص الخطأ ليس بتبريره، ولكن بالاعتراف به بشجاعة، والاعتذار لمن أذيته، خارج سخافات الكبرياء. حفظه عن ظهر قلب. كان مثل إكسير الأمل، لأنه يحمل في داخله قليلا من الأمل. لا يدري من أين جاءت حكمة خمنيث، مع أنه عبثي وفي الوقت نفسه رجل مستقيم. لكن لولا حبيبته اليونانية، هيلينا، لضاع في أعماق البحار. يقول إنه أوصى هيلينا أن تدفنه في أعماق المتوسط. لا يوجد مكان بالنسبة له، أرحم، مثل المتوسط.

نظر إلى السماء، كانت زرقاء كما البحر في حالة صفائه.

اشتعلت أضواء الملعب المسائية.

فجأة أصبحت الكوريدا فارغة. بدت أكثر اتساعا من المعتاد.

مشى قليلا على حصاها الأحمر، كأن شيئا حيا كان يستيقظ تحت قدميه بهدوء. وضع المسجلة في وسط الحلبة، بالضبط عند نقطة المركز التي تتضخم فيها الأصوات بدون مكبرات.

أخذ نفسا طويلا. رأى الأطفال وهم يركضون في كل الاتجاهات. يملؤون المكان حياة وضجيجا، وهم يلعبون مع الثيران الصغيرة ويتحملون نطحها. ليكتشفوا أن الأحمر لا يجلب الثيران ولكن الحركة. جرب أمامهم موليتا ثبتها أمام عيني الثور، لم يتحرك. ثم عوضها بواحدة بيضاء، لم يتحرك الثور أيضا. لكنه عندما حرك الموليتا البيضاء ركض الثور باتجاهه بلا توقف. رأى الغرابة قد ارتسمت في عيون الأطفال.

رفع أكثر من صوت المسجلة. ارتفع صوت موسيقى بيزيه، كارمن. ثم بدأ يركض، ويتنفس ملء صدره. شيئا فشيئا بدأت وتيرة الركض تتضاعف والموسيقى تهيئه للمعركة الأخيرة أمام الثور الثقيل ذي 600 كيلوغراما. لاروكا نيغرا[1]. يستعيد راحته الداخلية. وبدأ الركض ينتظم في

---

1. La Roca negra. الحجر الأسود

خطوات صغيرة متناسقة، لم يشعر بأي تعب بعدها. وظل يدور في دائرة الملعب مثل عقرب الثواني، في ميناء الساعة.

كانت الأضواء تضفي على المكان جوا رومنسيا خفيفا، فلم يعد يشعر بأي ثقل في خطواته المتناسقة.

بدأت شمس المغيب تمنحه الكثير من الراحة الداخلية. تساءل في حيرة لم تغادره أبدا: لماذا ذهبت بتلك الطريقة؟ طيب؟ كيف يقبل أبوها أن يكون إرهابيا؟ صحيح، لم يحمل سلاحا باستثناء بندقية صيد قديمة، ولم يضع قنابل في الأسواق، لكنه يبيع الأسلحة والبارود بحسب الصحيفة، وستوجه هذه الأسلحة إلى صدر شعبه، إذا كان يؤمن بأنه من الشعب؟ ثم من يملك حق الحكم على هذا أو ذاك بأنه أكثر وطنية من غيره؟

المنشور الذي قرأه وهو يعبر السوق لم يخفف من ارتباكه العميق. مأخوذ من جريدة الجزائر الجمهورية[1].

"هل أنتم مع الإعدام. هؤلاء الجزائريون شاركوا في كل الحروب الفرنسية. في الفيتنام حينما أرغموا على ذلك. الكثير منهم رفض وهرب داخل الأدغال الفيتنامية واعتبروا خونة والكثير منهم اعتبر مرتدا. والباقي شاركوا في معركة ديان بيان فو، بجانب هوشي منه والجنرال جياب. كانوا شجعانا بوقوفهم مع الحق وما توا أو تزوجوا هناك. الكثير منهم عاد ليلتحق بالحرب العالمية الثانية لأن الوضع تغير والظالم أصبح شخصا آخر. خمس سنوات وهم في جبهات النار يربون وعدا أعطي لهم بأنهم بعد الحرب ينالون حقهم الذي طالبوا به. في صبيحة الاحتفالات بسقوط النازية في أوروبا وأمريكا، كان الجزائريون يدفنون 45 ألف ضحية. تمر اليوم عشر سنوات على المجزرة ولا شيء في الأفق، ماذا كان ينتظر منهم؟ أن يقبلوا بالظلم. نرفض التقتيل الجماعي، ولكنهم كل صباح

1. Alger Républicain.

يدفنون المئات الذين يموتون في عمليات تقتيل ممنهج، أو بالنابالم، أو في مداهمات؟ الجرائد تنشر أخبار عمليات تلغيم الأماكن العامة والمقاهي، والبارات والمطاعم، لكن هل نشرت مرة واحدة الإبادات الجماعية؟ انظروا للشارع كيف يعامل من ليس فرنسيا؟ بل حتى الفرنسي غير الكاثوليكي أو غير الأصلي، النظر إليه ليس دائما لطيفا. العربي في أدنى السلم. أفضل منه قليلا، اليهودي منذ قانون كريميو. فوقه أفضل قليلا الأوروبي من الأصول المالطية، بعده بقليل الإسباني الفرنسي، الكراكول.

أغمض عينيه قليلا. كانت المسافات تنسحب من تحت قدميه بسرعة وكأنه كان على بساط. الجري يمحو الطاقة السلبية. يبخر التوكسين المسمومة.

تنفس عميقا، ثم زاد في سرعته.

" هل يستحق الناس كل هذه المصائر المؤلمة."

تمتم وهو يبلع كلماته بصعوبة. بلل شفتيه، ثم زاد في سرعته أكثر. كان يتمنى أن يمحو كل ما يدور بدماغه. لا سلاح أمام قسوة الألم إلا النسيان. لكن من أين يأتي النسيان؟ هل ننسى بقرار؟ أم ننسى عندما يشاء المنغص أن يخرج من القلب والرأس؟

تدريبات الأطفال أنسته وجه غارسيا الميت.

ركض طويلا متخيلا نفسه يستعد لمباراته الأخيرة. ويسلم المشعل للشباب والأطفال الذين أصبح الكثير منهم جاهزا لمعاركه الأولى.

أشياء كثيرة تملأ قلبه.

عددهم يكبر كل يوم أكثر على الرغم من تشويه رياضة مصارعة الثيران، في الأغلب الأعم، بجهل حقيقي. أين سيذهبون غدا عندما يقف في وجوههم حاخام مغلق، أو إمام بلا معرفة، أو قس جاهل؟ كان عليه أن يكون واضحا. أفهمهم ما ينتظرهم.

" قد لا يكتب لكم أن تصارعوا ثورا حقيقيا؟ "

أفهمهم أن الكثيرين سيقفون عند حدود الاستمتاع بالاستعراضات، ومصارعة الحيوانات الصغيرة التي لا تفضي إلى دم. الثور لا قرنين له، والطفل لا يعمل إلا سيفا خشبيا وخرقة حمراء أو بنفسجية وصفراء، يدافع بها عن نفسه عندما يصر الثور على نطحه. الكثير منهم سيبكون، وآخرون سيضحكون والبقية تزهو فرحا، لأنهم استطاعوا إسقاط ثور خشن ولم يخافوا منه كما في البداية. ثم يقومون وهم ينفضون سراويلهم من الحصيات العالقة. لكن المصارعة شيء آخر وأصعب. عليك أن تقتل لإرضاء أنا عالية لا تريد الهزيمة دوما. عليك أن تدافع عن نفسك. عندما تقتل عليك ألا تؤذي الثور. تمنحه موتا هادئا بإستوكادا حاسمة. إذا لم يفعل المتادور ذلك سيكون هو الميت. الضحية المثالية.

كانت سيمفونية بيزي قد وصلت إلى سقفها. شعر بالعطش.
زاد في وتيرة الركض.
نظر إلى الساعة. الزمن يتسرب كحبات الرمل الجافة.
لا يدري لماذا كلما غضب ينشف حلقه بسهولة.
فجأة سمع تصفيقات حادة، في أعالي المدرج.

التفت وهو يجري. رفع رأسه قليلا. رأى شخصين وكأنهما ظلان: لا أحد غيرهما. مادري مارتا سانتياغو، وفاكوندو مونكو اللذان يفاجئانه، من حين لآخر، بحضورهما. ضحك في أعماقه. واصل جريه وكأنه لم ير شيئا. زاد في سرعته أكثر. لابد أن يواصل ولا يتوقف. أي توقف يأخذ منه وقتا كبيرا، ويحرمه من برنامجه المسطر. قبل خمسة أسابيع، ركضت معه أنجلينا في نفس المكان، وهي تحاول ألا تضغط، وتضحك:

" - أخاف عليها. لا أريد أن أخسرها. انتظرتها عمرا بكامله. تنزل هذه المزعوقة، وترى من هي أنجي؟ سأهرب لك وأتركك تجري ورائي كالمجنون.

لم يستطع أن يكتم ضحكته حتى في جريه.

- اجر. خليني نشوف إذا كنت تستطيع أن تنافس غجرية حاملا، نصفها عربي مجنون، لا حدود لهبله، ونصفها الثاني إسباني تائه، وبلا وجهة ههه.

- يكفي ان تكوني غجرية لأسلم لك كل أسلحتي.

- حبيبي. يجب أن نعيش لإيزميرالدا.

- لماذا إذن كلما غضبتِ مني، تقولين سأذهب عند قابلة الغجر، وأطلب منها أن تخلصني منها. وأصدق بغباء طفولي، فأشرع كالمجنون في استرضائك.

- وهل تظنني غبية إلى هذه الدرجة. أردتها بكل قواي.

ضحك. ركض بأقصى سرعة. مر بالقرب منها كالريح. اخترقت حواسها رائحة عرقه الشهية. وعندما تجاوزها أغلق عليها الطريق:

- الحواجز مغلقة سيدة أنجلينا. يجب أن تدفعي مقابلا للمرور، وتفتشي من رأسك حتى قدميك.

- افعل ما تشاء. موافقة على كل شروطك، دعني فقط أشمك وأستمتع برائحتك يا مجنون.

ضمها إلى صدرها. استنشقته طويلا، ثم انحنى على ركبتيه. وضع رأسه على بطنها. مممممم

- ما هذا؟

- لا تخف. ليست قنبلة موقوتة. حماقاتك الليلية وحماقاتي التي لا تخضع لأي وقت. مثل مطعم المارشي: casse-croûte à toute heure[1] هههههه. في كل وقت مع حبيبي.

---

1. أكل في كل وقت.

- **هههه** من أين تأتين بكل هذه المصائب، وهذه الاكتشافات اللغوية

الغريبة هههه.

ضمها بقوة أكثر. اخترقه عطرها الساحر الذي تشتغله بيديها، ووحدها تعرف سر تركيبته.

- مممم فكرة مليحة casse-croûte à toute heure لماذا لا نجربها هنا في غرفة استراحتي في الكوريدا.

- مهبووول... حتى في زاوية فيها نصف متر ههههه." المهم معك حبيبي.

غمرته سعادة كبيرة.

تنفس طويلا. رفع رأسه من جديد. رآهما ينزلان من أعالي الأدراج

ويكادان يصلان إلى منصة الضيوف. نزعت المرأة رداءها الأبيض، وبان لباسها الأحمر والأسود، ووردتها البيضاء على جنبات شعرها. كانت تقبض على يدي الرجل الذي عرفه بسرعه. صديقة خمنيث. البحار الأحمر. تنفس عميقا وهو لا يصدق ما كان يراه. فتح عينيه عن آخرهما ليتأكد من أنه لم يكن يحلم.

ثم صرخ بكل قواه.

- أنجلينا!!!

حبيبة روحي وهبلي الكبير.

ثم ركض كالمجنون.

ضمها إلى صدره طويلا. أراد أن يتكلم، وضعت أصابعها على فمه بهدوء ونعومة.

- ششششششت. حبيبي. خليني نشبع من النظر فيك.

ثم نظر إلى خمنيث الذي أحنى رأسه.

قبل رجليها، رغم سحبها لهما، ثم يديها، ثم رأسها، ثم... شفتيها.

ولو أنها لم ترد في وصايا خمنيث.

- الحركة الأخيرة لم نتفق عليها، قال خمنيث ضاحكا. لكن مادامت المعنية راضية، فلا ضرر.

- أنت معلمي، وسيدي، وحبيبي، أميري، ومن يعرف جرحي وآلامي. لا تعرف قوة جملتك التي بقيت تحفر في طوال اليوم.

- خلص إذن نتعشى في البحر. في مدينتنا لاكاليرا. أتمنى ألا تكون قد التزمت بشيء.؟

- وهل هناك شيء أكبر وأثمن من هذا. انا أيضا اشتقت لبحر لاكاليرا. تدريبات الأطفال أغرقتني، وأخذت كل وقتي.

ثم انحنى على ركبتيه ووضع رأسه على بطنها.

- مشتاقة لك فقط.

- إنها تتحرك.

- غبي. المفروض أعضك حتى أدميك، لكني أعرف جمال قلبك، سأؤجلها لغاية انتهاء مباراتك القادمة، وسفرنا نحو بعض أجدادنا في أندلسيا، وبقاع الدنيا وحبيبتي إزميرالدا معنا.

- غبي وأكثر. حيوان بدائي...

- ثووووور

- هههههههه.

19

أتلك هي وهران الساحرة التي اختفت كل هذا الزمن؟

نظر خوسي بعيدا من وراء زجاج سيارة الأجرة، أروند إليزي زرقاء، شم رائحة البحر التي كانت تأتي من مكان ليس بعيدا. لم يسألها عن أي شيء، ولا حتى أين كانت طوال الخمسة أسابيع القاسية؟ حك على رأسها. كان يريد أن يوقظها لترى معه المغيب، والأشجار، والنخيل، وتشم معه رائحة البحر، ويسمع فقط همسها، لكنها كانت في سكينة على صدره، مثل طفل يكتشف العالم لأول مرة، ويتشبث به بكل قواه حتى لا يفقده.

سخر خمنيث منه قائلا:

– كان يجب ألا أتركك تغادر لاكاليرا، بيتك، ومسقط رأس أجدادك، وتستقر في الكميل الذي لا شيء فيه إلا الكوريدا، وتدريب الأطفال. وهكذا نضعك تحت الرقابة الكلية. الإقامة الجبرية.

– حبيبي. ما نبغيش عليه. طبعا، كان يجب ألاّ يتركني بعيدة عنه. لكن يا عمو خمنيث، الغباء لا دواء له. لحظتها لم يفكر إلا في ثيرانه هههه. خسرت زباطا، لا أريد أن أخسر خوسي.

– أخر أخبار زباطا؟

واصل خمينيث، بينما صمت خوسي كليا.

– كما تعرف. متهم تهمة خطيرة. المس بأمن الدولة، والشروع في القتل، وتهريب الأسلحة. نزعنا تهمة الشروع في القتل لأنه لا يوجد سند

قانوني أو دليل يبررها. تهمة التهريب ليست مشكلة. وما ضبط معه ليس أكثر من بندقية صيد قديمة، أكد أنها للدفاع عن النفس وصيد الحلوف، لا أكثر.

التفت الشاب السائق صوبهم نصف التفاتة. فهم خمنيث.

- أعرف شيئا واحدا، من وضع القنابل الموقوتة في قلوب الشابات الجميلات. له الحق، فهو رجل مشهور وجميل.

ضحك خوسي.

قهقهت أنجلينا بصوت عال.

- خلص. راحت على بقية الوهرانيات. لقد سرقته منهن أنجلينا. عنده حبيبة واحدة، تموت عليه ويموت عليها، غجرية ومهبولة، عرفت كيف تسحره، وقادرة على قتل واحدة تدور به.

- معك حق. خوسي يعشق.

ضحك السائق الذي شاركهم بأغنية غجرية جميلة:

« أنا عاشقة.

انا امرأة كلية غير قابلة للقسمة»

- زباطا حبيبي كان يحب أغنية أنا امرأة كلية، Je suis une femme entière? Une et indivisible. كثيرا. تذكره بماتيلدا.

- صدفة جميلة. قال السائق الشاب. أعرفه. عمو إمليانو زباطا محضر الثيران للمعارك. رجل كبير ويستحق الاحترام. وسعدت أن تركب معي ابنته ومتادور وهران العظيم.

- العالم أضيق من فتحة عين؟

- أجمل شيء في وهران أن الكل، يلتقي بالكل. قال السائق الذي كان يناقش براحة، كأنه واحدة من المجموعة. يريدون تضييقها، وهي

خلقت للجميع. بل كنا فيها قبلهم. العرب كانوا هنا قبل القرن التاسع عشر. وكنتم هنا مع الهجرات الموريسكية الأولى. تعرفون أن جدي من مهجري محاكم التفتيش المقدس منذ القرن الثالث عشر، عندما سقطت طليطلة. حتى اسمي العائلي تتلي. وهي تحريف صغير للطليطلي، يعني ابن طليطلة.

– واووووو. برافو صاحت أنجلينا. في وهران تقاطعات غريبة. جدي من أمي قريب وضعه منكم. جاء إلى هذه الأرض في القرن السابع عشر، بينما من والدي جاء هاربا من إسبانيا في عز الحرب ضد فرانكو. عندما ضاقت به الدنيا. كان بين أن يرحل من الجنوب إلى تلمسان، أو وهران. رأى أصدقاؤه أن طريق وهران كان أنسب وأكثر أمنا. فسلكوها.

– تعرفين العربية سيدة أنجلينا؟

سألها السائق. ضحكت.

– واش يا خويا حسبتني طاليطلانية نتاع بكري؟ هههههه وهرانية تاع الصح، شطارة وقباحة. وفوق هذا مقودة في رأيها. لا أعرف غير هذا. واش تحبني نقولك.

اندهش السائق من لغتها الوهرانية الحادة.

– خلعتني يا أختي.

– هههههه هذا باش نبين لك بلّي راني بنت الكميل، قبل ما يشتري بابا مزرعة صغيرة لتربية الدواجن. أوقف تربية الثيران.

– طيب. ولمَ اضطر عمو زباطا إلى تهريب الأسلحة للانفصاليين كما يسمونهم، والثوار كما نسميهم. عندما يظلم شعب لا تلمه عما يمكن أن يفعله للحفاظ على وجوده.

اندهش الجميع من حريته في الكلام. لدرجة أن خوسي انتابته بعض الشكوك. وبدأ يتفرسه في المرآة العاكسة.

- لا تخف سيد خوسي. أنا وأخواتي، وأختي الكبيرة الفنانة، وصديقتها الفنانة الكبيرة، نور، التي رسمتك كثيرا، لم نضيع ولا منازلة من منازلاتك. نحبك جدا. أختي كانت حاضرة يوم واجهت رجال الدين والمضادين لرياضة الطوريرو. قالت لي بحماس، مسخهم. عراهم واحدا واحدا، وبين نفاقهم. هي الشابة الحنطية التي طلبت منك قبعتك عند المخرج. عند انتهاء المنازلة، مرت لتشكرك على أدائك، ثم طلبت منك القبعة للتصور بها، فوضعتها أنت بيدك على رأسها.

- واووو. ما هذا الحظ. طبعا أتذكرها.

- أما أختي الكبرى، فكانت مع صديقتها الفنانة نور، هي أيضا مجنونة عليك. سلمتك لوحة يوم انتصارك. تقليد دقيق عن رسم لفانسون فان غوخ: الجمهور في حلبة مصارعة الثيران. سلمتها لك بعد نهاية مقابلتك، مع افتتاح حلبات وهران بعد غياب طويل. أختي كانت بجانبها، وحكت لي عن كل التفاصيل. قالت لك نور جملة واحدة قبل انسحابها. كنت وراءها:

« - انت لا تعرفني. غامرت وجئت من أجلك، فقط لأراك، وأقول لك كنتَ مدهشا. هذه اللوحة أنا من أنجزتها لك. وسأرسم ثانية من وحي الإستوكادا التي أديتها بسمو.»

- إلهي؟

- لوحة الإستوكادا أنجزتها، لكنها سرقت، يوم قتلها يهودي

متطرف، في شارع جوفري، ليس بعيدا عن الكنيس اليهودي. أختي تعرف كل التفاصيل الخاصة بلوحتها. يقال سلمت لأهلها.

وضع خوسي أورانو يده على فمه. صمت لكيلا يصرخ مثل الذئب الخلوي. مر كل شيء أمام عينيه. يتذكر جيدا خجل تلك الفناة.

نظرت إليه أنجلينا. تحسست ملامحه.

- ما بك حبيبي. أليست هي اللوحة التي في بيتك في الكمين؟

- بالضبط. لكني أتساءل من أي سماء نزل هذا الشاب؟

هل هي قصدية إلهية، أم هو عناد الصدفة؟

- هي الدنيا حبيبي، لسنا إلا ذرات صغيرة، نعاند جبروتها، لكنها تفعل بنا ما نشاؤه.

لاحظ خمينيث حيرته.

- ألم أقل لك يا خوسي، إنه يجب أن نثق في الحياة أولا. لا الأفكار المسبقة، ولا الإيديولوجيات الجاهزة تنفع.

- معك حق عزيزي. يكفيني الآن أن أنجي حبيبتي رجعت بعد كل هذه الغيبة. ليأخذوا ما يريدون. لم أعد معنيا بهم.

تدخل السائق مرة أخرى.

- أعتذر. تمنيت لو طالت الرحلة أكثر. اقتربنا. سأحكي مع

أختي عن لوحة الإستوكادا. توصلنا إلى أهلها. كانت حقيقة تريد تسليمها لك يوم لقاء الكاتدرائية، لولا ذلك المجنون الذي سرق منها حياتها. كانت نور امرأة شديدة الطيبة وكريمة إلى أقصى الحدود. لم تزدها الحياة إلا حبا للناس.

- نعم. أختك صديقتها، وأعتقد أنها لن تبخل عن مساعدتنا.

نتبادل العناوين والتليفونات ونتواصل. أتذكرها كما الآن، أتذكر خجلها واحمرار وجهها، وبساطتها وعفويتها وفنيتها.

- قرأت بعض تصريحاتك عن القنابل التي وضعوها في

بعض الأماكن العامة. طبعا نختلف. جرائمهم هي التي أحدثت شرخا في المجتمع الوهراني. طبيعي أن إيمليانو، الذي يحبه الجميع، اختار مسلكا سبقه إليه الكثيرون. فرناندو باستيا مثلا. الذي أخذ من محله في لاباستي وساقوه وفق الكثير من الشهادات، لشاطوناف في وهران. من

يومها لم يظهر له أي أثر. حتى زبانا. لم ينج منهم. لقد رسموا الإعدام بالمقصلة منذ اللحظة الأولى.

شعر أورانو كأن قلبه سيسقط في صدره. تذكر محاكمته وكيف وقف باستقامة، ولم تظهر عليه علامات الخوف حتى والقاضي العسكري ينطق حكم الإعدام.

– تعرفت عليه. كان صديقي، وفرقتنا الدنيا.

– زبانا كان يحب كرة القدم ومولع بها. يحب الكوريدا ولا يضيع مقابلة واحدة. كان يحب الفن الوهراني. لكنه عاش الظلم في سان لوسيان، وهذا ربى لديه الكراهية ضدهم.

– قصته طويلة. حميدا كان لطيفا ومسالما، ولا يريد إلا الخير. عرفته عن قرب. اختار طريقا صعبا، وقاسيا دفع ثمنه.

– وهل تظن يا سيد خوسي أن العاقل يحمل سلاحا للمتعة؟ طبيعي الخيار صعب جدا.

– أكيد.

– تابعت حركته قبل أن يلقوا القبض عليه. أصبح نموذجا للكثير من الشباب، وأنا منهم. اختار طريقا للخلاص من الظلم. قاد عملية لاماردو في 4 نوفمبر 1954 ومعركة غار بوجليدة في 8 نوفمبر 1954 التي وقع فيها أسيرا بعد أن أصيب برصاصتين أقعدتاه.

نظر خوسي نحو خمنيث، لكنه لم يقل شيئا. فقد فهمه.

واصل الشاب استعراض ما يعرفه. توقف في الضوء الأحمر عند مدخل لاكاليرا. التفت نحو خوسي أورانو وسلمه بطاقته.

– هذه بطاقتي. نتواصل قريبا، متى سمح وقتك طبعا. تعرف سينيور خوسي، أن الثوار هددوا، أنهم، في حالة إعدام زبانا ورفاقه، سيقتلون

السجناء الموجودين لديهم، وسيطاردون كل عملائهم. عبان رمضان وابن مهيدي صاغا معا وثيقة تقول: مقابل كل مجاهد يقتل، سيتم إعدام مائة فرنسي بلا تمييز. كنا ننتظر من الوزير المقيم روبير لاكوست[1] أن يعلق الإعدام بالمقصلة، لكن للأسف ثمن قرار المحكمة.

- معلومات دقيقة؟

- تعرف يا سيدي وصلنا إلى مرحلة، لم يعد لدينا ما نخسره.

- سعدنا بك جيدا عزيزي ياس.

- وأنا أكثر. لقد فتح علي الله اليوم بلقائي بكم. الغريب أني أعرف عنكم الكثير من الأشياء. سيدة أنجلينا، حكى لي عنك عمي كثيرا وعن جرأتك، وشجاعتك، وكيف حميته في محطة قطار وهران، برفقة جماعتك من الغجر. هو والسيدة التي كانت ترافقه. كانت معهما حقيبة من المنشورات السرية التي تم توزيعها عند مدخل الملعب، في اليوم الموالي، أثناء منازلة أنطونيو دي غاليسيا.

قالت أنجلينا وهي مندهشة:

- لا يعقل؟ إيدير سيفاكس؟ عمك؟

- نعم. عمي الأصغر. والدي ماسينيسا، يقول إنه هو من أسماه كذلك تبركا بالقائد النوميدي سيفاكس. حزين أن أهله أسموه ماسي، أو ماسينيسا، لا يحبه، لأنه تحالف مع الرومان ضد صديقه سيفاكس الذي قاوم حتى قتله الرومان ومزقوه في الساحات العامة. اعتبر خائنا.

- وزوجته، السيدة الطيبة؟

- ميشلين. هههههه

- نعم. أنت يا ياس، أكثر من قدر. أنت نور منحه الله لنا. أنا لم أفعل شيئا لهما. كنا عائدين منتشين من العاصمة، وكان معنا والدك العظيم

1. Robert Lacoste.

وصديقته ميشلين التي أصبحت زوجته، وكان لابد أن نجد مسلكا نمر عبره. كنت أعرف ماذا يوجد في الحقيبة. سألته إن كان يحمل سلاحا، قال، منشورات ضد الظلم والتقتيل المجاني. ومر كل شيء جميلا. برودة أعصاب ميشلين قوية كالحديد، وباردة كالثلج. نساء من عيار آخر.

- كيفهم؟

- ميشلين تعبت قليلا، لكنها بخير. وعمي سيفاكس، لا نراه إلا قليلا. مهامه كثيرة جدا. لكننا نتفهمه. وأنا كما ترون، أسعى لأن للحصول على قوتي اليومي بسيارتي.

- يجب أن نتواصل، كرر خوسي أورانو. فرصة قد لا تتكرر أبدا.

- عندك كل شيء. العنوان والتليفون. اتصل، أو نتصل بك نحن.

توقفت السيارة عند حافة **مطعم البحر**، ليس بعيدا عن سفن الصيادين الراسية في خط مستقيم.

أخرج خمنيث ورقة نقدية. لم يتركه خوسي وألح على أن يكون هو من يدفع.

سأل خمنيث ياس.

- حقيقة أنت رائع عزيزي ياس. لم ننتبه للمسافة. استمتعنا برفقتك. مر الزمن بسرعة وكأنك اختصرت المسافة؟ كم يا ابني؟

لكن بمجرد نزولهم، كان ياس قد اقلع سيارته.

صاح خمنيث:

- أنت لم تأخذ حقك يا ابني؟

- لا يا عمي خمنيث. منحتموني فرصة أن أحب وهران أكثر، من خلالكم. رفقتكم كانت أجمل هدية. سينيور خوسي أورانو. ننتظرك في نوفمبر القادم. نحبك ونسال فيك.

لم يفهم خوسي جيدا.

ضحك ياس.

- قل لأنجلينا تشرح لك.

- خليها عليّ راح نعرف كيف ندخلها له في رأسه. بمعنى أنت جزء منا. لنا حق فيك.

- ربي يحفظكم. سعادتي لا توصف.

ثم أقلعت السيارة بسرعة أكثر متخطية مساحات الحراسة التيتحيط بالبحر. تأملها خوسي أورانو وهي تتسلق الأعالي، حتى انطفأت داخل كتل الضباب.

تمتمت أنجلينا

- في هذه المدينة دوما ما يدهش.

- لا أعرف حقيقة من أين نزل ياس؟ بكل هذا الكم من الصدف الجميلة والمعلومات الرائعة.

دخلوا إلى المطعم. مطعم البحر.

قال خمنيث لصاحب المطعم إرنيستو، صديقه:

- حبيبي إرنيستو، أنت تعرف الزبائن.

- ومن لا يعرف خوسي أورانو؟

- كيف سمك اليوم؟

- ممتاز وشبعان. السيدة هيلينا هنا. وصلت قبلكما بقليل. تنتظركم تحت، مقصورة الحافة، على الماء.

قادهم إرنيستو، حيث كانت تجلس هيلينا التي قالت بابتسامة أنارت وجهها كليا.

- هههه هل وجدتما الهارب خوسي أورانو.

- قولي الغبي، سيدة هيلينا. أردف خوسي. من لا يعرف كيف يحافظ على حبيبته لا يستحق الحياة.

ثم التفت نحو أنجلينا.

- ربما كان حبا عاصفا ولم نعرف بعضنا جيدا. انتهت العواصف الآن. ثم عندنا حبيبتي إيزميرالدا التي ننتظرها بشوق.

هيلينا كان قلبها طيبا معي إلى أقصى الحدود، يا خوسي.

- هيلينا هي استثناء لاكاليرا العظيمة.

- سامحني حبيبي. في كل لحظات حزني، كانت تبقى معي حتى أنام مثل طفلة صغيرة. كما كانت تفعل خالتي روزالينا، التي تشبه أمي في كل شيء. قلت لها في مرة من المرات، يا خالتي، هل تقبلين أن تكوني أمي؟ قالت لا أقبل، لأني أمك أصلا. أحفظ عن ظهر قلب أغنيات هيلينا، التي كانت تنومني بها كلما نمت عندها. صوتها كان ساحرا، به بحة مدهشة.

« كم كنتُ وحيدة في غيابك حبيبي إلى أن جئتَ.

شربت البحر في انتظارك،

ونمت في العراء لكيلا أخسر أنفاسك.

غجرية أنا، لن توقفني الأسلاك،

في رأسي رغبة مجنونة للهرب بين النجوم والأفلاك

هذه المرة لن أسافر وحدي، لكيلا أنساك.»

- من الأحسن أن تجلسا وتتكلما براحة.

قال خمينيث وهو يسحب كرسيين لهيلينا وأنجلينا.

20

نظرت أنجلينا بعيدا وهي تسمع موسيقى إسبانية من القرون الوسطة، تتأمل البحر وموجاته الصغيرة التي كانت تأتي، تلثم المطعم ثم تنسحب بهدوء نحو عمق السكينة.

كان الهواء الليلي رطبا وناعما.

قام خمنيث من مكانه بعد أن فرغت قنينة النبيذ، وهو يضم هيلينا التي شعرت بالبرودة الليلية.

– أتمنى أن يكون عشاء سيدنا المسيح الأخير قد راق لكما. لا تنتظرا مني أن أعزمكما ثانية هههه، هذا ليس من شيمي.

– مدهش يا عزيزي. كم أنا مدين لك، ولهيلينا. خياراتك السمكية لذيذة كما هي عادتك. لا أحد يجاريك في هذا، عزيزي خمنيث.

– من يترك قطرة نبيذ وراءه يعاقب من الإله باخوس الذي قدس مذاقه وسحره. غدا سأترك باريخا لامادلين[1] ترتاح قليلا مني، ونهرب أنا وهيلينا نحو جبل الأسُود، الغابة جميلة والحيوانات هناك أكرم من البشر. الباريخا مثل الإنسان، تحتاج إلى بعض الراحة. يمكنكما أن تدخلا البحر بها. هو هادئ حتى الفجر، بعدها تبدأ العواصف. سأغيب بقية نهاية الأسبوع.

– شكرا عزيزي على كل شيء. شكرا هيلينا.

---

1. La Madeleine

- لم نفعل هذا من أجلك يا متادور الذي لا يعرف من الحياة إلا الثيران، ولكن من أجل أنجلينا التي طلبت مساعدتي فقدتها نحو المحامي فرانسوا كوهين. شخصية قوية ولها حضورها. كلمته لا تنزل إلى الأرض، ثم إني أعرفه جيدا. رجل الزوالية[1] كما يسمى. تقريبا لم يخسر قضية واحدة لأنه لا يختار إلا القضايا التي يؤمن بها. للأسف، لو دافع عن أحمد زبانا لكانت النتيجة غير. هو أيضا خسر جزءا كبيرا من عائلته في المحتشدات النازية.

- زبانا اعترف بكل ما فعله، أمام العدالة. لم يكن أمامه حل آخر، فقد جرح واقتيد إلى المستشفى، ثم إلى السجن. والدي لم يجدوا معه إلا المهربات الصغيرة التي نصنعها في البيت؛ عطور نسائية، زرابي، وبيض ودجاج بلدي، ومراهم للحفاظ على الجسد، أو تلك التي نشتريها بسعر، ونبيعها بسعر أغلى قليلا. عقابها القانوني محدود. في قضية السلاح، لم يجدوا بحوزته شيئا أبدا. وهذا مصدر قوة الدفاع. لم يعترف، ولم يوقع على أية ورقة. فرانسوا، تعاطف مع قضيته بشكل واضح. وقال إنها قضيته الأساسية. لم يجدوا معه إلا بندقية صيد قديمة.

- حتى لو وجدوا يا أنجلينا، الظلم يولد هذه الردود. أرى يوميا هذا الظلم أمام عيني. على الفرنسيين أن يغيروا من سياستهم ضد المسلمين وأوروبيي الدرجة الثانية، ويعاملوهم كما يعاملون بقية الأديان والقوميات. هناك شيء ليس طبيعيا. لهذا مر بذهني اختيار فرانسوا كوهين. قوي في أصوله اليهودية الغنية من أمه، والفرنسية الجرمانية من والده. هو أكثر حساسية لهذه الأمور، يعرف متى يضغط وكيف؟ هذه هي استراتيجيات المحاماة.

- هذا ما لم يفهمه جيدا خوسي. له مبرراته أكيد، لكن الظلم مثل السكين، عندما يصل إلى العظم يؤلم جدا. لا يمكن أن يُطلب من غجرية مثلي أن تعتبر من يدافع عن أرضه، إرهابيا؟ وتصمت على جرائم

1. الفقراء.

حكومة فيشي التي دفعت بالغجر، ومنهم بعض أهلي، منذ 1940 نحو جهنم المحتشدات في أرخليس سور مير[1]، والباركاريس[2]، في البريني[3] الشرقية. قبل أن يخصصوا للغجر محتشدا في 1942، في ليسالييي[4]، في منطقة البوش دي رون[5]. تخيل 20000 مقتول بالغازات في ليلة 31 جويلييه 1944، وحدها؟ من الذين رحلوا إلى أوشويتز، قبل أن يتسع العدد إلى 600000، وربما أكثر. شيء مؤلم أن نضرب صفحا عن آلام الآخرين. شاكرة لك عزيزي خمينيث طيبتك ومحبتك، لولاك، ولولا هيلينا وخالتي روزالينا، ما كنت عرفت كيف أتصرف.

– معك كل الحق أنجلينا. كما قلت لك سابقا، خوسي ليس رجل حروب. فهو لا يعرفها. كبر داخل عالم الكوريدا، وهو عالم دائري. ليس لأنه لا يريد أن يسمع للآخرين، ولكن لأن عالمه انغلق عليه كليا. النوم ابن كلب يثقل عيني. قال خمنيث، نترككما. بينكما شوق كبير لن أفسده عليكما. يمنكما الذهاب إلى الباريخا. سأتركها مفتوحة لكما أذا شئتما حتى قضاء الليلة فيها. مريحة جدا. كلما أصبت بالملل البيتي، هربت أنا وهلينا نحو لامادلين. الويكيند سيكون بلا صيد بسبب العواصف المرتسمة. الصباحات الكسولة Les grasses matinées ليست شيئا سيئا.

احتضنهما، ثم غادرا المطعم.

ودعا صاحب المطعم.

– ميرسي حبيبي إرنستو. أسماكك مدهشة ونبيذك الأبيض ولا ألذ منه إلا هيلينا هههه. وحدنا من يجعل لا كاليرا مكانا ما يزال محبوبا ومعشوقا. يوم نغادر هذه الدنيا، تصبح لاكاليرا يائسة.

ثم تدحرجا إلى الخارج.

1. Argelès-sur-Mer.
2. Barcarès.
3. Pyrénées Orientales.
4. Les Saliers.
5. Les Bouches-du-Rhône.

كان الضباب قد بدأ ينزل على البحر، ليغطيه كليا.

قال خوسي أورانو وهو يشد على يد أنجلينا.

- ما رأيك لو نمشي قليلا على حافة البحر. اشتقت للمكان. مر زمن لم آت إلى هنا. أخذتني يوميات تدريب.؟ الأيام الأخيرة كنت أريد أن أهرب.

- نمشي حبيبي. يا الله ما أجمل أن تشعر بأن لك وجودا ما في قلب من تحب. لا يكفي أن نحب، الشعور بأنك محبوب، يمنحك حياة أجمل. فأنت تعني لشخص ما شيئا في حياته. أفظع شيء يا خوسي أن ينتابك الإحساس القاسي بأن من تحبه، ومستعد أن تمنحه حياتك، لا يفكر في جرحك، ولا يبذل جهدا لفهمك. ربما اختلفنا في هذا. لا يوجد في حياتي غيرك. أنا امرأة كلية. لا أقبل بأنصاف الأشياء. أنصاف الأشياء هي التعبير المحترم عن النفاق المبطن فينا جميعا.

- لم يكن قصدي أن أجرحك. ما يهمني اللحظة أننا معا، وأن إزميرالدا ستكون سعيدة.

- أريدها وأريدنا كذلك.

مشيا على البحر. كان طعمه نديا. فضل ألاّ يسألها عن شيء، ويتركها على راحتها. وأن تتكلم متى ما شاءت.

فجأة توقفت ومسحت على وجهه. كان الضباب قد حولهما إلى ظلين هاربين.

- تعرف حبيبي أنا مثل جميع الغجر مزاجي متطرف جدا، لكنه صادق ولا يعرف النفاق. ولولا هذه المهبولة التي في بطني، وحبي لك، كنت تركت كل شيء ورحلت من هذا المكان نهائيا لأني لو بقيت هنا لن أستطيع مقاومتك. لو فقط كنت تدرك تلك اللحظة كم كنت أحتاجك، لكنك كنتَ بعيدا جدا.

- أعرف. كنت أحمق. عندما ذهبت أدركت كم كنت مرتبطا بك. وكم تركت في فراغا. تفاجأت كيف ان لقاء بسيطا هزنا من الأعماق ووضعنا في ظرف وجيز في نفس المدارات.

- اعذرني أني ورطتك مع بني أدم غبي، بل ومجرم.

- غارسيا؟ مجنون. أحيانا أفهمه، لأنه مثلي، لم يعرف كيف يحافظ عليك. كان غبيا. أناني بشكل مقيت. غيرته دفعت به إلى توريط والدك، وإلى تقديم دعوى ضدي؟ تخيلي؟ كل شيء ينتزع بالقوة، إلا الحب فهو شأن القلب. سأعرف كيف أدافع عنا، عنك وعن إزميرالدا لأنه يقول إني سرقت زوجته وابنه.

- انتهى من وجودي. سأكون شاهدة وسأقول ما يملأ قلبي. عندما غاب ظننت أنه قتل. أو هكذا أشيع بين الغجر. وبدل الحزن عليه، ضحكت كثيرا في ذلك اليوم ورقصت أكثر، ولم أمنح نفسي حتى دقيقة واحدة للحزن. وكان هو من دبر الفصل كله. كان حاقدا علي، لكني كنت أعرف مصدر جبنه. لهذا لم أعره أي اهتمام. سكر وحاول اغتصاب زمردة، لكن فتح وجهه بضربة سكين حادة، قادته الى المستشفى، وهناك خاطوا وجهه.

- ضغينته كبيرة.

- لو لم أكن حاملا بحبيبتي إزميرالدا، كنت ذبحته. أسهل شيء أن تقتل رجلا. لكنه سيموت كالكلب. نرتب أمورنا الحياتية وأخرسه إلى الأبد. كنت أفكر أن أفتح في المارشي، أو حتي في لا كاليرا محلا لبيع العطور اليدوية والمراهم التي تنشط الجسم، والصناعات اليدوية، مثلما فعلت خالتي، وأقلل من حياة الغجر الصعبة. وفي أحيان أخرى أذهب بعيدا وأقول لماذا لا آخذ كل أغاني الغجر، خالتي تحفظ منها الكثير، وأصدر مع فرقتي الصغيرة، ديسك فينيل 33 أو 45 الناس يحبون ذلك. من أجل هذا يجب إيجاد ستوديو حقيقي ومنتج متحمس لأغاني الغجر.

- المهم تقومين بخير أنجي الحبيبة، وبعدها كل الأمور تترتب.

- عندما يركبني عفريت، أمشي بلا أسئلة كثيرة.

- ليس الأمر معقدا، يمكنني أن أساعدك.

أحنت رأسها قليلا. يكاد وجهاهما يغيبان في بياض الفراغ. مدت أنجلينا يدها طويلا في عمق الضباب حتى اختفت للحظات. ثم عادت بكفها وهي تشبك أصابعها.

ابتسم خوسي أورانو. قالت بشيء بشبه الهمس:

- هل تعرف ماذا فعلت الآن؟

- ذكرتني فقط بقصيدة أعتقد لغارسيا لوركا، عنوانها: **وردة الضباب. وردة المستحيل.**

- وأنا قطفتها لك وردة الضباب، اسكنها في قلبك. قل لي حبيبي، لماذا هزك كلام سائق التاكسي عندما تحدث عن زبانا؟

- تلك فجيعتي الكبرى. تعرفين أني أعرفه جيدا. عندما نرتاح أحكي لك عن كل شيء بالتفاصيل. لم أكن أتصور أن شيئا كهذا يمكن أن يحدث؟ عندما راجعت تاريخ لقائنا الأخير، أدركت أنه تعشى معنا في هذا المكان بالضبط، ثم ذهب نحو الموت، لولا أن عمره كان أطول. كيف قتل حارس غابة بريء؟

- يا حبيبي خوسي، يجب أن تأخذ الخبر دوما برؤوس أصابعك. المصدر يحدد هوية الخبر. أنا أقرأ ألجي ريبوبليكان[1] لا أجد نفس الصياغة. كان يعرف أنهم سيأخذون سلاحه. أعطوه الأمان، لكنه بالمقابل أطلق عليهم النار. تحدثوا في الجريدة عن علاقة بين زبانا وأخت حارس الغابة. لكن أخاها رفض هذه العلاقة، ولهذا أرسل أخته إلى ألميتروبول.

1. Alger Républicain.

- أي نفع بعد حدوث الكارثة.

- نعم حبيبي ما جدوى الاعتذار.

وصلا إلى الحافة. نزعت نعليها بأناقة العروس. كومت معطفها الصغير عليهما. وضعتهما على الكرسي الخشبي الطويل. لامست الماء. بدا دافئا. مدت له يدها، ثم دخلا إلى البحر تحت انعكاسات الضوء المدهشة.

- تعرف أني أخافه؟ مع أنه رائق. لكن في حضرتك لا مشكلة لي. أعرف أني مستسلمة لك. يمكنني حتى الدخول إلى الداخل وأعرف أنك لن تسلم فيّ، وأنك ستنقذني هههه.

- أكيد، حتى ولو سرق البحر مني حياتي.

ضحكت، فتجلت على وجهها كل ملامحها الطفولية. مدت يديها للماء مرة أخرى كأنها خائفة منه.

- سأختبرك. هههه.

سحبت يدها من يده. ثم بدأت تتوغل وتغيب في كتل الضباب، قبل أن ترمي بنفسها فيه، ولا يسمع إلا حركات ذراعيها المتتالية وهي تغوص في الماء.

- ارجعي يا مجنونة. ظننتك تمشين قليلا فقط. غير صحيح أنك لا تعرفين السباحة. لا أراك جيدا ولكن صوت الماء يحدد طريقة شق الماء بذراعيك والسباحة.

لم تسمعه. واصلت السباحة متجهة نحو كسارة الموج التي تفصل بين البحر وبين ميناء الزوارق والباريخات الخاصة.

فجأة اختفت في عمق الضباب.

- يا مجنونة توقفي. ستضيعين. أنجي حبيبتي أينك؟

كان سطح البحر مضاء كليا، لكن الضباب حول الأنوار إلى مجرد بخار من الضوء، تتراقص أمامه حبيبات الرذاذ في شكل دوائر ملونة. حاول أن يصرخ بأعلى صوته لكنه خاف أن يوقظ الناس. فجأة رأى جسدها وهو يلتوي داخل البحر، تنعكس على سطحه اللماع آلاف الألوان. تأكد أنها سباحة حقيقية

- تعال حبيبي. البحر يمحو كل الثقل الأسود الذي بداخلنا.

اقترب منها حتى أصبح يلامس جسدها.

- لي طلب صغير ونحن في الماء.

- اطلبي أنجي الحبيبة.

- لا ليس الآن. لما نكون في الباريخا.

شبحان في بياض البحر. سبحا حتى غادرا منطقة السباحة المرتبطة بالمطعم. أخذت نعليها الخفيفين، وأخذ هو معطفه، وضعه على ظهرها. كانت ترتجف. ثم صعدا نحو كسارة الموج. ونزلا من الناحية الثانية باتجاه الزوارق الصغيرة الراسية. كانت علامة: La Madeleine فتحا الباب ثم انزلقا إلى داخلها. كانت دافئة ومعطرة وكأن خمينيث الفوضوي وهيلينا المنظمة جدا، رتباها من أجلهما. دخلت إلى الحمام. ارتدت فوطة وردية وجاءت لتجلس بالقرب منه، وهي تحمل شمعتين معطرتين.

نظر إلى عينيها.

- أنزع الأملاح وأعود لك.

شدت على يده، وأبقته في مكانه.

- أريدك بملحك. تزوجني الآن كما أنت، وليكن البحر شاهدا علينا.

- نتزوج. البحر حبيبي، لن يكون ضد قلبي.

- كنت غائبا، وكنت أجيئك سريا هنا. أنتظرك. كنت أشمك عن بعد. كانت هيلينا ترافقني، وكلما أحسّت برغبتي في الوحدة والعزلة، صعدت إلى الباريخا، هنا، وانتظرتني. كنت أحبها. امرأة حساسة. كنتَ أنت وقتها في عالمك. الكوريدا والثيران، وتدريب الأطفال، وربما عشيقاتك المسحورات بك. كل يوم كنت أقول إنك ستأتي وأراك، ولو عن بعد. لكني كنت أعرف أيضا أنك لن تأتي.

- لا أعرف ماذا أقول؟

- دعنا من هذا. هل تريد أن تتزوجني؟

- هههههه لحظة.

نظر إلى وجهها جيدا.

نزع خاتمه الناعم من إصبعه، ثم وضعه في إبهامها. اهتز جسدها فرحا. ضحكت عيناها. ثم حركت الخاتم في أصبعها.

- كبير قليلا، لكني أقبل به.

ثم نزعت خاتمها ووضعته في إصبعه الصغير، الخنصر.

- صغير جدا لكنه يدخل، أقبل به. قبلة الزواج.

تحسس وجهها قليلا كأنه يكتشف ملامحها للمرة الأولى. لمست شفتيه، وشعره ورقبته. اقتربت منه أكثر حتى لامست شفتاها بشرته. استنشقت طويلا.

- يااااااه حبيبي. رائحتك هي هي رغم سلطان البحر وملحه. خذني كما لم تأخذ أية امرأة من قبلي. خذني ولا تسأل جسدي. لا تستأذنه في شيء، فهو لك. لن يكون إلا لك. امنحني كل ما حرمني منه غيابك.

تمددت حتى التصقت به. ثم نظرت إليه وهي تنزع لباسه المبلل. كان جسدها بطعم الملوحة، والمسك، والعنبر، ينام في عذرية ساحرة.

- حبيبي. أي غياب قاتل حلّ بي؟

- أي حضور ساحر يا أنجي. لا يمكنني إلا أن أكون أسعد مخلوق في هذه الدنيا. لو يكتب لي أن أجن، سأجن بك. لو يتاح لي أن أصنع تمثالا، سأبني لك واحدا تحت تلة لاكاليرا، في عمق الحجر الأبيض، وبقليل من الصبر والذكاء، سأنقش في الصخر الصلب، واحدا لخمنيث وهيلينا، وتمثالا آخر لخالتك روزالينا، لأنهم عرفوا كيف يحافظون عليك في غيابي.

ينكسر الضوء على جسديهما كأنهما تمثالان من برونز.

غمغمت في ظلمة اللحظة:

- هذا التمثال الجميل لي، من أين أبدأه؟

- من أي مكان يجعل الزمن الصغير، أبدية...

21

بعد الهمهمات التي كانت تصعد وتنزل، ساد الصمت فجأة بعد أن ضرب القاضي على المكتب، بمطرقته الخشبية.

- القضية المدنية 77. المحامي والمتهمون والشهود هل الكل

حاضر؟ السيد غارسيا بكيبيو، أما زلت مصرا على أن السيد خوسي أورانو الماثل أمامنا، قد اعتدى عليك، وضربك؟

التفت الكثير من الحاضرين صوب خوسي. عندما قام ليعلن عن حضوره، همهم الناس بدهشة

" خوسي المتادور.... لا يعقل"

- اجلس السيد خوسي.

ثم التفت القاضي جهة غارسيا ومحاميه والحاضرين معه.

- أصل الآن إلى قضية الجرح العمدي والسكين، بهدف القتل. هذه

مسألة إن ثبتت، يترتب عليها سجن المتهم. سينيور غارسيا، أما زلت مصرا على أنّ خوسي أورانو اعتدى عليك بالسكين أو بآلة حادة؟

- نعم. ضربني بالسكين على وجهي. العلامة شاهدة حتى اللحظة

ولا يمكنه أن ينكرها، ولن أقبل بغير حبسه. فوق هذا، أعطى لنفسه الحق في سرقة زوجتي وابني، إذا لم يكن قد قتلهما، فهو يدعي أنه لا يعرف عنها شيئا، وأنها غابت فجأة.

- وحدة وحدة يا غارسيا. لست أنت من يأمر بالحبس ولكن نحن.

هل اعتدى عليك حقيقة، لأن بعض الشهادات تقول عكس ذلك وتتهمك أنت بالاعتداء لفظيا عليه في سوق الكميل.

يطلب محامي خوسي أورانو، التدخل. يُؤذَن له.

- سيدي القاضي، في هذه النقطة تحديدا، وقضية الاعتداء بآلة حادة، لديكم وثيقة المستشفى، وتاريخ الاعتداء عليه، وإجراء العملية والطبيب الذي أجراها. ناهيك عن كون موكلي شخصية اعتبارية لا يمكنه أن يقوم بذلك دون أن يخسر سمعته في المدينة وربما البلاد كلها. ليست من أخلاقه. أما السيد غارسيا العكس تماما. لا يغادر السجن إلا ليعود له. الوثائق موجودة لديكم يا سيدي. خلال عشر سنوات، سُجِن غارسيا 22 مرة، بمعدل مرتين في السنة. كلها اعتداءات بالسكين، وكللها بجريمة قتل.

يصرخ غارسيا طالبا من محاميه التدخل.

- أينك يا سيد روشتو؟ يجب أن تغلق فم المحامي. إنه يورط في ظلما. تكلم.

تدخل القاضي بمطرقته مرة أخرى ليسكت غارسيا بكينيو.

- يا سيد غارسيا في المرة القادمة إذا تدخلت بدون طلب مني، سأخرجك من القاعة. لا تدفعني إلى هذا. ميتر روشتو، هل لديك تدخل للدفاع عن موكلك، أو للرد؟

يقوم ميتر روشتو، يعدل من هندامه مرة أخرى. كلما جلس ثم قام تداخل لباسه الفضفاض حتى يكاد يضيع فيه، بسبب قامته القصيرة.

- أقوالنا مثبتة لديكم ووثائقنا عندكم. الاعتداء لا شك فيه. ووثيقة الجرح سلمها له الطبيب مباشرة بعد فحصه.

- لم نجد وثيقة قوية، إلا شهادة طبيب عام وهي غير نافعة

في الحالات الشبيهة، في الوضعية التي نحن فيها. معاقبة موكلي على جرم لم يرتكبه، شيء غير لائق بالقضاء الفرنسي.

رد القاضي الذي كان يتابع المحامي كلمة كلمة.

- ميتر روشتو، أنت في القضاء، وتعرف جيدا أن أية كلمة، في هذا المجلس، لها وقعها وقيمتها. نحن نستمع ولا نعاقب.

يطلب القاضي من غارسيا أن يقوم. يسأله.

- كم سنة وأنت تعيش مع أنجلينا.

- هي زوجتي. قرابة العشر سنوات؟

- لماذا لم ترزقا أبناء طوال هذه المدة؟

- لأنها كانت ترفض أن تنام معي.

- كيف صبرت عليها طوال هذه المدة؟ ألم ترغمها.

- أخلاقي لا تسمح لي بفعل ذلك؟ وأي ابن سيكون ثمرة للاغتصاب حتى ولو كان تحت سقف الزواج؟ لا يا سيدي القاضي تركتها على راحتها.

- طيب عذرا، وكيف حملت؟

- في الآونة الأخيرة تحسنت علاقتنا وأصبحنا في وضع أحسن. وكان من نتائج ذلك أن حملت مني. ثم بسبب سلسلة من الخلافات المرتبطة بوضع الحمل، افترقنا مؤقتا.

تدخل محامي خوسي أورانو ميتر أدولف، في اللحظة نفسها.

- هل يسمح سيدي القاضي.

- تفضل ميتر أدولف.

- الخلافات بين الأزواج طبيعية يا عزيزي غارسيا.

- نعم ميتر. فراقنا كان مؤقتا قبل أن يدخل خوسي على الخط ويسرقهما مني، ابني وزوجتي. الغجر لا يطلقون أبدا.

- إذن خرجت من البيت وهي حامل.

- نعم، شهادات الحمل تبين ذلك.

- كم كان عمر الحمل؟

صمت غارسيا قليلا، وكأنه أخذ على حين غرة.

- حوالي الأربعة أشهر.

- متأكد.

ثم التفت نحو القاضي وهو يصرح:

- انتهيت. عمر الجنين ليس أكثر من شهرين. شكرا. الوثائق مثبتة لديكم.

التفت القاضي نحو غارسيا مرة أخرى:

- هل لديك ما تضيفه؟

- ما لدي قلته. هي غادرت البيت لتتفرغ لمساعدة والدها في تهريب الأسلحة.

وهذا كان اختلافنا أيضا. نحن نعيش جزئيا على التهريب، ولكن لا يمكن أن نتسبب في قتل الأبرياء.

- أجب يا سيد غارسيا في حدود ما هو مطلوب منك فقط.

- مازلت مصرا أنه لولا هذا الوغد الذي فتح وجهي بمطوى حاد، ولولا اختطافه لها ولابني، لعشنا اليوم بخير.

طلب ميتر أدولف التدخل. وافق القاضي.

- سيدي المسألة بسيطة. ها هي نسخ مصورة من وثائق الأطباء الثلاثة الذين زارهم غارسيا، في مرات متفرقة، وكلها تثبت أن غارسيا عاقر، لا ينجب. ليس مشكلا ألا ينجب الإنسان، لكن الكذب والتجني على الغير يعاقب عليهما القانون. كل التقارير تؤكد على ضعفه المنوي. لا يريد أن يعترف بهذا الضعف وكأنه يمس برجولته. الأمر يحدث مع الكثير من الناس، بعض الحالات تتم معالجتها. أما بالنسبة لوالد أنجلينا، نعم هو في السجن على ذمة التحقيق بسبب شهادة زور من غارسيا بكينيو مرة أخرى، وها هي وثيقة الوشاية الإدارية. الأصول كلها في حوزتكم. طبعا والد زوجته كان يهرب السكر، والزيت، والخضر والفواكه، وكل مصنوعات الغجر اليدوية، والبيض البلدي، والدجاج الذي يربيه في مزرعته، يوصلها إلى مرتفعات الجبال، جبل الأسود وسانتا كروث. رجل مجد ويؤمن بقيمة العمل، لكنه ليس مهرب أسلحة. مصدر الوشاية حالة حقد. لتعرفوا غارسيا بشكل جيد.

قام محامي غارسيا بيكينيو بتثاقل كما العادة منذ بدء المحاكمة، خطا خطوة، مسح كل أرضية المحكمة بلباسه الطويل، قبل أن يصل إلى الميكرو.

- كل شيء مرتبط ببعضه سيدي القاضي. إيمليانو زباطا مجرم وقاتل في عين القانون الفرنسي. ويمكن أن يفضي به ذلك إلى الإعدام، وهذا قليل عليه. أعتقد سيدي القاضي، أن تهريب الأسلحة لقتل المواطنين الفرنسيين، جريمة لا تغتفر.

ردّ القاضي وهو يجول بعينيه في كل القاعة.

- هذه قضية من اختصاص محكمة أمن الدولة، واعتقد أن التهم المحتفظ بها حتى الآن هي التهريب وامتلاك بندقية صيد قديمة، بدون

وثائق. على أي هناك محكمة مختصة لذلك. هل لدى السينيور غارسيا بكينيو شهود يمكن الاستفادة منهم.

- شاهدان، لكنهما لم يحضرا لأسباب نجهلها. ربما تهديدات خوسي أورانو. نعرف جيدا يا سيدي القاضي، أن معارفه كثر.

- لا أحد منهما حضر؟ ماذا يعني هذا؟

طلب المحامي ميتر روشتو، مواصلة الكلام.

- لم يأتوا لأن الكل خائف. حياة الغجر يا سيدي صعبة، والانتقام بينهم كبير يصل حد القتل. الغجر بلا رحمة، وأنت قاض وتعرف. منسوب الجرائم بين الغجر والعرب هو الأكثر ارتفاعا. طبيعي لأنهم قوم معروفون بالاختلاط مع بعض. على الرغم من نقاء جنسهم الهندي الأصلي، إلا أنهم مسخوه.

ضجت القاعة فجأة بصوت واحد

raciste[1]... raciste... raciste...raciste...

كان غارسيا منتشيا، ارتسمت على وجهه علامات الفرح

والانتصار، وكأن القاعة كانت تناصره؟

قال القاضي بنبرة هادئة وصارمة.

- ميتر روشتو، نحترمك ونقدرك، لكن أحكاما كهذه على قوميات أخرى، غير مقبولة في مجلس قضائي كهذا. لو كنت تعرف يا ميتر، وأكيد أنك تعرف، تضحيات الغجر في الحرب العالمية الثانية ما قلت هذا الكلام القاسي. لقد التحق الكثير منهم بالمقاومة الفرنسية، ودافعوا عنها حتى الموت. هناك إبادة جماعية للغجر من طرف النازية، لابد أن يتحدث عنها التاريخ يوما ما. يجب أن يتحدث عنها بالاهتمام الذي يليق بها.

1. عنصري.

- معك حق سيدي القاضي. كنت أحاول تقريب الفهم فقط لوضعية

اجتماعية يعرفها الجميع، وهي مرتبطة بنظام اختارته جماعة بشرية بحرية. طبعا أدين كل ما هو عنصري.

حك القاضي على رأسه. نظر يمينا ونظر شمالا. تداول مع مجلسه. أحدهم أخذ ورقة من الملف. ثم ابتسم وكأنه الوحيد الذي رآه غارسيا. أراد أن يقوم، لكن محاميه أقعده.

- لا شهود لديك السيد غارسيا. قال القاضي. هذا لا يساعدك كثيرا ويضعف من إفادتك. ميتر أدولف، هل هناك ما تريد قوله أنت وموكلك وشهوده.

قام ميتر أدولف. عدل من هندامه. صمت قليلا وهو يقلب بعض الأوراق التي كانت بين يديه. ثم رفع رأسه.

- إذا سمحتم، سيدي القاضي، أفضل أن نسمع للمعنية بالدرجة الأولى، لها ما تقوله. رمزيا هي المعني الأول بكل ما حدث. هي أيضا هنا ليس بوصفها متهمة، ولكن كشاهدة.

- موافق ميتر. الكلمة للسيدة أنجلينا أموندين. الشاهد الأول وصديقة المدعَى عليه السيد خوسي أورانو.

- نعم. سيدي.

- تفضلي. نستمع إلى شهادتك.

- أولا غارسيا ليس زوجي. أو لنقل لم يعد زوجي. وافترقنا قضائيا منذ مدة. وقدمت ضده شكوى اعتداء محفوظة لدى محكمة وهران، والأمن الوطني، مقاطعة الكميل. هي عندكم، لابد أنكم اطلعتم عليها. قضية الأولاد نحن في قطيعة منذ أكثر من سنتين. فوق هذا هو عقيم. وقد حاولنا لدى مختصين أنا وهو، وأكدوا لنا استحالة المعالجة، فصرنا

نجرب الأدوية الشعبية التي يتقنها الغجر. وكل الوثائق الطبية محفوظة لديكم ولدى المحامي ميتر أدولف. أنا أعتذر فقط لحبيبي والرجل الذي احببت بكل ما أملك من قوة، خوسي أورانو. الرجل الجميل والعظيم، ورمز كل الوهرانيين، أني ورطته في دوامة هو بعيد كل البعد عنها. لا يمكنه ان يسقط إلى الحضيض. أورانو لم يفعل شيئا سوى أنه أحبني كما أحببته لا أكثر، وكنت طليقة غارسيا بيكينيو. والدي متهم. نعم. لكنه ليس مجرما. كل الغجر يعيشون بالتهريب الصغير، لكيلا يسرقوا. الحياة صعبة يا سيدي.

فجأة صرخ غارسيا بأعلى صوته من داخل القاعة.

– هذه قحبة حقيقية، وكان يجب أن أقتلها. هل يعقل أن تنام مع رجل وهي في عنق رجل أخر؟ سترت كل خبثها، وحماقاتها، لكن الآن يجب أن تفضح.

– أنا ما أعطيتك الكلمة. المرة القادمة سأطلب إخراجك من القاعة وحبسك. الزم حدودك، أنت في مجلس قضائي وليس في سوق.

هدأه المحامي وطلب منه ألا يكسر المحاكمة التي قد تكون في صالحه. ألاّ يضيع الجهد الذي بذلوه طوال الشهور الماضية لتنظيم المرافعة بحيث تكون مقنعة قضائيا.

– واصلي سيدة أنجلينا أموندين.

– أشكرك يا سيدي القاضي. كلمة أخيرة. أقف في القضاء، وأنا الان ربطت حياتي بهذا الرجل ومستعدة للموت من أجله. فقد منحني خوسي هذا الحمل الذي حلمت به عمرا طويلا، ومنحني الحب والسكينة. وإذا كان من خطأ فأنا أتحمل تبعاته.

اهتزت القاعة طويلا بالتصفيق الحاد. لم يتوقف إلا بعد أن ضرب القاضي على المكتب، العديد من المرات، بمطرقته.

- هدوء من فضلكم. نستمع للشاهد الثاني، كارلوس مولينا.

- شكرا سيدي القاضي. لا يوجد أي اعتداء عليه. الجرح الذي على وجه غارسيا قديم. وجاء مني وليس من غيري. اعتدى على زوجتي زمردة، وعليّ. وانتهى الأمر بسجني ستة أشهر، مع أني كنت في وضعية دفاع عن النفس. الوثائق محفوظة لديكم سيدي، وهي أيضا عند ميتر أدولف. حتى المستشفى الذي قام بتخطيط الجرح منحنا وثيقة، يمكنكم الاطلاع عليها. وأعتقد أنه نفس كلام بقية أصدقائي وزمردة.

- الشاهد الثالث. السيدة زمردة.

- أنا فقط قدمت للمحامي ميتر أدولف شهادة اعتداء جنسي قام بها هذا الرجل ضدي. ولولا بعض الحاضرين لتحولت المسألة إلى كارثة، ولقتله زوجي كارلوس.

- من هذا الرجل؟ علّق القاضي.

- غارسيا بيكينيو. ولأني رفضت الانصياع له، ضربني غارسيا على وجهي، فتدخل كارلوس وأنقذني من مخالبه، وضربه على وجهه بشفرة حادة دفاعا عني وعن نفسه. وكان يمكن أن يذبحه لولا تدخل بعض العقلاء. وقدمت شكوى ضده. انتهت به الى السجن. واعتقل زوجي كارلوس أيضا على الرغم من أنه كان في وضعية دفاع عن النفس. غارسيا كان يحمل سكينا.

- نسمع الآن للسيد خوسي أورانو إذا كان يريد أن يقول شيئا.

رفع المحامي يده طالبا التدخل، لكن القاضي رفض.

قال القاضي بعد أن تشاور مع قضاة مجلسه.

- نريد أن نسمع المُدَّعى عليه، السيد خوسي أورانو.

قام خوسي أورانو. سحب بنعومة يده من يد أنجلينا.

- أنا أشكركم سيدي القاضي أنكم أتحتم لنا فرصة لتوضيح القضية، والاستماع إلى الشهود. حياتي كلها قضيتها في الأسفار والصراع من أجل إعلاء شأن هده المدينة العظيمة، التي صاغت كل القوميات في ثقافة واحدة متنوعة. لا حقد لي على غارسيا. هددني ولم أقم بأية ردة فعل، في سوق شعبية مليئة بالناس. قدمت تظلما للشرطة، أنا لم أولد للقتل ولا للضغينة. أفكر في منازلتي التي لم يعد يفصلني عنها وقت طويل، والاهتمام بابنتي القادمة.

خفف القاضي من الجو الصارم للجلسة، قال ضاحكا:

- كيف عرفت أنها بنت؟

- لأن حبيبتي أنجي قالت ذلك هههه.

- أربكني كثيرا لأن أمرا مثل هذا لم أتوقعه.

- تقول إنه عند الغجر نساء مختصات في تحديد جنس الجنين، من خلال حركته في بطن أمه هههه.

- تفضل. لنقل إننا تعلمنا شيئا جديدا.

- أشكركم سيدي القاضي، على سعة صدركم من أجل الحق والاستماع لنا. لا دولة، بل لا بلاد بلا حق. هذه ليست جملتي يا سيدي، لكنها جملة المرأة التي فتحت عيني على الكثير من الأشياء التي لم أكن أراها: أنجلينا، أو حبيبتي أنجي.

صفق الحاضرون مرة أخرى. دق على المكتب بنعومة. ثم قال ضاحكا:

- اتركوا التصفيق لكوريدا خوسي أورانو القادمة. تنتظره منازلة شاقة في شهر نوفمبر.

زاد التصفيق حدة. صرخ غارسيا بيكينيو دافعا ميتر روشتو الذي حاول أن يهدّئه، حتى أسقطه على الأرض. هياجه دفع به إلى الأمام باتجاه منصة القضاة، وهو يصرخ.

- كلكم كلاب. اشتركتم، وهذه القحبة، للقضاء علي. اشتراكم خوسي أورانو بشهرته.... أولاد الكلب، هذه ليست محاكمة، ولكن مجزرة. مجزرة حقيرة.

رفع القاضي صوته في مكبر الصوت الذي أمامه:

- يسجن المدعي غارسيا بيكينيو، في الحبس الاحتياطي، على ذمة التحقيق في قضايا كثيرة، الكذب المضر بسلامة الآخرين، حيازة المخدرات ولو بكميات قليلة، الاعتداء الجنسي، والتعدي على القضاء بشكل سافر. المدّعَى عليه، السيد خوسي أورانو حر طليق، وبإمكانه تحرير عارضة يطلب فيها تعويضات عما لحقه من ضرر. رفعت الجلسة.

صفق الحاضرون كثيرا وهم يصرخون: يحيا العدل. يحيا العدل. بينما خرج أورانو وأنجلينا من باب خلفية برفقة ميتر أدولف.

ظل العشرات من الحاضرين، ينتظرون عند الباب، خروج خوسي أورانو، وفي أيديهم أوراق وأقلام. الكثيرون عرفوه من الإعلانات المعلقة في أمكنة كثيرة من المدينة.

22

في كل مكان في وهران، وفي محيط حلبات مصارعة الثيران، علقت لوحة خوسي أورانو الشبيهة بالليتوغرافيا، وهو يتفادى قرني الثور لحظة الإستوكادا.

قطع خوسي الطريق المؤدي إلى مقصورة الضيافة داخل كوريدا وهران، بصعوبة. حيث كانت أنجلينا في انتظاره. لقد وقف الناس في طابور طويل، ترتسم على ملامحه علامات سعادة غامرة، كان من الصعب عليه تفاديه، أو التغاضي عنه.

دخل المقصورة أخيرا. عانق أنجلينا التي كانت تنتظره. قبل

بطنها. كانت برفقة كامليو الذي كلف بمرافقتها وحمايتها من أي انزلاق أو تعثر قد يحدث بسبب كثافة الحضور.

- كيفك حبيبتي أنجي.
- أحسن من ليلة البارحة. ربما التفكير الكثير فيك، دفع

بإزميرالدا إلى التحرك والاحتجاج هههه طمأنتها منذ الصباح، عندما ذهبتَ للتدريبات، أن بابا سيعود، سيتفرغ لنا كما يجب، فهدأت، وهي بانتظارك.

انحنى على ركبتيه. مد يديه إلى خصر أنجلينا، ثم انحنى برأسه على بطنها، وأخذ يستمع إلى حركات إزميرالدا.

- هل تسمعين ماذا تقول. ماما مهبولة بزّاف. وجبانة. وتنسى أن حبيبها قضى حياته مع الثيران ويعرف قوتها ونقاط ضعفها، لا خوف عليه وهو في كامل راحته واستعداده.

- قولي له إن ماما تقول لك نحرسك معا بكل حواسنا، والرب سيكون برفقتنا لرعايتك. أكدي له أننا إذا خسرناك، خسرنا حياتنا كلها.

قبل يدها. نظر طويلا في عينيها. قبلهما.

- لا خوف حبيبتي. كل شيء سيمر بسرعة. لن أخيب العشرة آلاف التي لم تترك فجوة حتى لعصفور ليجلس بينها.

- ننتظر انتهاء مقابلتك. ونرتاح في بيتنا أخيرا. ذوقك رفيع حبيبي. رغم أن الأحمر يسحبني لكنني أحب البنفسجي الذي وضعته في الأماكن المضاءة في البيت. كنت أظن أن ذوقي خشن، لكن الظاهر أن ذوقنا المشترك سيولد شيئا جميلا. نتغير حبيبي. لم أعد أنا، ولم تعد أنت. أصبحنا نحن.

- أصبحنا نحن.

- حتى لباس إزميرالدا الاول سيكون مزيجا من الأبيض والبنفسجي. عندما تكبر، نذكرها بالمباراة التي حضرتها وشاهدتها بقلبها وحواسها. وستعرف كم كنتَ إنسانا عظيما. وكم كانت أمها وفية لكل شيء جميل ورثته عن الغجر، بالخصوص صناعة العطور والأغاني التي أنتج منها حتى اليوم أسطوانة 33 وأسطوانة أخرى من نوع 45. وأمها أو أنجي ENGY كما في أغلفة الأسطوانات، ويبدو أنه أعجب الناس كثيرا. كانت مجنونة مولعة بالحياة. سنورثها أجمل الأشياء. وسنمنحها لها بلا تردد، وتظل ثقافة أجدادها مستمرة وحية فيها.

- سيفرح بها جدها. تهمة تهريب الأسلحة أسقطت عنه. وهذا أجمل شيء يجعلني سعيدا وأنا أدخل على هذه المنازلة.

ضمته إلى صدرها. وضعت يده على بطنها.

- هي الآن مستكينة، ومرتاحة. حبيبي. اعرف أنك حذر جدا، لكن أرجوك احذر. هذه منازلة قوية مع ثيران عنيفة جلبوها من مزارع المكسيك.

- لا تفكري في هذا مطلقا. استمتعي بالمنازلة، ستكون جميلة. المشتركون فيها مجموعة جميلة، البيكادور، البندريوس، سأقوم بذلك بنفسي، الموليتا. كلهم جاهزون. المهم أنت. الحياة تنبت فيك.

- سأكون برفقة العصابة العظيمة، فرقتي النسائية للغناء، خمنيث، هيلينا، اشترطا أن أجلس بينهما. كامليو سيقوم بواجب الحراسة وفسح الطريق لي. كما ترى ملكة.

- سأرمي قبعتي باتجاهك. مرفقة بأذني الثور.

- أرجوك لا تفعل هذا. لا تجعلني أكرهك. عد لي أنت فقط، ودعنا نشبع منك أخيرا. لا تخضني كما حدث معك في مكسيكو حينما كاد يقتلك الثور الفتاك آمور، لأنك سهوت في شيء، في ثانية من الثواني. ركز في وفي إزميرالدا، فقط.

قبل عينيها.

بدأت موسيقى باسودوبلي تملأ الملعب وأصداؤها تسمع في كل مكان، حتى خارج الحلبات. كانت إعلانا عن أن الاحتفالية في طريقها إلى البداية.

انتهى خوسي من شرب قهوته، بينما اكتفت أنجلينا بعصير جيدور[1]. المشروب الوحيد الحاضر في كوريدا وهران. الشركة التي تنتجه هي الراعي الرسمي للكثير من المنازلات.

مرّ رئيس المنازلة، وبقية المشتركين في كوريدا اليوم. حيوا أنجلينا واستسمحوها في مرافقة خوسي أورانو.

1. Judore.

قام خوسي. قدم زوجته للرئيس.

- متشرف سيدة خوسي أورانو، أنا روديو كاليانتي، رئيس

منازلات اليوم. استسمحك بأخذه معي، لنتفق على القواعد التي يعرفونها جيدا، لكنه تقليد طبيعي قبل بدء أية منازلة.

توغل خوسي في البهو الذي يؤدي إلى معبر الثيران وهي تتهيأ للدخول إلى المعترك. القرعة جعلته في مواجهة كتلة عضلية من أكثر من 600 كيلوغرام عليه أن ينازلها حتى النهاية: مويرتي، أو روكا نيغرا[1]. الثور الوحيد الذي يحمل اسمين.

تحسس ظهر الثور برفقة رئيس الكوريدا ومراقب مجرياتها. رأى عينيه. كان بصحة جيدة.

وقفوا صفا مستقيما في قاعة الاستقبال بعد الانتهاء من وضع اللمسات الأخيرة على الألبسة والواقيات، استعدادا للخروج نحو الحلبة، المتادور، البيكادور، وأصحاب المولیتا والمساعدون، في ترتيب يعتمد على السن. كان البيكادور أكبرهم سنا. بعده خوسي أورانو، ثم الآخرون.

دخل الغوازيل[2] بلباسه الأسود، يسبق الباسيو[3]، المتادور والبيكادور، والبندريوس[4]، وبقية المساعدين، ليعلن عن بدء الاستعراض والمنازلة. يحيي الجمهور الذي كان يغلي في انتظار المنازلة. لا توجد زاوية واحدة فارغة. حتى المقاعد الجانبية والممرات الصغيرة، امتلأت.

رفع الرئيس عاليا الخرقة البيضاء إعلانا عن بدء ليديا[5].

ثم انسحب الجميع تحت موسيقى باسودبلي القوية.

أصبحت الحلبة فارغة كليا.

---

1. Roca Negra.
2. L'Alguazil.
3. Passeo.
4. Banderillos.
5. Lidia بدء المصارعة

دخل الثور مويرتي. صخرة من البازلت الأسود. روكا نيغرا. خرجت همهمات معلنة عن رعبها من تلك الآلة الجبارة التي تواجه خوسي أورانو.

بدأ يدور في كل الاتجاهات بحثا عن أي شيء ينطحه ويدوسه.

دخل شاب أنيق في كل حركاته. رآه الثور، ركض نحوه بكل قوة. وقبل أن يصل إليه، كان الشاب قد دخل في الممر الخشبي الواقي. حاول الثور أن ينطحه، لكن الشاب لم يخرج. وظل ينظر إليه بالكثير من الخوف. خرج شاب آخر وفي يده موليتا، داخلها أصفر وخارجها لون بنفسجي مريح. ركض باتجاه الثور مويرتي، ليدفعه إلى الحركة. وبدون سابق إنذار جرى مويرتي وراءه حتى كاد يغرس قرنيه في مؤخرته لولا أن قفز كليا فوق الحاجز على وقع صراخ الجمهور الحاضر.

دخل متادور مسن قليلا، هذه المرة لم يهرب. تأمله الثور مويرتي قليلا، بينما فتح المتادور الموليتا عن آخرها. ركض نحوها، وبحركة خفيفة انتهى الثور إلى الفراغ. تكررت الحركات ومويرتي في كل مرة إما يخرج من وراء الموليتا أو يقف طويلا متأملا قبل الهجوم على المتادرو. في الأول رسم بحركة يدوية أنيقة ومدروسة بدقة الفيرونيكا[1]. في الثانية غير تدوير الموليتا بطريقة أنتهت إلى رسم شيكويلينا[2]، قبل أن يختمها بريبوليرا[3]. وفي كل الحركات كان مويرتي ينتهي في الفراغ، وعندما يدور، يكون المتادور قد التفت نحو تصفيقات الجمهور، وعين واحدة على حركات مويرتي الذي يمكن أن يخدع المتادور.

خرج المتادور تحت تصفيقات حادة للجمهور قبل أن يدخل البيكادور الذي كان في زمن مضى أهم من أي متادور آخر على الأرض. كان هو سيد الكوريدا. تحرك الحصان بهدوء قبل أن يحاول مويرتي

1. Veronique.
2. Chicuelina.
3. Rebolera.

هزّه وحمله على قرنيه. كانت ضرباته الجانبية قوية. قاوم الحصان بالواقيات التي تغطي جانبيه وصدره. حاول بعنف أن يحمل الحصان كليا والبيكادور ويرميهم خارج الحلبة. لكن حركات الحصان ومحاولة غرس رأس الرمح المعدني بين كتفيه، كانت تبعده من حين لآخر قبل أن يعاود مويرتي الذي أبدى قوة حقيقية في الحراك، في محاولاته ضرب الحصان والبيكادور بقرنيه الحادين.

لم يبد على الثور عياء كبير. عندما غادر البيكادور الحلبة، ظل مويرتي مثبتا في مكانه، كأنه كان يصغي إلى التصفيقات التي كانت تأتي من كل الجهات.

فجأة علا الصراخ القوي، باتجاه المدرجات العالية. خووووووووووسي، عندما رآه الجمهور يدخل بلباسه الأزرق البحري، بلا موليتا، تحت موسيقى كارمن التي كان قد اقترحها لأنه يرتاح لها في عراكه القتالي مع الثور. كانت التصفيقات تتعالى من كل الجهات.

فجأة ساد الصمت الكلي. أخذ السهمين الصغيرين الملونين البونديريوس[1]. ثم وقف مواجها مويرتي الذي بينت حركة صدره أنه كان يجد صعوبة كبيرة في التنفس. ثم اندفع بقوة نحو مويرتي الذي تحرك بشكل معاكس وكأنه سيصطدم بالبوندريوس. عندما أصبح على مقربة أقل من متر، انحرف يمينا في الوقت الذي كان قد غرس فيه السهمين.

صفق الجمهور بشكل متناغم مع المتادور.

وقف خوسي قليلا. استرجع أنفاسه. ثم عاود الكرة. بنفس الطريقة التي سمحت له بتفادي قرني الثور. غرس السهمين الجديدين.

استلم سهمين آخرين. لم ينتظر كثيرا هذا المرة، فركض بأقصى ما يمكن باتجاه مويرتي الذي بدا ثقيلا، لكنه غير مستسلم. عندما حاذاه قفز عاليا بشكل جانبي وغرس السهمين الصغيرين المتبقين في هذا الفصل الثاني من الكوريدا.

1. Banderillos.

وقف خوسي براحة كبيرة يحيي الجمهور استعدادا للمرحلة الثالثة التي هي الأقسى لأنها تنتهي بالإستوكادا، التي كلما كانت ناجحة، شعر المتادور بأنه ما يزال قادرا على ممارسة هذه الرياضة الصعبة والقاسية، والدموية أيضا.

صفقت أنجلينا بكل عنفوان. تذكرت أنه عرض نفسه أمامها من يومين بلباسين، بدوائر ذهبية على الأزرق والأخرى على الأبيض الذي كان يعطيه راحة أكثر في الحركة. قالت له ليلتها.

- اختر ما تريده حبيبي. تعرف أني مجنونة على الأبيض معك. ولو أني مجنونة على الأسود أيضا. وأحب الأزرق لأنه يشبه قلبك وحواسك العميقة.

- ستكون آخر كوريدا للموسم، بالأبيض. حتى الأزرق لذيذ.

- أنا أيضا أعشق الأبيض. ولو أن هذا اللون يعطي الانطباع بأننا في حالة استعراضية.

- المهم حبيبي البس ما يسعدك ويسعد إزميرالدا.

- ليكن الأزرق البحري.

رأته بكل عنفوانه وهو يضمهما. مرر أصابعه على شفتيها. على وجهها. قبل عينيها. ضمها وهي جالسة مثل طفل عاشق.

همست في أذنه.

- أريد الليلة أن اكون لك بكلي.

- وأنا مثلك أنجلينا.

- ستفرح إزميرالدا. لأننا سنجتمع ثلاثتنا فيك. أنت جسدنا العظيم. حافظ علينا جميعا قدر ما تستطيع. تخيل خوسي؟ أصبحت لا أعرف

نفسي؟ كنت كتلة من النار، فأصبحت هادئة جدا. شيء عميق تغير فيّ؟ وكأني لم أعد غجرية؟

- أنت حبيبتي وغجريتي التي أحببت. لكن لا تنسي أنك مثقلة بإزميرالدا؟ ولم يعد بإمكانك أن تكوني بجنونك القديم هههه. لا تهتمي، لقد تغيرنا كلنا. الحجر نفسه يتغير.

نظر إلى السماء للحظات، بينما كانت عينا مويرتي تزدادان حمرة وعنفا. التفت نحو الجمهور في الحواجز الأمامية. كانت هناك أنجلينا بسكينة كاملة.

رفع يده. استلم خوسي المولوتا الحمراء، الخفيفة من أيدي المعاونين، وبدأ يحضر نفسه للمرحلة الثالثة والأخيرة.

ابتسم. ابتسمت أنجلينا.

23

ارتفعت الهتافات عاليا.

هووووووووولي.

بعد الحركة الثالثة، أنجز خوسي أورانو، ميلانا مقوسا ديريتشازو[1] بالموليتا. تعثر مويرتي وانتهى على ركبتيه، وكاد يأخذ في طريقه الموليتا الحمراء، إذ تمزق جزؤها التحتي. وأصبح من الصعب جذبها. ثم قام الثور بسرعة وهو في حالة غليان غير محدودة. توقف خوسي كليا في مكانه كأنه تجمد. قام باستقامة ثم بدا يحرك جسده بتثاقل بشكل ثعباني. نفَس مويرتي بدأ يضيق، وصدره يتقلص. توقف. هز رأسه وهو ينظر إلى خوسي بشكل غريب. كان بإمكان خوسي أن يدخل في الممر الخشبي لينقذ نفسه من حدة مويرتي إذ ظهر في حالة غليان غير مسبوقة، كأنه تناول شيئا زاد في حدته وانفعاله. خوسي نفسه لم ير ثورا بذلك الغليان.

نظرا إلى بعضهما.

رفع خوسي رأسه قليلا باتجاه مويرتي. تراجع قليلا إلى الوراء، اندفع بجنون، وبشكل أعمى، باتجاه خوسي.

صرخت أنجلينا: خووووووووسي احذر. أنت بلا موليتا؟

بدا لها كأنه سمعها. لم تبق في يده إلا بقايا قطعة من الموليتا. بحركة مخادعة، مدد بقايا الموليتا على صدره وانتظره حتى اقترب الثور في

1. derechazo,

سرعته جنونية متجها نحو جسده. في الثانية الأخيرة قام بالبيتشو[1]، ومال قليلا، فاسحا الطريق أمام مويرتي في حركة دائرية قل من يقوم بها بنجاح، فالتهبت المدرجات، بينما ارتمى مويرتي نحو بقايا الخرقة الحمراء بكل ثقله. لم يستطع أن يتوقف إلى أن اصطدم بالعارضة الخشبية التي التصق قرنه بها ولم يتخلص منها إلا بصعوبه تحت ضحكات الجمهور. وانتشاء أنجلينا.

دخل أحد المساعدين فقدم لخوسي موليتا جديدة تحت تصفيقات الجمهور. تخلص مويرتي نهائيا من الخشب ثم بدأت أنفاسه تتسارع ووقف يتأمل المشهد الساخر.

عاد الدم إلى وجه أنجلينا. وبدأت تصفق بكل قوة. شعرت بأن اللحظة الأخيرة من المصارعة بدأت تقترب، ومعها تتنفس الصعداء أخيرا. هذه المنازلة، ظلت شجنها الكبير. فهي خائفة عليه من الفاجعة التي أخذت في طريقها الكثيرين.

ينتابها من حين لآخر هذا الإحساس الأسود، لكنها سرعان ما تطرده ولا تبقي بين عينيها إلا ما يفرحها.

« خاض العشرات من المصارعات وانتصر فيها كلها. ما معنى اليوم وهو على حافة النهاية، ليعود إلى الحياة الطبيعية. لا يمكن أن يكون القدر بكل هذه الخساسة؟»

بدأ خوسي أورانو يسير في الحلبة على راحته بوصفه المعلم الأوحد. التفت نحو الجمهور وبدأ في حركات راقصة لا يتقنها إلا هو. بينما بدأ مويرتي في لحظة مخاتلة، يتحرك وراءه بهدوء، ثم بدأ يسرع باتجاهه وهو ما يزال ينظر إلى الجمهور، فجأة علت صرخات الناس المكتظين في المدرجات. قام كثير منهم من أماكنهم. **خووووووسي ورااااءك**. لم يلتفت. في اللحظة التي هجم فيها مويرتي على ظهر خوسي، كان هذا

1. Pecho.

الأخير قد سحب نفسه من مسار الثور، وفرط المولیتا على اتساعها. ودار في مكانه ثم جلس على ركبته، بينما كان مويرتي يحاول عبثا أن يوقف انزلاقه. أتم خوسي حركتين متتاليتين بالموليتا، فيرماس وباندیراس[1]. لم يترك أي راحة لمويرتي.

كان كمن يرقص الفلامنكو. بينما مويرتي في كامل هياجه وضيق تنفسه، يتحين فرصته الكبيرة للهجوم عليه.

كان الجمهور سعيدا أن مويرتي ثور مقاتل حتى النهاية. وليس جامدا. لا يتوقف إلا ليأخذ نفسا ويواصل حراكه.

لمح خوسي أورانو الرئيس خلف الحواجز الخشبية. حركه إعلان غير صريح عن بداية التحضير لإعطاء الأمر لتنفيذ الإيستوكادا. لكن مادام الجمهور راضيا عن المنازلة ومنسجما معها، يمكن للمتادور أن يواصل إلى أن تصله إشارة ضرورة الحسم من خلال دقات الجرس المنبه.

بدا التعب واضحا على مويرتي.

شعر خوسي بأن لحظة الضربة القاتلة قد حانت. لاحظ أن الرئيس أصبح قريبا من الحواجز الخشبية، مما يعني أنه يستعد لإعطاء إشارة الإستوكادا.

ابتعد خوسي ثم جرى باتجاه مويرتي، الذي فتح عينيه عن آخرهما وركض باتجاه خوسي أورانو لحسم المعركة. فرط المولیتا باتسعاها نحو الجهة اليمنى. أصبح محاذيا له. على تماس. لكن في اللحظة التي استعد فيها لغرس الشفرة في ظهر مويرتي، شعر بأن سرعته كانت كبيرة وأنه سيخطئ مكان دخول الشفرة كما حدده منذ لحظات، مع صرخة عالية من الجمهور مرة أخرى.

هووووووولي.

---

1. firmas et banderas,

لكنه لم يفعل، وقفز بعيدا في حركة بهلوانية، وكأنه كان يلعب فقط بشكل استعراضي.

تمنت أنجلينا لو كانت تلك هي الضربة القاتلة التي تنهي المنازلة، لا كُرهًا في الثور، ولكن خوفا على خوسي. تمنت أن ينتهي كل شيء بسرعة. لم تعد قادرة على التحمل.

عندما هجم مويرتي على ظهر خوسي، ظنت أن كل شيء انتهى وأن الثور سيخترق ظهره ويرميه بعيدا جثة هامدة، لدرجة أن تقيأت طويلا. جيد أنها منذ أن أصبحت حاملا، صارت تحتاط لكل شيء. لم تأكل طوال اليوم باستثناء علبة يوغورت، وقطعة حلوى تحملها دائما معها.

سعدت لما اقترب خوسي أورانو من الرئيس مما يعني أن زمن المصارعة قارب على الانتهاء. أو ربما كان يذكره بالوقت المتبقي ليستعد للضربة القاتلة.

بخطوات محسوبة على إيقاع الفلامينكو السريع، فتح أورانو الموليتا عن آخرها وبدأ ينفذ حركات إغوائية راقصة لجذب مويرتي نحوه أكثر. لكن مويرتي كان متعبا وكأنه سيسقط بعد أول حركة. تنفسه ضاق كثيرا وأصبحت ضربات قلبه متواترة. يسيل من فمه لعاب كثيف. لكن خوسي يعرف جيدا أن للثيران المدربة الكثير من الحيل والضربات السرية المخبأة. تبدو هذه الثيران في الظاهر ميتة، لكنها تستعد للحظة الانتقام الأخيرة. وهو مصمم ألاّ يترك أي منفذ لِمويرتي.

ابتعد خوسي أورانو عن الحواجز الخشبية، واقترب من وسط الدائرة ليجلب نحوه مويرتي الذي ظلت عيناه مثبتتين في الفراغ.

تساءل الكثيرون، هل أخطأ خوسي الاستوكادا في المرة الأولى؟ أم أن رقبة مويرتي كانت قريبة جدا مما حدّ من حركته، فلم يستطع أن يثبت الضربة، فحولها إلى رقصة بهلوانية كادت تكسر رقبة مويرتي عندما دار بسرعة باحثا عن خصمه، لكن بصعوبة وكاد يلمس خاصرة خوسي

لولا أن تفادى قرنيه الحادين. لا أخطر من ضربة الخديعة، فهي شديدة الخطورة، لأنها غير منتظرة.

وقف قليلا، في مكانه كأنه كتلة حجرية. مقابله، وقف مويرتي في مواجهته بقوة وعنف. ثم انفصلا دون أن يمس أحدهما الآخر.

كلاهما ينظر إلى الآخر. كأن اللحظة الأولى من المنازلة انتهت وقائعها، وآن لهما أن يتنفسا قليلا وارتاحا قبل المواصلة.

لحظة صمت ثقيلة، شبيهة بتلك التي تسبق الموت.

لا أحد يتقدم نحو الآخر. هز مويرتي رأسه قليلا في مكانه. تأمل السماء. كانت ثقيلة بشمس قاسية. حرارة خانقة. لا غيمة فيها تلطف الجو. تلك سماء وهران، قبل أن يأتي المساء وتعود المدينة إلى حركتها الجميلة مع هبوب أولى النسمات المريحة.

عندما التفت نحو الجمهور الذي صرخ طويلا، أدرك بحسه أنه يريده أن يؤجل الضربة القاتلة. لكنه لا يريد أن يسقط في إنذارات رئيس الكوريدا الذي يمكنه أن يوقف المنازلة بعد ثلاثة إنذارات. ثم الوقت. عليه ألا يتجاوز العشرين دقيقة. الجمهور يجب إسعاده، لكن أيضا يجب حسم المعركة في وقتها. التأخر الكثير يعني إيقاف الرئيس للمنازلة.

تعالت صرخات الحاضرين كما في بدء المنازلة. انحنى قليلا قبل أن يزيغ بصره نحو أنجلينا. كانت هناك، بين مجموعتها الجميلة. بين خمنيث وهيلينا، ومحاطة بزمردة وكارلوس، وماريا وهندا الذين كونت معهم فرقة تستعيد كل أغاني الغجر الضائعة. كانت تلبس الأبيض، ولم تستطع ظلال الحلبة أن تخفي تفاصيله، بل رأى حتى الوردة الحمراء، على غير عادتها، التي وضعتها في الجهة اليسرى في شعرها وفق تقليد قديم عند الغجر.

رفعت كفها باعثة قبلة مشتعلة. أرسل ابتسامة وقبلة اهتز لها الجمهور كله، بصرخات عالية. كانت وحدها تعرف أنها لها. لها وحدها فقط.

ابتسم في أعماقه. تذكر الليلة الماضية عندما وضع رأسه على بطنها وبدأ يستمع إلى حركات ابنته، إزميرالدا، وهي تتحرك في بطن أمها. تلعب. تصعد عاليا. ثم تنزل بهدوء نحو القاع، خفيفة، كما لو أنها مجرد فقاعة، ثم ترتفع ثانية بخفة مثل الريشة. ثم تغيب في فضاء كانت وحدها تعرف دروبه حتى لا أحد يحس بوجودها. تتلاشى كما لو أنها غير موجودة، بلا حركة.

تتمتم أنجلينا:

« - يدك حنونة. لقد نامت إزميرالدا حبيبي. علمتها هذه العادة وستدفع ثمنها عندما تأتي. عليك أن تنومها بين ذراعيك. لقد بدأت دلعها من الآن. كلما غبتَ، اشعر بها تتحرك بعنف وكأنها منزعجة من شيء ما، أو خائفة. كلما وضعت عليها يدي، انزلقت وهربت.

- يمكن نامت قلبي.

- لا. غاضبة لأنك أهملتها اليوم كله.

- هل تنام حبيبتي دون أن تقول لبابا: تصبح على خير؟

- لا تشغل بالك حبيبي. نامت لأنها مطمئنة أنك هنا، وعدت لها بكل الخير بعد نهار ثقيل وطويل. هي قالت لك قبل أن تنام، بابا احسم المعركة بسرعة ودعنا نستمتع بالحياة. فيها ما يستحق أن نعيش من أجله. ونسافر معا في ربوع البلاد، هنا وهناك لتكشف أنها ليست كاراكول، وأنها لم تأت من عدم. ونجوب بها أراضي الأندلس. فهي تريد اكتشافها كلها.»

تأمل مويرتي الذي بدأ يتحرك بهدوء بشكل مائل، ليس كبقية الثيران، وكأنه درب بطريقة مختلفة. كتلة من العضلات الثقيلة كيف تخترقها شفرة الإستوكادا؟

كل شيء في الكوريدا يمضي وكأنه مسرحية شكسبيرية، في مشاهدها البطولية التي يواجه فيها الانسان قدرا حقيقيا، لا يعرف منتهاه. يفكر في

الانتصار والإمتاع، مؤجلا قدره الصعب. ارتفعت موسيقى إلباسودويلي، من جديد، كأنها تعلن بداية احتفالية الموت. اختلطت بصرخات الحضور.

تأمل خوسي أورانو المشهد مرة أخرى. كانت الحلبات ممتلئة جدا. لا فراغ فيها أبدا، وكأن البشر كانوا يتضاعفون كلما مر الوقت.

هز مويرتي رأسه في كل الاتجاهات، بتثاقل ظاهر بعد أن بقي سهم ملون واحد عالقا بظهره، عبثا كان يريد التخلص منه بحركاته. نظر صوب خوسي، لكن نظرته ظلت ضائعة، لا تستقر على مكان. زائغة في عمق فراغ بلا حدود.

رفع رأسه قليلا ثم صوب نظره هذه المرة باتجاه خوسي الذي حرك المولیتا عدة مرات وهو يحاول أن يقترب منه، بخطوات محسوبة بدقة هذه المرة. تنفس مويرتي عميقا على الرغم من أن أنفاسه كانت متسارعة.

ركز على حركة المولیتا. ثم انطلق هذه المرة بقوة وبلا توقف. بحركة نصف دائرية ظن أنه انتهى من خوسي ورماه بعيدا، لكنه شعر بالفراغ، لأن الضربة كلها غرقت في ارتعاشات المولیتا. تفادى خوسي قرني مويرتي بسرعة وخفة مما حرك المدرجات من جديد إعجابا وخوفا.

نظر مويرتي بحدة إلى خوسي، مثبتا عينيه الحمراوين. كان ينزف من ظهره كأنه عرف أنها اللحظة الأخيرة. قطرات الدم كونت بركا صغيرة عند حافريه.

فتح خوسي أيضا عينيه جيدا في مويرتي. شعر كأن شررا قد صعد منهما اصطدم بعيني مويرتي، كأن سيفين عدوين لبعضهما، تقاطعا في الفراغ بعد أن أخطآ الهدفين، محدثين صوتا حادا واشتعالا في حدّ الشفرتين، فتطايرت الشرارات في كل مكان.

لوح خوسي بسيفه الذي خرج من وراء المولیتا.

اقترب مويرتي أكثر وبدأ يضرب بقرنيه المولیتا كأنه يتدرب على اللحظة الأخيرة باحثا عن الفجوة القاتلة التي لم ينتبه لها خوسي. ثم عاود الدوران في حالة تكاد جنونية، حول نفسه متتبعا حركة خوسي والمولیتا.

قام الجمهور منتظرا أن يسقط مويرتي تلقائيا نظرا لدورانه المتسارع حول نفسه، متتبعا حركة المولیتا التي كانت تنغلق وتنفتح، حتى شك متفرّجو المدرجات أن خوسي يريد إسقاط مويرتي بلا إستوكادا؟ ثم توقف خوسي فجأة، متراجعا إلى الوراء، تاركا مويرتي يبحث عن توازنه. انحنى على ركبتيه، فاتحا يديه عن آخرهما باتجاه جمهور لا يطلب إلا هذا.

تدلى لسان مويرتي، خارج فمه بشكل شبه كلي. بدا وكأن المعركة انتهت عند الحد. لكن الثيران المدربة على التحمل، تسترجع عادة قواها بسرعة.

المسافة الآن بين مويرتي وخوسي أورانو، تسمح بتحقيق القفزة الأخيرة التي تعطي قوة اندفاع للإستوكادا. وقف في خط مستقيم، في نفس مسلك مويرتي الذي رفع رأسه عاليا. أدرك بحاسة الحيوان المدرب أن الخطر يزداد أكثر. تقدم مويرتي بخطوتين، ثم وقف يتأمل الشفرة تارة، وأخرى المولیتا، وثالثة، وجه خوسي الذي غابت ملامحه الأساسية تحت العرق والتعب وقوة التركيز.

لم يرفع رأسه نحو أنجلينا وإزميرالدا حتى لا يربكهما في سكينتهما وخوفهما المضمر، وعزلتهما القاسية.

تناهت إلى سمعه الصراخات الكثيرة التي كانت تأتي من المدرجات، مختلطة بجرس الرئيس التي كانت تعلن عن وجوب إنهاء المصارعة.

الأصوات تتعالى قريبة منه، تصل إلى أذنيه واضحة.

إستوكادا. إستوكادا. إستوكادا.

أغمض عينيه لثانية واحدة، ثم دقق نظره في موريتي.

تلاشت الأصوات كليا، وكأن شخصا أعطاها أمرا ما، فأسكتها. لم يلتفت خوسي صوب أحد.

لم يستطع أن يتفادى صوتها الذي جاءه كإيقاع موسيقي هارب، يدخل القلب بلا استئذان.

« – ألم تعدني بأنك ربما ستتوقف نهائيا عن الكوريدا، وأنك ستغادرها وأنت كبير، وأنك ستكتفي بالتدريب. أعرف أن جمهورك ينتظرك، وأنك تريد أن تسعده، لكن فكر فيّ وفي إزميرالدا. نريدك لنا قليلا. العمر يمضي. أحسم المعركة بسرعة. جمهورك سيفهمك جيدا. لقد اعطيته الكثير. نريد منك القليل فقط. لا أريد لإزميرالدا أن تكبر يتيمة، وحزينة. لنا كل وسائل السعادة والفرح.

– أنتما كل شيء في حياتي.

– احسمها بسرعة، ودعنا نحتفل للمرة الأخيرة بجنون، مع المجموعة، ومع أطفال التدريبات الذين يحبونك بجنون، وخمنيث وهيلينا، وكل مهابيل البحر. ذاك مكانك الجميل. بيتك الطبيعي. نهرب من الكوريدا ولو قليلا ومن أسواق الغجر. دعني أحبك وأجن بك وأشعر أنك أصبحت كل شيء بالنسبة لي. دعنا نحاول قليلا. الحياة ممكنة دوما. الأهم ألاّ نتركها تفلت من أيدينا. لأنها إذا فلتت راحت، وعليك أن تركض وراءها عبثا ليل نهار.

– سأفعل. ولو أن الجمهور سلطان لكنه ليس كل شيء.» .

ثبت بصره بدقة بين كتفيه. حلل حتى كل حركات الإستوكادا الممكنة والقفزة البهلونية التي لا أحد غيره يتقنها، إذ تجعل مقدمة ظهر الثور في متناوله كليا.

دار حول الثور النازف من ظهره حول نفسه. ضربات البيكادور كانت قاسية، وبعضها يبدو عميقا. تساءل خوسي كيف لهذا الجبل أن يظل واقفا بعد كل هذا؟

التفت نحو خوسي. رفع رأسه. ضرب على الأرض بقوائمه الأمامية وكأنه استرجع كل قواه فجأة، ثم انطلق صوبه بكل ثقله وعنفه. ركضه المتواتر كان يصل إلى دماغ خوسي الذي ظل في أقصى حالات تأهبه.

ضبط سيفه تماما في النقطة التي حددها، وزاد من سرعته، حتى كاد يصدم به، مع صرخة مدوية من أعالي المدرجات، لكنه لم يسمع شيئا. في كسور الثانية فرط المولیتا في الجهة اليسرى إلى أقصاها، متفاديا الضربة القاتلة التي كانت قوية لأنها لحظة العناد الأخيرة، التي كثيرا ما تكون خطيرة على الاثنين، فليس لدى الثور لحظتها ما يخسره أمام طاحونة الموت، لولا أن خوسي تفاداها، ثم استدار وهو في الهواء بعد أن قفز عاليا، قفزة الموت، منفذا إلسالتو دي لاموريتي[1]، ومال جهة اليسار بحيث أصبح مويرتي الذي غرق في المولیتا كمن يغرق في بركة دم فائر، تحت رحمته.

قفزة الموت، لحظة الإستوكادا، تعلمها من أستاذه في أشبيليا. هو نفسه تخلى عنها لأنها خطيرة جدا إذا لم تنفذ بدقة متناهية، وتحتاج إلى لياقة بدنية خارقة وإلا ستتحول إلى مقتل للمتادور.

ثوان قبل أن تمس قدماه أرضية الحلبة، كان قد أدخل الشفرة تماماً في النقطة التي حددها في زاوية معينة بدقة، ما بين مقدمة الكتفين، والرقبة. تركيز قوي يسمح بتوغل شفرة السيف بلا حواجز.

نزل السيف في عمق مويرتي، مخترقا الألياف والعضلات وبدا كأنه لا قوة تقاوم حدة الشفرة التي توقفت عند حدود المقبض. لأول مرة يحدث

1. El salto de la muerte.

معه هذا، سمع أنينا وشخيرا يشبه الموت يخرج مع أنفاس مويرتي. انتابته لحظة حزن محتها الصرخات التي أتت من كل أطراف المدرجات.

ثم انسحب خوسي بعيدا، من الجهة الثانية. وقف باستقامة كأنه يستعد من جديد لمعركة قادمة. لم يتوقف التصفيق نهائيا.

حاول مويرتي أن يرفع رأسه، لكنه وجد صعوبة كبيرة. احمرت عيناه حتى أشرفتا على الانفجار. هز رأسه يمينا، ثم شمالا، تتدلى لسانه وتضاعف ريقه، وأصبح الهواء يمر بصعوبة نحو رئتيه اللتين تكون الشفرة قد اخترقتهما. خارت قواه. ثم انحنى على قوائمه الأمامية. الدم يدفق غزيرا من فمه.

مشى خوسي قليلا وكأنه في حالة رقص. فاتحا ذراعية تجاه المدرجات التي قامت كلها تحييه، في منازلة الموسم الأخيرة، وربما كانت الأخيرة بالنسبة له. منازلته النهائية التي سترسخه أبدا في سجلات وهران، لمصارعة الثيران. سيكتفي بالتدريبات، ويتفرغ لإزميرالدا.

كان شخير مويرتي يأتيه مستكينا هادئا وهو يموت، قائماه الأماميان في الأرض.

ثوان وينتهي كل شيء. وستدخل العربة لانتشاله من الساحة، وينتهي كل شيء.

التفت خوسي نحو الجمهور للمرة الأخيرة الذي لم يبخل عليه بالتصفيقات التي لا تتوقف، واضعا الموليتا على ظهره. فاتحا ذراعيه عن آخرهما، مستمتعا بمشهد تراجيدي لن يتكرر أبدا. كانت الورود تنهال عليه بكثافة.

تمنى أن يركض صوب أنجلينا التي قامت من على كرسيها، محاطة بأصدقائها، في أقصى درجات فرحها، ويحملها ويجري بها داخل الحلبة، لكن لا يريد أن يكسر فرحة جمهور انتظره طويلا.

الورود تنهال عليه من كل الجهات، والفرق اللوجستية تنتظر الإشارة لدخول الملعب.

تمدد ظل حيطان الكوريدا مغطيا للحظات جزءا مهما من حلبة المصارعة. تبعته نسمة خفيفة هبت معلنة عن مساءات وهران الساحرة.

تنفست أنجلينا عميقا. تمتمت: الحمد لك يا ربي. رأت نفسها تركض برفقة خوسي وإزميرالدا على ساحل لاكاليرا الجميل والساحر، حيث يتعانق البحر والجبل والغابة. يركضان، بينهما الصغيرة وهي تنط وتقفز وتطلب منهما أن يرفعاها عاليا، عاليا، حتى تلمس سماء وهران براسها أو برجليها، أو حتى بوجهها.

فجأة سُمع شخير مخنوق. استطاع مويرتي أن يستقيم على قوائمه بصعوبة تحت دهشة الجميع.

توقف الضجيج فجأة وساد الصمت الكبير. كان خوسي يرفع يديه ملفوفا في المولیتا، يحيي كل الناس، ومن حين لآخر يأخذ باقة ورد من أرضية الملعب يعيد إرسالها إلى الجمهور.

لم يلتفت وراءه.

ضرب مويرتي على الأرض بحافريه الأماميين، ليمنح لنفسه القوة الاندفاعية الأخيرة. وبكل ما أوتي من قوة، انطلق بسرعة جنونية، نحو الجسد الملفوف في الحمرة، وهو يتحرك في كل الاتجاهات. بسرعة أصبح خوسي في مرماه. وقبل أن يلتفت هذا الأخير نحو الهدير الذي هز الأرض من تحت رجليه، كان مويرتي قد حمله على قرنيه عاليا ورماه بكل قواه في الفراغ، تحت صرخة كبيرة مكتومة. وقبل أن يمس جسد خوسي أورانو الأرض، كان مويرتي، روكا نيغرا، قد حمله ثانية، بعد أن غرس قرنه الأيمن، هذه المرة، في حوضه، ثم رماه مثل الخرقة، بعيدا بلا حراك، كمن يتخلص من شيء زائد. يتشممه قليلا، ثم ينحني مويرتي على قائميه الأولين، ويسقط مثل صخرة جبلية، بلا حراك.

نظر مويرتي، روكا نيغرا، إلى خوسي بعد أن رجع الصفاء إلى عينيه اللتين كان الدم قد ملأهما. ثم أسدلهما على مشهد جمهور صمت فجأة لم تبق فيه الا صرخة أنجلينا. **خووووووووسي**

توقف شخيره نهائيا.

فتح خوسي عينيه بصعوبة. لم يستطع أن يحرك ساكنا. تمنى أن يزحف نحو الثور. ويضع رأسه بالقرب من رأسه، لكن جسده ثقل كثيرا، ولم يعد يسعفه. نظر إلى السماء. هي نفسها سماء وهران في مثل هذا الفصل، حيث تنسحب الرطوبة ويكون الجو مساء جميلا ومغريا.

كانت زرقاء كبحر يفتح عينيه فجرا معطرا بمسك الليل.

التفت برأسه شمالا، رأى الجمهور وهو في حالة اندهاش مما حدث، وصمت كبير. يااااه. كم الحياة غريبة. بينها وبين الموت مسافة إصبع صغير، مسافة اللاشيء. التفت يمينا قليلا، ضحك بصعوبة. رأى دعاية جيدور على مدار الحلبة وشعارها الكبير: **اشرب جيدور وابتسم، فأنت في وهران. ألا تعلم أنها مدينة الصدف الجميلة التي تحميك من مخاطر الدنيا. قل شكرا جيدور. شكرا وهران، وامض إلى سبيلك.**

شكرا لجيدور هههه التي تصنع قدرنا بماركة مشروب وتنهينا على قرني ثور.

توقف بصره عند حدود أنجلينا التي كانت تصرخ، لكن صوتها لم يكن يصله. كل شيء كان يمر أمامه بالتصوير البطيء.

فجأة رآها بلباسها الأبيض، كأنها عروس قتِل حبيبها في يوم عرسها، وهي تركض نحوه متخطية كل الحواجز. ناداها، لكن صوته ظل مكتوما: أنجي... إزميرالدا... احذرا، الحواجز عالية.

لم تسمعه. ابتسم. أنجي مجنووونة... غجرية حتى آخر أنفاسها.

رآها بكامل عنفوانها ووردتها الحمراء، التي استبدلتها بأخرى بيضاء.

اتسعت بركة الدم من تحته، وامتزجت ببركة دم مويرتي.

«- المعركة لا تنتهي بسقوط الثور، ولكن بموته. كل ما يأتي بعدها مجرد تفاصيل صغيرة للتخفيف من مشهد الموت النهائي.

شعر برغبة كبيرة في النوم. أغمض عينيه قليلا. بدت له تفاصيل سجن سركاجي واضحة. من أين نفذت إليه؟ كيف جاءته؟ الساعة التي على الحائط أعلنت عن يوم 19 يونيو 1956، منذ ساعات. تدق دقتها الرابعة فجرا، الثقيلة كأنها جرس كنيسة قديم، فيستيقظ الحمام وطيور السنونو. نظر زبانا، حميدا، نحو نوافذ الزنزانات الأخرى، كان يصعد منها نشيد لم يفهمه جيدا، رآهم يمددونه على بطنه، ويثبتون يديه وراء ظهره. لم يقاوم. فجأة رفع العسكري الذي كان يغطي وجهه بقناع أسود، يده، نزلت الشفرة الثقيلة بسرعة، محدثة صوتا جافا، طار على إثره كل الحمام النائم في فجوات ساحة الإعدام.

حميدااا

لكن صرخته ظلت حبيسة حنجرة مختنقة.

فجأة انطفأ كل شيء، وعاد الصمت والسكينة.

لا أثر للألوان... الروائح... الأشكال... الجمهور... الأصوات.... ثم .... الكوريدا كلها غابت، الأحصنة، مويرتي روكا نيغرا، بعد الديسكابيلو[1]، بضربة سكين الفيرديغو[2] الجافة والقاتلة، ولم يبق إلا بياض شامل شبيه ببياض لباس أنجلينا الذي لفّه كليا لدرجة أن شم عطرها، ونشيد جنائزي غجري قديم يصعد مع بقايا أنفاسه التي كانت تخفت شيئا فشيئا، في سكينة غريبة.

... لا نخف من رياح تأتي بلا موعد،

1. Descabello.
2. Verdugo.

تبعثر العظام والغبار، والقبور القديمة.

أينما قادتنا الظلمات والأنواء،

نظل غجرا، أرضنا قلب من نحب،

وسماؤنا منتهى الرحيل...

وهران، الجزائر العاصمة، باريس، لاكمارغ (سانت ماري – دو-لامير) 2019

مكتبة نوميديا

الغجر يحبّون أيضا

واسيني الأعرج

تسعيد الرواية، بطريقتها الفنّيّة، حياة غجر وهران وما تعرّضوا له من تنكيلٍ نازيّ في الحرب العالميّة الثانية لم يكن أقلّ من الهولوكوست.

لسنا في إشبيلية أو في مدريد، ولا حتّى في ليما أو مكسيكو. نحن في مدينة وهران الخمسينيّات، في أحيائها الأندلسيّة، مدينة حيّة تتداخل فيها الأجناس والقوميّات واللغات والثقافات والهويّات المتباينة.

يتتبّع واسيني قصّة خوسي أورانو (الميتادور) مصارع الثيران الوهرانيّ، الّذي اكتشف بحاسّته الإنسانيّة المجتمع التحتيّ، الّذي عاش فيه زمنًا طويلاً دون أن يعرفه. يخوض معركته الكبرى مع نفسه بالموازاة مع مصارعة الثيران. الغجريّة أنجلينا أموندين، حبيبته الّتي لا تعرف من العالم إلّا روح كارمن، ولا سلاح لها لمواجهة قسوة مدينة لا تخفي عنصريّتها ضدّ العربيّ والغجريّ وحتّى ضدّ الإسبانيّ الكاراكول (الحلزون)، إلّا الحريّة والحبّ والإصرار على الحياة مهما كان الثمن.

الرواية صراعٌ مريرٌ ضدّ الظلم، مزيج متداخل من الثقافات والقوميّات المتراكمة المتفاعلة والمتنافرة في الوقت نفسه، هويّات غير معلنة، مصائر تراجيديّة على حافّة الانفجار بحثًا عن الحريّة في أجلى صورها، تلك الّتي نكتشفها في أعماقنا عندما نزيل الأتربة الثقيلة عنها وأكوام الرماد، ونتخلّص من الوحوش الّتي تستكين في دواخلنا.

التاريخ هنا ليس إلّا مطيّةً للّعبة الروائيّة لتمرير متخيّلها وترسيخه.

ISBN 978-9957-39-321-2

الأردنّ، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 منشورات 2020
لبنان: بيروت ☎ 95297109 7 00962